كيف نكون الحس الديني لدى الأطفال؟

إعداد
عمر هاشم محمد علي

بروج
BURUJ BOOKS

مكتبة حراء

مكتبة
حـــراء

كيف نكون الحس الديني لدى الأطفال ؟!

كيف نكون الحس الديني لدي الأطفال؟!

Copyright©2018 Buruj Books

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة، لا يجوز إعادة إنتاج أي جزء من هذا الكتاب أو نقله بأي شكل أو بأية وسيلة، سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير الفوتوغرافي أو التسجيل أو وسائل تخزين المعلومات وأنظمة الاستعادة الأخرى بدون إذن كتابي من الناشر.

تصميم وغلاف

أحمد علي شحاتة

رقم الإيداع

2017/20236

الترقيم الدولي

ISBN: 978-977-6631-20-5

رقم النشر

131

شركة بروج للأدوات المكتبية والمدرسية

القاهرة 2018م

Tel.: 002 02 25379391

Mobile: 002 01023201002

E-mail: info@burujbooks.com

www.burujbooks.com

كيف نكون الحس الديني لدى الأطفال ؟!

إعداد

عمر هاشم محمد علي

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس

المقدمة ٩

منهج أمهات المؤمنين في الدعوة من خلال التعليم ١١
زلفى أحمد

القراءة الذكية ١٥
مصطفى بوهبوه

كيف نكوّن الحسّ الديني لدى الأطفال؟! ١٨
صدر الدين أيدر

التربية ودفء المشاعر ٢٦
محمد حسين محمد

من أجل بناء إنسان سليم ٣٤
ناهد عبد المنعم

الفروق الفردية في العمل المشترك ٣٩
سليم أيدن

الطاقة التحويلية من السلب إلى الإيجاب عند الإنسان ٤٩
هارون أوجي

الفروق الجنسية في العملية التربوية ٥٨
شمس الدين بولات

الأسوة الحسنة ودورها في التربية الناجحة ٦٧
هارون أوجي

السنوات الذهبية، أيام ما قبل المدرسة ٧٧
هارون أوجي

الرابطة بين الأم وطفلها ٨٨
حسن أيدنلي

تربية الولد أم تربية الوالدين ٩٥
هارون أوجي

كيف نبني شخصيتنا الفاعلة؟ ١٠٤
سليم أيدن

الإعلام الجديد والشباب ١١١
العطري بن عزوز

إستراتيجيات في التواصل الأسري ١٢٠
عبد الله صدقي

الطفولة والإدمان الإلكتروني ١٣٠
أ. د. محمد خروبات

مجلات الأطفال في العالم الإسلامي من الورقية إلى الرقمية ١٤٣
خالد الصمدي

الأسرة وتحديات الكلام المعاصر ١٥٦
أ. د. محمد خروبات

الطلاق أكبر تهديد على الأسرة ١٦٦
حسن أيدنلي

كيف نربّي أبناءنا؟ ١٧٦
أ. د. بركات محمد مراد

التربية مع التعليم ١٨١
أنس كاريتش

أبناؤنا وشعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ١٨٨
صالح بن علي أبو عراد

أطفالنا وثقافةُ الأُمّ التربوية ١٩٣
أحمد مختار مكي

التربية الاجتماعية والتطرف ٢٠١
د. طارق الحبيب

الطلاق وأثره على نفسية الطفل ٢٠٧
د. عثمان أرجياس

الأسرة بين الشرع والواقع ٢١١
د. عبد الحميد الداودي

السلوك الإيجابي ٢٢١
د. عبد الدائم الكحيل

الذكاء العاطفي وبناء شخصية الطفل ٢٣٠
أ. د. بركات محمد مراد

في التربية بالمثال ٢٣٩
د. الحسان حالي

التربية على فن إلقاء السؤال ٢٤٦
د. نبيل طنطاني

صناعة الطفل المبدع ٢٥٥
أ .د. بركات محمد مراد

تربية أطفالنا.. بين التأديب والتأنيب ٢٦٠
خلف أحمد محمود أبو زيد

المقدمة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على خاتم الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد بن عبد الله وعلى آله وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

تحظى مواضيع التربية والتعليم للأطفال باهتمامٍ كبيرٍ من قِبَلِ الآباء والأمهات، وتشغل حيّزًا كبيرًا من تفكيرهم، وتستهلك نسبةً كبيرةً من جهدهم واجتهادهم.. فالآباء والأمهات يبحثون عن أفضلِ المناهج التربوية لأبنائهم، ويتمنون لهم أفضَلَها وأنفعها..

لكنَّ هذه الرغبةَ بتربية الأبناء على أكملِ وجه، وهذا الطموحَ بإلباسهم أبهى حللِ التربية إن لم ترفدْه المعرفة التامة والإحاطة الكاملة بالمناهج التربوية والطرق التعليمية المؤثرة فلا طائل منه ولا نفْعَ، لأن حبَّ مثل هذا الشيء وتمنّيه لا يكفلُ تحقُّقه ما لم تكن الرغبة متزامنة مع البحث والعلم ومحاولة التطبيق.

فكم من أبٍ تمنّى لابنه أن يتحلّى بالقيم التربوية؛ إلا أنه ربى عدوَّه في بيته دون أن يشعر، إلى أن رآه شيطانًا يافعًا لا أملَ في استقامة عودِه.. وغالبًا ما تكمن المشكلة في التربية منذ الصِّغر، فقد استُخدِمت وطُبِّقت على هذا الطفل وأمثاله منذ نعومة أظفارهم مناهجُ تربوية فاشلة، ظاهرها فيه النفعُ وباطنها من قِبَله الشقاء،

فبينما كان الأبوان يظنّان أنهما ينشئان شخصًا صالحًا وناجحًا؛ إذا بهما يُنتجان -دون شعورٍ- شخصيّة سلبية فاشلة..

لذا فإن التربية الصحيحة ليست بالأمر الهين ولا بالعمل البسيط، وإنما هي من أعقد العمليّات الحياتية وأدقّ التفاصيل الدنيوية، ومن الجديرِ أن يخضع الأبوان لدوراتٍ تأهيلية حول مناهج وسبلِ التربية الصحيحة؛ في محاولةٍ منهم لبذر الخيرِ في جذرِ قلوب أبنائهم..

وبما أن مجتمعنا -رغم حبه ورغبته في تطبيق أفضل المناهج التربوية- نادرًا ما يخضع لمثل هذه الدورات التربوية، ورغبةً منا بالمساهمة في تصحيح المسارِ التربوي لدى الأسرة المسلمة؛ فقد قمنا بإصدار هذا الكتاب القيم عن التربية، محاولين لفت أنظار الأسر ذات المسؤولية إلى أهمّية مسؤولياتها الأخلاقية والتزاماتها التربوية؛ سائلين المولى ﷻ أن يكتب فيه النفع والإفادة.

وقد جاء تصنيفُ هذا الكتاب مختلفًا وفريدًا، وذلك لأنه ليس من تأليفِ مؤلِّفٍ واحد، ولا بقلمِ كاتب واحد، وإنما هو عبارةٌ عن باقة من المقالات العلمية المتنوّعة التي نُشرت من قبلُ في مجلة حراء، ولكن هذه المقالات على اختلاف كتّابها يربطها قاسمٌ مشتركٌ، ألا وهو موضوعها، إذ إنها جميعًا تدندن حول التربية بمناهجها وأسسها وأركانها وقواعدها ومراحلها المختلفة.

منهج أمهات المؤمنين في الدعوة من خلال التعليم(*)

تهدف الدعوة الإسلامية إلى جذب المدعوين إلى الدين الإسلامي الحنيف، وتعريفهم بمقاصده وغاياته، وترغيبهم بشعائره وشرائعه. ولتحقيق هذا الهدف السامي يسير الداعية وفق منهج مدروس فيستخدم أسلوبًا مناسبًا؛ ليصل بدعوته إلى برّ السلام المنشود بطريقة مشروعة.

وقد استخدم الدعاة إلى الله تعالى في كل زمان ومكان الأساليب الدعوية المتنوعة؛ ليوصلوا دعوتهم إلى الناس، وليبلغوهم من خلالها تعاليم دينهم. ومن أبرز الدعاة الذين استخدموا أساليب مميّزة لنشر دعوتهم أمهات المؤمنين –رضي الله عنهنّ- ومن أهم تلك الأساليب الدعوية:

التعليم

أسلوب التعليم من الأساليب الهامة التي لا غنى للداعية عنها، فالدعوة بدون التعليم تبقى كلمات مثالية توجيهية، ولن يستفيد المدعو منها إلا بتطبيقها في واقع حياته العملية، وهذا هو دور الداعية، وذلك بتعليم المدعو بالطريقة الصحيحة المشروعة، وبذلك يجتمع عنده كلّ من العلم والعمل.

(*) زلفى أحمد

وأمهات المؤمنين ممن حُزنَ قصب السبق في هذا المجال، فعلّمن الجاهل وصحّحن المخطئ، وقوّمن المعوّج. ومن النماذج على استخدامهن لهذه الوسيلة: ما رُوي عن عبد الله بن شهاب الخولاني قال: "كنتُ نازلًا على عائشة، فاحتلمتُ في ثوبي، فغمستهما في الماء، فرأتني جارية لعائشة، فأخبرتها فبعثت إليّ عائشة فقالت: ما حملك على ما صنعت بثوبيك؟ قال قلت: رأيت ما يرى النائم في منامه، قالت: هل رأيت فيهما شيئا؟ قلت: لا، قالت: "فلو رأيت شيئا غسلته!؟ لقد رأيتني وإني لأحكه من ثوب رسول الله ﷺ يابسًا بظفري[١]". فعائشة ﵂ لمّا أخطأ عبد الله لم تدعه وشأنه، بل بادرت إلى تصحيح خطئه بالاستدلال بفعلها مع رسول الله ﷺ.

وتُعلّم عائشة ﵂ أحد مواليها طريقة الوضوء على نحو عملي: بأن تتوضأ أمامه وضوء رسول الله ﷺ؛ بُغية ترسيخ الطريقة الصحيحة في ذهنه، عن سالم سبلان -وكان عبدًا مملوكًا، وكانت عائشة تستعجب بأمانته وتستأجره- قال: "أرتني عائشة كيف كان رسول الله ﷺ يتوضأ[٢]".

وكانت ﵂ لا تتحرج من إجابة المستفتيين عن أي مسألة من مسائل الدين، ولو كانت تتعلق بالشؤون الخاصة، بل كانت تشجع من يستحي من السؤال عن مثل تلك الشؤون، ومن ذلك ما روي عن أبي موسى الأشعري أنه قال لها: إني أريد أن أسألك عن شيء وإني أستحييك، فقالت: "سل ولا تستحي فإنما أنا أمك"[٣].

وأم سلمة ﵂ صرح آخر من صروح العلم في عصرها، وقد روى عنها الكثير من الصحابة والتابعين، وتتلمذ على يدها الكثير من طلبة العلم[٤]. ولِفقها العميق وسِعة علمها بأمور الدين، كان الصحابة يستفتونها فيما جهلوا من مسائل شرعية: اختلف الصحابة في امرأة ولدت بعد زوجها بأربعين ليلة، فأرسلوا إلى أم سلمة يسألونها، فقالت: "قتل زوج سبيعة الأسلمية وهي حبلى، فوضعت بعد موته بأربعين ليلة، فخطبت فأنكحها رسول الله ﷺ، وكان أبو السنابل فيمن خطبها[٥].

ومثلها جويرية وصفية ﵄، فقد روى عنهما، وتتلمذ على أيديهما العديد من الصحابة والتابعين[٦].

ومن أمهات المؤمنين اللاتي حرصن على تعليم المجتمع ما لديهن من علم وفقه حتى في الأمور الزوجية الخاصة، أم حبيبة وميمونة ﵄ ولم يمنعهما الحياء من ذلك؛ لفهمهما التام إلا حياء في الدين .

روي عن معاوية بن حديج عن معاوية بن أبي سفيان أنه سأل أخته أم حبيبة زوج النبي ﷺ هل كان رسول الله ﷺ يصلّي في الثوب الذي يجامعها فيه فقالت نعم إذا لم ير فيه أذى[٧].

فمثل تلك الأحكام الشرعية الدقيقة الخاصة إن لم تنقلها لنا إحدى أمهات المؤمنين صعب علينا معرفتها؛ إذ إنها تتعلّق بخصوصية الزوج مع زوجته، ويُستحى عادة من الاستفسار عنها أو روايتها من قبل رجال الصحابة.

ومن وسائل التعليم التي استخدمتها أمهات المؤمنين –رضي الله عنهن- نقل أحاديث رسول الله ﷺ وتبليغها للناس.

فسودة ﵂ روت عن رسول الله ﷺ خمسة أحاديث[٨]. وكذا عائشة ﵂، فقد روت عن رسول الله ﷺ علمًا كثيرًا، طيبًا، مباركًا فيه[٩]، ويبلغ مسندها ألفين ومائتين وعشرة أحاديث[١٠].

أما حفصة ﵂ فقد نقلت لنا عن رسول ﷺ ستين حديثا[١١]، ولزينب بنت جحش ﵂ أحد عشر حديثا[١٢]، وجويرية بنت الحارث ﵂ روت عن رسول الله ﷺ ثلاثة أحاديث[١٣]، ولميمونة ﵂: ثلاثة عشر حديثًا [١٤]. وممن أكثرن من الرواية عن رسول الله ﷺ أم سلمة ﵂[١٥]، إذ روت عنه ثلاثمائة وثمانية وسبعين حديثًا.

الهوامش

[١] رواه مسلم – ٢٣٩/١- ح ٢٩٠

[٢] سنن النسائي – ٧٢/١- ح ١٠٠

[٣] مسند الإمام أحمد ٩٧/ ٦ – ح ٢٤٦٩٩

[٤] تهذيب الكمال في أسماء الرجال- ٣٢٠/٣٥

[٥] رواه البخاري-١٥٥/٦- ح ٤٩٠٩

[٦] المرجع السابق- ٣٥/ ١٤٦، المرجع السابق-٢١٠/٣٥

[٧] السيرة النبوية – ٣٩٦/٢

[٨] سير أعلام النبلاء-٢٦٩/٢

[٩] المرجع السابق- ٢/ ١٣٥

[١٠] المرجع السابق- ٢/ ١٣٩

[١١] المرجع السابق -٢٣٠/٢

[١٢] المرجع السابق-٢١٨/٢

[١٣] تلقيح فهوم أهل الأثر- ٢٩٣

[١٤] سير أعلام النبلاء – ٢٤٥/٢

[١٥] الإصابة في تمييز الصحابة – ٣٤٤/٨

القراءة الذكية(*)

نمر بمراحل تعليمية مختلفة بداية من الإبتدائية مرورًا بالإعدادية والثانوية ثم الجامعة ونحن ندرس ونقرأ؛ لكن للأسف ولا مرة علمونا كيف نقرأ؟ ولا كيف ندرس؟ كيف نقرأ كتابًا؟ كيف نلخص درسًا في ورقة؟ كيف نذاكر ونسترجع المعلومة بشكل جيد؟ كيف نقرأ بسرعة؛ خصوصًا ونحن في زمن السرعة والتكنولوجيا؟ أسئلة وغيرها تبقى وصمة عار على منظوماتنا التربوية المزخرفة من الظاهر لكن باطنها مخرب.

أول شيء يتعلمه الطفل في المدارس الغربية هو كيف يقرأ كتابًا أو تقريرًا، وكيف يلخص؟ كيف يذاكر؟ كيف يسترجع المعلومة بسرعة مع ترسيخها في الذاكرة لمدة أطول؟

لكن لا داعي لليأس فبناء الشخصية وصقل المهارات، والتحصيل العلمي الجيد جهاد في حد ذاته مهما حالت بيننا وبينه الشروط الضرورية والظروف المواتية. وفي هذا السياق يأتي هذا المقال المتواضع ليضع بين يدي الطلاب والتلاميذ بعض الخطوات الأساسية للقراءة الذكية، للنزوع حول الأحسن، بهدف التحصيل العلمي الجيد، خصوصًا إذا كان هذا العلم يندرج ضمن خدمة الرسالة المحمدية.

(*) مصطفى بوهبوه

فالقراءة فنّ ليس كل الناس يتقنه، لكن في إمكان الناس أن يتقنوه؛ شريطة التحلي ببعض المهارات والأسرار التي ستساعدهم في القراءة الذكية والمذاكرة الفعالة، ومن هذا المنطلق وضعت خمس خطوات للقراءة الفعالة والذكية وهي على النحو الآتي:

الخطوة الأولى: الاستعراض أو المكاشفة

الهدف من هذه الخطوة، هو أخذ فكرة عامة، وتتصفح في هذه الخطوة: العناوين (الرئيسية/الفرعية)، تعليقات الصور والجداول، المقدمة والخلاصة.

الخطوة الثانية: السؤال

الهدف من هذه الخطوة، هو تحويل العناوين (الرئيسية/ الفرعية) إلى أسئلة، ولا تنسى أن تكتب الأسئلة على الورقة، أو في مذكراتك.

الخطة الثالثة: القراءة

في هذه الخطوة تبدأ في القراءة. ومن الأساليب المستخدمة:

اقرأ لأجزاء الصعبة في الفصل أو الوحدة وحاول أن تسترجع ما قرأته، ولابد أن تكون القراءة ببطء حتى تحصل الفائية.

اقرأ الكلمات بالخط المائل أو العريض، اقرأ الملاحظات والبيانات الموجودة في الجداول، اقرأ المقدمة والخاتمة بتمعن.

الخطوة الرابعة: الاستذكار

في هذه الخطوة يحاول الطالب أن يسترجع ويتذكر المعلومات

الجديدة والمهمة التي قرأها خلال الفصل، استخدم أسلوبك الخاص واستخدم الخرائط الذهنية.

الخطوة: الخامسة المراجعة

الخطوة الأخيرة... على الطالب أن يقوم بما يلي:

مراجعة الملاحظات، مراجعة الأسئلة التي كتبتها، مراجعة الإجابات كاملة، مراجعة دفتر الملاحظات، مراجعة الخريطة الذهنية، بعد هذه المراجعة، يرتاح الطالب فترة، وفي المراجعة النهائية يحاول أن يجيب عن الأسئلة التي كتبها والأسئلة الموجودة في نهاية الفصل.

وفي الختام نتمنى أن يفيدكم هذا المقال، ويكون بمثابة الشرارة الأولى نحو النزوع إلى الأحسن في قراءاتكم، ومراجعاتكم.

كيف نكوّن الحسّ الديني لدى الأطفال؟![*]

إنّ السّؤال المتمثّل في "ماذا نعلّم الطّفل ومتى نعلّمه وكيف نعلّمه ومن يعلّمه؟" يشغل بال الآباء والأمّهات والمربّين منذ القديم. وعندما يتعلّق الأمر بالمواضيع الدّينيّة يصبح هذا السّؤال أكثر أهمّية. واليوم تقال أشياء مختلفة في هذا الموضوع، بل إنّ بعض الأشخاص -الّذين تُعرف نواياهم- يصرّون على عدم تلقين الأطفال أي تربية دينيّة حتّى سنّ الحادية عشرة، وهذا الأمر يلقي بضغوطه باستمرار على الأسر في بعض البلاد الإسلامية.

لم يلاحظ في زمن من الأزمان أنّ الإنسان عاش خلوا من الدّين. ولقد وجد "الدّين" بلا شكّ في جميع فترات التّاريخ بغضّ النّظر عن اسمه وشكله. فالإنسان الّذي تسكن بين جوانبه ميول ماديّة وتتنازعه جوانب روحيّة ويسعى جاهدًا من أجل مواصلة وجوده المادّي، يبحث من جانب آخر عن الأجوبة المُقنعة بواسطة "معرفة دينيّة" سليمة بشكل خاصّ. فالتّربية الدّينيّة الّتي يتلقّاها الإنسان في مرحلة طفولته تترك آثارها العميقة في نفسه طوال حياته، ولذلك ينبغي أن تقدّم له هذه المعرفة منذ الطّفولة.

(*) صدر الدين أيدر [باحث متخصص في علم التربية - تركيا]

وينبغي ألاّ ننسى أن الغصن إنما يُلوى وهو لا يزال غضّا طريّا. يقول الإمام الغزالي: "إنّ قلب الطّفل فارغ، صاف، له ميل فطري لتلقّي كلّ شيء، والميل إلى كلّ شيء". وأمّا ابن مسكويه فيقول: "إنّ الطّفل في هذه المرحلة جاهز لتقبّل كلّ التّعاليم والتّلقينات الّتي توجّه له". وكما يقول ابن سينا: "عند ولادة الطّفل تولد معه جملة من القدرات، بيد أنّه يتعيّن تطوير هذه القدرات"، بمعنى أنّ هذه القابليات إذا وجّهت نحو الخير والدّين نشأ الطّفل مؤمنا، أمّا إذا وجّهت نحو الشّر والإلحاد فإنّ الطّفل ينشأ كافرًا.

ويقول بديع الزّمان:

"إنّ الطّفل إذا لم يتلق في طفولته دروسا إيمانيّة حيّة، فإنّ نفسه بعد ذلك يصبح من العسير عليها تقبّل الإسلام وأركان الإيمان، بل إنّ هذه الصّعوبة تصل إلى درجة أن يصبح الواحد في علاقته بتقبّل الإسلام شأنه شأن غير المسلم".

وعند النّظر في المراجع المتعلّقة بنفسية الطّفل يلاحظ أنّ مرحلة الطّفولة تنقسم إلى ثلاثة أقسام. وهذه الأقسام الثّلاثة هي بشكل عام على النّحو التّالي:

١- مرحلة الرّضاعة: بين سنّ ٠-٣ سنوات.

٢- مرحلة الطّفولة الأولى: بين ٣-٦ سنوات.

٣- مرحلة الطّفولة الأخيرة: بين ٦-١١ سنة للإناث وبين ٦-٣١ سنة للذّكور.

وتعتبر المرحلتان الأوليان الأكثر تأثيرًا في مستقبل الطّفل.

مرحلة الرّضاعة

في هذه المرحلة الّتي تمتد من الولادة إلى سن الثالثة لا يلاحظ لدى الطّفل أيّ تعبير عن أي إحساس أو تفكير ديني. فالطّفل في وضعيّة سلبيّة تماما، وهو يحتاج في كلّ الأمور إلى الوالدين، غير أنّه من جانب آخر ليس معزولا بشكل تامّ عن العالم وعن محيطه. فالطّفل وإن كان لا يمارس أيّ نشاط بدني أو اجتماعي بالمعنى الحقيقي، إلاّ أنّه حسّاس إزاء الأحداث التي تقع في بيئته. فقد أثبتت الأبحاث أنّ الطّفل قد خلق مزوّدا بقابليات "روحيّة" إزاء التّلقينات الدّينيّة الّتي ترد إليه من الخارج. وقد عبّر عن ذلك العلامة حمدي يازر بقوله: "إنّ كلّ فرد قد ركّز في روحه إحساس بالحقّ، وغُرزت في داخله قوّة لمعرفة الله تعالى".

ويقول عالم النّفس الألماني هولنباخ: "يمتلك الطّفل إحساحا شديدا بالرّغبة في المعرفة والبحث عن قدرة غير محدودة تساعده وتحميه. وهي لا تزال غير ظاهرة، ولم يتمّ التّمكّن من شرحها إلى حدّ الآن. والشّيء الّذي يجعل من الطّفل شخصا متديّنا هو هذا الشّوق والرّغبة في الاكتشاف إزاء اللاّمحدود، وهذه الرّغبة كامنة في داخله. بيد أنّه من الضّروري أن تشجّع هذه الرّغبة ويُغذى هذا الحماس ويُوجّها من قبل العائلة".

مرحلة الطفولة الأولى (مرحلة التقليد)

بداية من سنّ الثّالثة يبدأ الطّفل بالاهتمام بمحيطه بشكل مكثّف، ويحاول أن يلعب بكلّ ما يقع في يده، ويحاول كذلك أن يتعرّف

عليه. وفي هذه المرحلة تبدأ مشاعر مثل الإحساس بالأمان والحبّ والإحساس بحبّ الآخرين في التكون بشكل كبير. ويريد الطّفل أن يبيّن أنّه ليس في حاجة إلى الآخرين من أجل تلبية هذه الاحتياجات. ونتيجة لذلك يعمل الطّفل على امتلاك كلّ ما يوجد في محيطه، ويسعى إلى كسره أو تمزيقه، وبهذه الصّورة يعمل على إثبات وجوده. والأطفال الّذين هم في هذا العمر يتصرّفون أساسا انطلاقا من عواطفهم. ويكون اهتمامهم أقوى إزاء الأشياء الّتي تخاطب عواطفهم. وبالإضافة إلى ذلك، فذكاء الطّفل ليس بوسعه إدراك جميع المفاهيم بعد، ولا يعرف كيف يتفاعل مع الأحداث الّتي تواجهه. ونتيجة لذلك فالتّقليد هو السمة التي تميّز الأطفال بشكل خاصّ في هذا العمر.

والأطفال الّذين هم في هذه المرحلة العمرية يشعرون بالحاجة إلى اتّخاذ نموذج لهم يتّبعونه. والأشخاص الّذين يمكن للطّفل اتّخاذهم قدوة هم أفراد العائلة. وقد كشفت الأبحاث أنّ بيئة الطّفل (الأسرة) هي العامل الأكثر تأثيرا عليه، في طبيعة تصرّفاته ومواقفه الدّينيّة. عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "**كل إنسان تلده أمه على الفطرة، وأبواه بعد يهودانه وينصرانه ويمجسانه، فإن كانا مسلمين فمسلم**"(رواه مسلم). فإذا كان الوالدان مسلمين يكون مسلما. فالحديث يشير بذلك إلى أهميّة الأسرة، وبشكل خاصّ إلى الوالدين في تكوين الإحساس الدّيني والفكري لدى الطّفل.

والأطفال في هذه السّنّ يستقبلون بكلّ تلقائيّة العبارات والسّلوك الدّيني وجميع العناصر الدينية الّتي يلاحظونها في أفراد العائلة،

ويعملون على تقليدهم باعتبارهم يمثّلون "النّموذج المثالي" بالنّسبة إليهم. وهذا الميل الفطري للتقليد لدى الطفل مصدره نفسية "تقليد المحبوب"، وهذا مهمّ جدّا فيما يتعلّق بتشكيل الحياة الدّينيّة لدى الطّفل. ومن هذا المنطلق على الأشخاص الّذين يتّخذهم الأطفال "نماذج" أن يكونوا حذرين إزاء ما يصدر عنهم من كلمات ومن تصرّفات. فالوالدان اللذان يوجّهان النّصح لأطفالهم بغاية تغذية المشاعر الدّينيّة فيهم، ينبغي أن لا يتعارض كلامهم مع حياتهم العمليّة، بل وينبغي أن يؤكد الكلام بالعبادات مثل الصّلاة والصّيام والدعاء والحج والإنفاق. فعندما لا يكون كلامهم الجميل متوافقا مع سلوكهم، وعندما تكون أعمالهم غير منسجمة مع أقوالهم فإنّ ما يصدر عنهم من كلام سوف لن يتجاوز آذانهم، بل إنّه في بعض الأحيان يصبح لهذا الكلام تأثير عكسيّ.

حسنا، كيف ينبغي أن يكون سلوك هذا النّموذج (الأسرة)؟

إنّ الأبوين اللّذين يريدان أن يكون لكلامهما وقع في نفوس أطفالهم، عليهما أوّلا أن يطبّقا ما يقولانه بصدق، ثمّ يطلبا بعد ذلك من أطفالهم الالتزام به.

القدوة الصالحة

إنّ استماع الطّفل للأدعية الّتي يدعوا بها الأشخاص (القدوة) الموجودون في محيطه، ورؤيته للعبادات والمعاملات الدّينيّة الّتي يقومون بها تمثّل أهميّة قصوى بالنّسبة إليهم. فما يسمعونه منهم يترسّخ في اللاشعور لديهم، ثمّ يبدأ الطّفل بعد ذلك شيئا فشيئًا

في تقبّله. فمثلا، يشاهد الطّفل الّذي هو في سنّ الثّالثة أو الرّابعة من العمر أحد والديه وهو يؤدّي الصّلاة ثمّ يتابع سلوكه ثمّ يحاكيه بعد ذلك. وكذلك عندما يلاحظ الطّفل أنّ والديه يبدآن بالاستعداد للصّلاة مع سماع الأذان، فبعد فترة من الزّمن ما إن يُرفع الأذان حتّى يسارع الطّفل إلى القيام، ويقول لهما "حيّ على الصّلاة"، وهو بتلك الحركة يريد أن يثبت ذاته.

كما أنّ كلمات الأدعية وعبارات الشّكر الّتي تقال في البيت بصوت مرتفع تصبح محلّ محاكاة وتقليد من قبل الطّفل بعد فترة من الوقت. كما ينبغي أن نقول للطّفل بأنّه يتعيّن عليه أن يدعو الله تعالى من أجل تحقيق حاجاته. وعلى هذا النّحو يترسّخ في ذهنه أنّ الله تعالى هو ملجأه الوحيد. ومن ناحية أخرى يجب أن نعلّم الطّفل الإيمان بالله وفوائد العبوديّة لله تعالى ونشرح له مساعدة الله لعباده المؤمنين.

وعند القيام بهذه العمليّة علينا أن نستعين في ذلك بالحكايات والقصص الّتي تشدّ انتباه الطّفل. فالحكايات والمناقب التي لها صلة بالإيمان تسرع من تطوير الأفكار لديهم، حيث تدل على أنّ وراء الأشياء الماديّة قوة أخرى. ولهذا السّبب يتعيّن أن نقصّ على الأطفال قصص الأنبياء المذكورة في القرآن، وكذلك سيرة النّبي ﷺ، إضافة إلى مشاهد البطولة والصّبر الّتي ميّزت حياة الصّحابة الكرام، والعزم والجهد الّذي أبدوه. وعلى هذا النحو يتشكّل في أذهان الأطفال النّموذج المثالي.

كيف يجب أن تكون اللّعب الّتي نقتنيها للطّفل؟

في هذه المرحلة لا يستطيع الطّفل أن يستوعب المفاهيم المجرّدة، لذلك يهتمّ بالرّموز أكثر. ولهذا السّبب ينبغي أن تكون اللّعب الّتي تعطى للطّفل قادرة على التّعبير عن الحياة الدّينيّة. فمن اللّعب الّتي تحتوي على عناصر دينيّة نجد "ألعاب التّركيب" والكلمات المتقاطعة وسيديهات الأفلام الكرتونيّة وغيرها.

وإلى جانب ذلك، هناك أسلوب آخر في التّعليم يتمثّل في الهدايا الّتي تقدم من قبل الأشخاص الّذين اتّخذهم الطفل قدوة ونموذجا. وهذه الهدايا يمكن أن تكون سجّادة أو مسبحة وما شابه ذلك من الأشياء. فالحسّ الدّيني لدى الأطفال لا يمكن أن يُزرع في نفوسهم إلاّ بواسطة الحب ومن قبل من يحبّون من النّاس. فربط الأطفال بالله تعالى عن طريق الأمل والحبّ، أمر مهمّ من حيث جعل ملكاتهم العقليّة والذّهنيّة في صلة بهذه الأمور مستقبلا. فالتّربية الإيمانيّة القائمة على حبّ الله تعالى تلتحم بالشّعور بالأمل والارتباط بالله تعالى، وهذان العنصران يعدّان من المشاعر الأساسيّة لدى الطّفل. وبذلك تتكوّن قواعد إيمانيّة قويّة وصلبة.

وأخيرا هناك عبارتان مختلفتان، إحداهما لطفل عمره خمس سنوات والآخر عمره ستّ سنوات، تلخصان التّربية الدّينيّة الّتي تلقّياها:

مراد (خمس سنوات): "عندما نقيم الصّلاة، ونحسن إلى النّاس يحبّنا الله تعالى. وعندما نخطئ فهو يغفر لنا. وهو يحبّ الأمّهات

والآباء والإخوة والجدّات والأصدقاء ويحبّ جميع النّاس، ويحبّ الأطفال الصّغار بوجه خاص".

علي (ستّ سنوات): "إذا عصيت والديْك فالله يعذّبك بالنّار... وإذا عصيْت والديْك وضربتهما فكأنّما عصيت الله تعالى. ولذلك فالله يلقي بك في جهنم ويحرقك فيها. أمّا إذا تفوّهنا بكلام سيء فالله يشوي أبداننا بالنّار الحارقة".

ولا داعي هُنا لنقول أيّ الحديثين أكثرُ رشدًا؟

التربية ودفء المشاعر(*)

إنّ صياغة عقل التلميذ وتشكيل وجدانه الإنساني منوطان بالسنوات الأولى من حياته المدرسية. فما لم يكن المعلم دافئ المشاعر ورقيق الأحاسيس، ومفعم الوجدان بحب الإنسان وعشق الطفولة، فإن العملية التربوية برمتها يمكن أن تتعرض للإخفاق. فالمعلم والتلميذ قطبا العملية التربوية.

أولا: المعلم ودفء المشاعر

"المعلم هو حجر الزاوية في العملية التعليمية"، هذه مقولة يرددها ويؤكد عليها التربويون. وذلك لأن المعلم الفعال الناجح هو القادر على تحويل المناهج الصلدة إلى مواقف تعليمية وأنشطة مؤثرة تهيّئ المجال لنمو الطفل في جميع النواحي: الوجدانية والمعرفية والنفسية والحركية. ومهما كانت الإدارة المدرسية ناجحة، ومهما كان نمو المناهج والبيئة المعرفية في تطور واستمرار دائم، وكان ذلك في وجود معلِّم ليس على قدر من الإيمان بالعملية التربوية والحنكة (الخبرة) الفنّية؛ فإن العملية التعليمية لن يكتب لها النجاح ولن تحقق الهدف المرجو منها.

(*) **محمد حسين محمد** [مستشار البحوث التربوية بوزارة التربية والتعليم بمصر سابقا، والمستشار التربوي لجمعية مصر المحروسة]

المربّون جميعا متّفقون على أن المعلم المتّصف بـ"دفء المشاعر" هـو مؤسـس الأمم. فالحب عامل هام في تكوين العلاقات السـليمة بين الناس، وهو الذى يؤلف بينهم، ويدفعهم إلى التفاعل والتماسك والتكافل. والمعلم الممتلئ بالمحبة لتلاميذه يقوم بالدور الأساسـي فـي تكويـن شـخصيتهم. وإحاطـة المعلـم للطفـل بمشـاعر المحبـة والحنـان والعطـف يبـثّ فـي نفسـه الشـعور بالأمـن والطمأنينـة التـي هـي أسـاس الحاجـات النفسـية الأخرى من رغبة فـي النجاح وتقدير الآخرين وإثبات الذات...

فـإذا حـرم الطفـل هذا الحب والإحسـاس بالأمان لأي سـبب من الأسـباب، فإنه يصيبه القلق وتضطرب شخصيته ويصبح عرضة فيما بعـد للإصابـة بالخـوف والتوتّر الذي قد يؤدي إلى المرض النفسـي. وقد حثّ الرسول ﷺ الناس جميعهم على الحب والمودة، وذلك أن نبـدأ بحب الله ورسـوله؛ وقد كان من دعائـه ﷺ: "**اللهم ارزُقنِي حبَّك وحبَّ مَن يَنفعُني حبُّه عندك، اللهم ما رزَقتَني ممّا أُحبُّ فاجعَلْه قوّةً لـي فيمـا تُحـبُّ، اللهم وما زوَيتَ عنّي ممّا أُحبُّ فاجعَلْه لي قوة فيما تُحبُّ**" (رواه الترمذي).

إن حب الإنسان لله تعالى هو المنبـع الرئيسى لكل مشاعر الحب التي يشعر بها الإنسان لكل شيء آخر في الوجود؛ فمِن حب الإنسان لله تعالـى ينبعـث حبـه لرسـول الله ﷺ ثـم حبـه لتلاميـذه بـل لجميـع مخلوقاتـه وحبـه لفعـل الخيـر وحـب كل مـن يقربـه إلـى الله تعالـى. ويظهـر هـذا بوضـوح في قول الرسـول ﷺ: "**من أَحـبَّ لِلهِ وأَبْغض لِلهِ وأَعطَى لِلهِ ومنَعَ لِلهِ فَقَد اسْتَكمَلَ الإيمان**" (رواه أبو داوود).

وإذا أحب المعلم المؤمن تلاميذه وحَنَا عليهم وأحاطهم بحبه وأشعرهم به، فربّتَ على كتف هذا، وابتسم في وجه هذا، ولم يعنف هذا، وشجّع هذا، وعزّز أداء هذا، فإن رد الفعل لتلاميذه أنهم يطيعونه؛ فالمحب يطيع محبوبه ويحترمه ويقدّر دَوره في حياته، وإذا استشعر التلميذ بأن حب المعلم له نابع من حبه لله ورسوله زاد في سلوكياته السوية وزاد في إخلاصه لمعلمه ولزملائه. وبهذا يصبح الطلاب أفرادًا يتمسكون بتعاليم دينهم ومبادئه، ويلتفّون حول معلمهم يتعلمون منه ويقتدون به، ويأتمرون بأمره، مما يجعلهم في المستقبل صفًّا واحدًا وقلبًا واحدًا في مواجهة تكاليف الحياة.

أ- كيف يحب المعلم تلاميذه وكيف يجعلهم يحبونه؟

• أن يكون على طبيعته وسجيته، وأن يُفصح عن شخصيته وما يحب وما يكره، وأن يعبر عن آرائه.

• أن يشجّع التلاميذ على الاقتراب منه، وعلى الصراحة والوضوح معه، مع حرصه على أن يحافظ على أسرارهم.

• أن يؤثّر فيهم ويسهم في علاج مشكلاتهم.

• أن يستخدم الاقتراب الفيزيقي للتلاميذ غير المهدّد، ويمكن استخدام الاقتراب من التلاميذ كوسيلة للتعبير عن الإحساس بالثقة والانفتاح.

• أن يستخدم روح الدعابة مع التعبير عن الإحساس بالثقة والانفتاح.

• أن يشجّعهم على إبداء آرائهم والتعبير عن مشاعرهم وأفكارهم.

• أن يكون قدوة حسنة لهم في كل أعماله وسلوكه مقلّلًا من الإرشادات العلاجية والانتقادات.

• أن يستخدم حواسّه كلها في التقرب إليهم.

• أن يحرص على زيارة تلميذه إذا مرض.

• أن يكون مستمعًا جيّدًا لتلاميذه ويشجّعهم على الحوار وإبداء آرائهم.

• أن يُشْعر الطالب بأهميته عنده.

ب- اختلاف جنس المعلم حسب المرحلة التعليمية

في مرحلة ما قبل المدرسة التي تعرف باسم الروضة المرأة هي الأنسب لهذه المرحلة (٤-٦ سنوات)، فهي امتداد لدور الأم في عملية التنشئة الاجتماعية، حتى لا يشعر الطفل بأي فرق في حياته المنزلية وحياته المدرسية الجديدة. فالإشباع النفسى وبث الطمأنينة وشعوره بالأمن يجعله بعيدًا عن الخوف والقلق والتّوتر كما يجعله يشعر بالرضا والغبطة والسعادة، لأن تكوينها الجسمي والنفسى مؤهَّل لذلك؛ فهي تسعى إلى تحقيق الطمأنينة لأفراد في حاجة إلى الأمن والطمأنينة. وفي هذا الجو الآمن تبدأ العلاقات الاجتماعية للطفل فيكتسب الشعور بقيمته وبذاته، وفي هذا الجو تتكون خبراته الأولى بالحب والحماية والأمن والطمأنينة، كما يزداد تفاعله مع جماعة الفصل، وهكذا تتبَلْور شخصية الطفل في جو صحي.

أما في المرحلة الثانوية سواء البنين أم البنات فالطالب في حاجة إلى صديق يثق فيه ويستمع إليه ويوجهه.

جـ- التصرفات التي يجب أن يتجنّبها المعلم حتى يحبّه التلاميذ

يأتي على رأس التصرفات التي يجب أن يتجنبها المدرس التفرقة في المعاملة، وذلك أن أساس المعاملة في الإسلام هو العدل، يستوى في ذلك الصغار والكبار على السواء، لذا أكّد النبى ﷺ على ضرورة مراعاة العدل بين الأبناء فقال: "**اعْدِلُوا بين أبنائِكُم، اعْدِلُوا بين أبنائِكُم**" (رواه النسائي).

وقد يُفرط المدرس في معاملة تلميذه، ويدلّله كثيرًا ولا يظهر الحزم في المواقف التى تحتاج إلى حزم، أو يثير الغيرة بينه وبين غيره من تلاميذ فصله؛ فيكثر من الموازنات بينهم أو خَلْق جو يشعر التلاميذ بالتفرقة فيما بينهم في التقدير والمعاملة.

كما يجب على المعلم ألا يُشعر أيّ تلميذ في الفصل بأنه يتجاهله؛ فالإنسان يكره أن يهمله أحد أو يتجاهله. ففي مشاعر كل إنسان رسالة صافية تقول: "مِن فضلك زكِّني! من فضلك تقبل وجودي، لا تمر عليّ غير آبِه بي، أرجوك الاعتراف بكياني".

ثانيا: دفء المشاعر عند الوالدين واستكمال المعلم لهذا الدور

حب الطفل لأمه هو أول حب يشعر به عند ميلاده، وذلك لارتباط الأم بإشباع جميع حاجاته الأساسية وما يصاحب إشباعها من شعور بالمتعة واللذة. ثم يتكون بعد ذلك حبه للآخرين المحيطين به كالأب والإخوة والأصدقاء والأقارب والجيران والناس عامة.

وكما يشعر الطفل بحبه لوالديه ولأفراد أسرته، فإنه يشعر كذلك بحبهم له وعطفهم وحنانهم عليه واهتمامهم به ورعايتهم له. وهذا الجو المشبَّع بالحب المتبادل الذي ينشأ فيه الطفل عامل هام في تكوين شخصيته السوية وشعوره بالأمن والثقة بالنفس والسعادة.

ويلعب المعلم دور الأب أو الأم في المدرسة، فهو باقترابه من الطفل والإحساس به والشعور بالحب نحوه تكمِّل المسيرة في عملية التربية، بل ويؤكد للطفل استمرارية الجو المشبَّع بالحب في الحياة.

والطفل الذي ينشأ هذه النشأة السوية يَشعر عادة بمحبته للناس جميعهم ويتودد إليهم، ويحسن معاملتهم ويعطف على من يحتاج منهم إلى عطف، ويقوم بمد يد العون إلى من يحتاج منهم إلى عون أو مساعدة. ومحبة الإنسان للناس ومساعدتهم ومدّ يد العون إليهم من العوامل الهامة التي تجعل الإنسان يشعر بالانتماء إلى المجتمع وبأنه عضو نافع فيه. وإن من شأن ذلك أن يجعله يشعر بالرضا عن نفسه وبالغبطة والسعادة. وقد أدرك المحللون النفسيون المحدثون أهمّية العلاقات الإنسانية في الصحة النفسية للإنسان.

ثالثا: دفء المشاعر في الجو المدرسي

لا يكفي المعلم وحده في إشاعة جو المحبة في المدرسة، بل لا بد من تضافر جهود الجميع لتحقيق ذلك. فالحب مسؤولية جميع العاملين، ولكي يسود الجوَّ المدرسيَّ الحبُّ والألفة والمحبة يمكن الأخذ بالتوصيات الآتية:

• أن يكون المعلمون قدوة حسنة في أفعالهم وأقوالهم.

• أن يشعر العاملون بالمدرسة بأن روح الحب والألفة والمودة تنتشر بينهم، وقد علَّمنا رسول الله ﷺ أن نخبر من نحبه بحبنا له فقال: "**إذا أَحبَّ الرجُلُ أخاه فَلْيُخْبِرْه أنّه يُحِبُّه**" (رواه أبو داود).

• الابتسامة والملاطفة بين كل العاملين تُدخل السرور على قلب كل من يعمل في المدرسة، فهكذا كان خلق رسول الله ﷺ. قال جَرِيرُ بن عبد الله رضي الله عنه: "ما حَجَبَنِي رسول اللهِ ﷺ مُنذُ أَسلمتُ ولا رَآنِي إلا ضَحِكَ" (رواه مسلم). وما قاله عبد الله بن الحارث رضي الله عنه: "ما رأيتُ أحدًا أَكْثرَ تبَسّمًا من رسول اللهِ ﷺ" (رواه الترمذي). فالابتسامة هي انفراج الأسارير عن انفعالات صادقة داخل النفس تحرّك الوجدان، وتعبيرات الوجه تتكلم بصوت أعمق أثرًا من صوت اللسان.

• أن يكون شعار كل العاملين: "إذا أردت أن يحبك الناس فازهد فيما عند الناس".

• البعد عن سوء الظن والبغضاء امتثالا لقوله ﷺ: "**إيّاكُمْ وَالظَّنَّ فإن الظَّنَّ أَكْذَبُ الحديث، ولا تَحَسَّسوا ولا تَجَسَّسوا ولا تَنافَسوا ولا تَحاسَدوا ولا تَباغَضوا ولا تَدابَروا، وكُونوا عِبادَ اللهِ إخوَانًا**" (رواه مسلم).

• أن يحرص العاملون على التزاور، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: "**من عَادَ مَرِيضًا أو زَارَ أَخًا له في اللهِ نَادَاهُ مُنادٍ أَنْ طِبْتَ وطابَ مَمْشاكَ وتَبَوَّأْتَ من الجنّة مَنْزِلًا**" (رواه الترمذي). فالزيارة وسيلة لزيادة الصلات ولزيادة المودة والتآلف بين القلوب.

• أن يسود الجوَّ المدرسيَّ التسامحُ. فالواجب على المسلم أن يتخلق مع الناس بخلق الحلم والعفو والتسامح. فإن الصدود وإضمار الانتقام وانتظار الرد بالمثل تزيد حرارة القلب حتى تدعه قلِقًا مضطربًا. وكان ﷺ يغرس في نفوس المسلمين دومًا خلق العفو والتسامح وإن قوبل بالصد والإعراض والقطيعة قال تعالى: ﴿**وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلاَ تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ (النور: ٢٢).

• أن يضع كلُّ من يعمل في المدرسة نفسه في خدمة أخيه وزميله، ويمد له يدًا مخلصة نافعة مجردة من الأنانية والمصلحة الذاتية. والنبي ﷺ يقول: "**المسلِمُ أخو المسلِمِ لا يَظْلِمُه ولا يُسلِمُه، من كان في حاجَة أَخِيه كان الله في حاجَته، ومَنْ فَرّجَ عن مُسلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ الله عنه بها كُرْبَةً من كُرَبِ يَومِ القيامة، ومَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ الله يومَ القيامة**" (رواه مسلم).

• أن يظلّل تعاملَنا مع أولياء الأمور وغيرهم من زائري المدرسة الآيةُ الكريمةُ: ﴿**خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِض عَنِ الْجَاهِلِينَ**﴾ (الأعراف: ١٩٩).

وبعد، هذا ما حضرني من أفكار حول العمل التربوي الإسلامي والإنساني، آمل أن أكون قد أسهمتُ ولو بقسط لا بأس به في رسم معالم العلم التربوي المطلوب. هذا وفوق كل ذي علم عليم.

من أجل بناء إنسان سليم(*)

عزيزي الأب عزيزتي الأم أعزائي المعلمين والمربّين.. لما كانت مهمتنا هي بناء الإنسان، وهي ليست بالمهمة السهلة، فإن علينا أن نتعلم ونبتكر ونجدد ونبدع حتى نستطيع النهوض بأمّتنا من خلال هذه النبتات الصغيرة، والتي تحتاج إلى أساليب خاصة في رعايتها وتنميتها بالشكل السليم. لذلك كان علينا أن نتحلى ببعض الأساليب ونكفّ عن الأخرى حتى ننجح في هذا الدور العظيم. وسوف أقوم بتقديم بعض من هذه الأساليب مدعومة بخبرات حية مرت بنا خلال عملنا في هذا المجال.

ليكن توقّعك من ابنك إيجابيّا

فالتوقع الإيجابي يؤدي إلى تحسين الأداء وإلى مزيد من الثقة في النفس. فإن توقعت من ابنك النجاح فسوف ينجح وإن توقعت عدم التحسن فلن يتحسن. ولي تجربة في هذا الشأن؛ حين كنتُ أعمل معلمة للصف الثاني الابتدائي كان بين تلاميذي طفل ليست لديه ثقة في نفسه ولا ينظم واجبه ولا يهتمّ بدروسه، وكنت أرى أن لديه قدرات عالية، بينما كان مستوى تحصيله ودرجاته متوسطة بالنسبة للفصل. فجلست معه وحدّثتُه عن ثقتي في قدراته وإمكاناته وأن لديه ما يمكّنه من التفوق والتميز، وسألني هل أنا صادقة في ذلك فعلا، فأجبته بالتأكيد، ثم سألني هل أحبه فأكّدت له ذلك.

(*) **ناهد عبد المنعم** [خبيرة في مجال التربية، جمعية مصر المحروسة بلدي، القاهرة / مصر.]

كانت النتيجة مبهرة لي حينما اجتاز اختبار الشهر بعد عشرة أيام تقريبا من هذا اللقاء وحقق المركز الأول على الفصل، هذه ثمرة التوقع الإيجابي والحب. قُلْ "ابني لديه قدرات ومهارات"، ولا تقل "ابني يعاني من مشكلات"، فالسُّلوك يتغير بتغير وجهة النظر سواء سلبية أو إيجابية.

كُفّ عن المقارنة السلبية

لا تقارن ابنك أو تلميذك برفاقه أبدا، فإن هناك فروقا فردية بين البشر؛ ولكن يمكنك أن تقارن ابنك بنفسه، أي ما كان عليه سابقا وما أصبح عليه الآن. وهذا سيساعدك على تربية وتنمية مهاراته بشكل كبير.

تَحدَّثَ إليّ أحد طلابي ذاكرا أنه لن يكون متفوقا أبدًا؛ ذلك لأن أخويه كانا يحققان مراكز متقدمه دائما، إما الأول أو الثاني. أما هو فكان متوسط الأداء وكانت أمه تركز على ذلك؛ كانت تظن أنها تبث فيه الحماس بينما الواقع أنها كانت تمده بجرعات من الإحباط المتلاحقة. قابلتُ هذه الأمّ وتحدثتُ معها بالأمر وأنها يجب أن تكفّ عن ذلك وتقارنه بنفسه، وتبحثَ عما يتميز به وتعزّزه حتى تعيد إليه تقديره لذاته. وبالفعل تحسّن هذا الطالب كثيرا وزادت ثقته بنفسه.

امنَحْ ابنك فُرصًا للنجاح

النجاح يولّد النجاح، والفشل يضعف ثقة الطفل بنفسه ويجعل تقديره لذاته ضعيفًا؛ لذلك امنحْ ابنك الفرص لكي يجرّب الشعور

بالنجاح المرتبط بالسعادة.. كلِّفه بمهامّ بسيطة يستطيع أن ينجح فيها، فذلك يجعله قادرا على إنجاز مهامّ أكثر صعوبة. ولا تَسمحْ بأن تمرّ بالطفل خبرات فشل متلاحقة حتى لا تنخفض دوافعُه تجاه العمل بصفة عامة وربّما العزوف عنها تمامًا.

ركِّزْ على أساليب الثواب أكثر من العقاب

إثابة الطفل على السلوك يجعله حريصا على تكراره ويشعره بالسعادة والرضا، والأهم من ذلك أن الطفل يرتبط بمشاعر إيجابية تجاه مصدر التعزيز والإثابة. أما العقاب فإنه يؤدي إلى كف السلوك ولا يعطي للطفل السلوك البديل المناسب، ونتائج العقاب تستعصي على التنبؤ. فالثواب يقول للطفل "كرِّرْ ما فعلت"، أما العقاب فيقول له "توقَّفْ عما تفعل"، ويفشل في أن يجد للطفل البديلَ الذي يفعله، وقد يؤدي العقابُ في بعض الأحوال إلى تثبيت السلوك بدلًا من محوه، وربما يظهر السلوك ثانيا بمجرد انتهاء الحالة الانفعالية للطفل. وأسوأ نتائج العقاب أن يؤدي إلى كراهية الطفل للعمل الذي أدّى إلى العقاب. لذلك عليك أن تستخدم الإثابة أكثر بكثير من العقاب، وعندما تأمر طفلك أن يكفّ عن سلوك قدِّم له البديل.

ومن التطبيقات الجيدة التي كان لها أثر جميل تعزيز الطالب عندما ينتقل من مستوى إلى مستوى أعلى، حتى إذا انتقل من الراسب إلى الضعيف أو من الضعيف إلى المتوسط، فبدلا من إشعار الطالب أنه ضعيف، تصله رسالة أنه نجح في الانتقال إلى المستوى الأعلى.

هـذه الفئـة مـن الطـلاب لـم تكـن تحلـم بالمكافـأة والتعزيز أبـدًا. فقد كانـت حكـرًا علـى الممتازيـن والأوائـل، لذلـك كانـت هـذه الفئة لا تتخطّـى مسـتواها. أمـا الأسـلوب الجديـد فهـو يوفر للطالـب التعزيز والدافـع للتقـدم بشـكل أفضـل، هذا بالإضافـة إلى الشـعور بالنجاح والسعادة والارتباط إيجابيا بمصدر التقدير وسبب التعزيز.

احرِصْ على الروابط الذهنية الإيجابية

نحـن حريصـون علـى إكسـاب أبنائنـا الكثيـر مـن المهـارات والمعلومـات، ولكننـا نتجاهـل الربط بيـن الانفعـالات الإيجابية وما يتعلمه أبناؤنا وطلابنا؛ فيجب أن يقرن موقف التعليم أو التربية دائما بمشـاعر مثـل "السـعادة والتقبّـل"، فذلـك يسـاعد على سـرعة التعلم والاستمرار في السلوك المرغوب فيه.

تَصوَّر أن الكلمات المطبوعة والتي يتألف منها الكتاب يمكن أن تعرض على التلاميذ كمُثيرات لانفعالات إيجابية كالتقبل والأمل، أو السلبية كالخوف والقلق والتوتّر.

عرضت عليّ ظاهرة غريبة في إحدى المدارس حيث كانت تعاني أغلـب الطالبـات فـي صفوف بعينها من آلام شـديدة بالبطن وشـعور بالغثيان، وذلك في أوقات معينة أيضا، وعند توقيـع الكشـف عليهن لا توجـد لديهـنّ أيـة مشـكلات عضويـة. وبتتبّـع هذه الظاهـرة وجد أن أحد مدرّسـيهم يعاملهم بشـيء من الغلظة، وأحيانًا يعاقبهم عقابًا بدَنيًا، وبعلاج هذا الأمر انتهت الظاهرة تمامًا.

إذا أردتَ أن يحرص ابنك على عمل معيَّن فلا تربطه أبدًا بالعصا والوجه المتجهم، بل الوجه البشوش والخبرة السارة وكلمة التعزيز... حتى يكون ابنك حريصًا عليه وعلى تكراره.

هذه بعض المهارات التربوية والخبرات التي تساعدنا على تربية أبنائنا في إطار من المشاعر الإيجابية والتي تصل بهم إلى تحقيق النجاح والسعادة على حد سواء. وتذكّر أن استخدام الأساليب التربوية الخاطئة لها تأثير سلبيّ على النموّ النفسي للأطفال، وأنها وراء الكثير من عيوب الشخصية ومشاكل التحصيل الدراسي.

فكن عزيزي المربّي أكثر حرصا وأنت تربي أبناءك حتى تصل بهم إلى برّ الأمان.

الفروق الفردية في العمل المشترك(*)

إن إحدى المشاكل التي تبرز في اجتماعات العمل المشترك ومباحثات المؤسسات هي الفروق الذاتية لدى أفراد الفريق، مما يفتح السبيل أمام صعوبات في الإدارة. وإذا شاركت في إحدى جلسات فريق من هذا النوع كمراقب، فستلاحظ المشاهد التالية:

تباين كبير في الرؤى

بعضُ الشخصيات تُفَضِّل الصمت طوال الاجتماع؛ وبعضها دائم الحديث وفي مقدمة الصورة؛ والبعض يضع السلبيات على الأجنْدة بصفة مستمرة مشيرا إلى المخاطر المحتملة؛ والبعض الآخر يلحّ على الفوائد التي سيؤدِّي إليها المشروع الجديد. وبينما يحدث هذا فإن البعض لا يشارك في النقاش قط، ويغرق نفسه في المستندات والرسومات والبيانات المقدَّمة حول المشروع، يقلّب فيها في صمت محاولًا فهمها. وقُبيل انتهاء الاجتماع، بينما يعلن البعض بحماس زائد قناعته الإيجابية حيال المشروع، فإن البعض الآخر يعدد مشاكل محتملة واحدة تلو أخرى مركّزًا على نواقص موجودة فيه. أمَّا بعضهم فيُعلن أن الوقت لا يكفي لاتخاذ قرار حاسم وأنه يحتاج إلى يوم آخر على الأقل لدراسة الوثائق كلها ومراجعتها من جديد فيؤجل قراره إلى وقت لاحق.

(*) **سليم أيدن** [كاتب وباحث تركي. الترجمة عن التركية: أ.د. الصفصافي أحمد القطوري.]

وبسبب هذا التباين في الرؤى، فإن القرارات في عالم الأعمال لا تحسم إلا بعد عدة اجتماعات تُعقد فيما بين فِرق عمل يتم تشكيلها بمشاركة الخبراء والمختصّين أولًا، ثم تُقدَّم النتائج إلى الإدارة العُليا مشفوعة باقتراحات حلولٍ مختلفة. والإدارة العليا تُناقش المشاكل حسب حجمها وبتريُّث، وتقيّم الحلول والمقترحات المقدَّمة وتُفاضل فيما بينها، وإذا لزم الأمر يعاد البحث عن حلول أخرى من جديد. وفيما بعد فإن القرارات المتّخَذة يتم متابعتها من قبل رئيس الإدارة المسؤول حيث يتدخل فورًا في حال ظهور مشاكل أثناء التطبيق ويأمر بمواصلة الإنتاج وتدفقه.

النمطية الشخصية.. نافذتنا إلى الحياة

إن علم النفس الحديث قد أوضح أن "النمطية الشخصية" أي السمات والمميزات التي يمتلكها الفرد، تحدد إدراكه للأشياء، وتؤثر عليه في اتخاذ قراراته، وتوجهه في طريقة إقامة اتصالاته ومعالجته للمشاكل؛ لأن الإنسان لا يستطيع فهم الأشياء والحوادث على حقيقتها، بل يراها من نافذةِ نوعية شخصيته الذاتية. ولهذا السبب فإنه يظل خاضعًا لمُحدِّدات تلك النافذة.

إن إدراك الحياة من النافذة الشخصية مُريح ولا يحتاج إلى عناء. لذلك نفضّل في أغلب الأحيان متابعةَ الحياة دون أن نتقدم خطوة خارج نطاق هذا النافذة. ولو أن المرء اكتسب قدرة التفرقة بين ما هو عائد لنوافذ الأنماط الشخصية الأخرى، فإنه يستطيع أن يقتنص فرصة النظر إلى الوقائع والأحداث من نوافذ شخصيات أخرى،

ويضع نفسه مكان الطرف المقابل. وكذلك نحن لا نشعر بكل ما هو في محيطنا كما هو، بل نحس به وفقًا للطريقة التي تحس بها ذواتنا أو أنماطنا الشخصية. فكل واحد منّا يستوعب الحياة من حوله بشكل مختلف ومتفق مع شخصيته. ومن بين الحياة الحافلة بأنواع الجمال اللانهائي يميل إلى شيء معيّن دون الآخر بل وينجذب إليه. فأنت ترى رجلا يبذل الغالي والنفيس لكي يتأقْلم مع الناس ويرافقهم دوما، بينما ترى آخر يتباعد عن المجتمع ويفضل أن يريح عقله وفكره بالقراءة والمطالعة. والحقيقة أن الأشياء التي تجذبنا والتي نطلق عليها اسم "الهواية"، ما هي إلا إشارات تدل على العناصر الرئيسة في أنماطنا الشخصية.

وقد جاء في القرآن الكريم ﴿**يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وأُنْثَى وجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾ (الحجرات: ١٣). وإن هذه الأنماط من الشعوب والقبائل التي مر ذكرها في الآية الكريمة يوجَد فيما بينها فروق شخصية ونوعيات عديدة. وفي ضوء آية أخرى من القرآن الكريم يتضح أن كل إنسان يتصرف وفقا لفطرته: ﴿**قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ على شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا**﴾ (الإسراء:٤٨). فالآية تشير إلى أن كل شخص يحل مشاكله حسب فهمه الذاتي وفروقه الفردية.

القطاع الخاص و"زمن الإنتاج والعمل"

إن شكل اتخاذ القرارات في القطاع الخاص لا يشبه شكل القرارات التي تصدر عن القطاع العام أو في الأوساط الجامعية

الأكاديمية؛ إذ لـمّا كان القطاع الخاص مؤسسًا على الإنتاج، فلا يملك إمكانية تحمّل تكاليف تأخر الإنتاج، فليس في القطاع الخاص مفاهيم مثل "لنصبر الآن وننتظر ونترك الحل إلى الزمن"، ولا مكان كذلك للأفكار التي تطرح عنصر الزمن وقيمته جانبًا ولا تضعه في عين الاعتبار.

هذا، ومن أجل تقييم عنصر الزمن في القطاع الخاص تم تطوير ساعة خاصة بهذا الغرض أُطلق عليها اسم "ساعة المؤسسة" أو "زمن الإنتاج والعمل". وإن أهمية هذا الزمن وقيمته لا تُقاس بالثواني أو الدقائق المنصرمة، بل يتم تقييمه تبعًا للمكاسب التي تتحقق من وراء الإنتاج المنجَز في ذلك الزمن بالذات، وتبعًا للخسارة التي كان يمكن أن تأتي خلال ذلك الزمن لولم يتم استثماره. فالفرق بين المكسب والخسارة هو الذي يحدد قيمة هذا الزمن. وبالنسبة لهؤلاء الذين يستخدمون "زمن الإنتاج والعمل" فإن عقد اتفاقيات حول استغلال الوقت في غاية الأهمية؛ في حين أن الذين يمضون حياتهم وفق معايير الساعة العادية، فإن اتفاقيات الزمن هذه أمور غير محبوبة. وفي القطاع العام، حيث يتم تقديم الأنظمة البيروقراطية والتدرج الوظيفي على الإنتاج عادة، فإن هذه الصورة أمر طبيعي وشائع. ولدى المقارنة بالقطاع الخاص، فإنه توجد في الأوساط الأكاديمية حرّية واسعة في استخدام عنصر الزمن والمصادر بفاعلية وبشكل إيجابي؛ إذ ما أن يتوفر التمويل المالي للمشروع الأكاديمي حتى يتمكن الباحث من الانطلاق في المشروعات التي خطط لها، كما يمكنه أن يقوم بتجارب حول الفرَضية التي طرحها وأن يُجري

أبحاثه وفقا لنوعية أدائه. فإذا كان الأكاديمي منتجًا في حد ذاته كفَرْد، فلا يمكن أن يستجوبه أحد عما أنتج، فهو صاحب الصلاحية في البحث الذي يديره.

النمطية الشخصية في العمل الجمعي

ولكن إذا ما اضطر الباحث الأكاديمي إلى العمل لدى القطاع الخاص، فإن قواعد اللعبة تتغير؛ حيث إن الشركة مضطرة إلى أن تعمل على إنتاج مشترَك يتم بشكل جماعي ووحْدَويّ بين فرق وأطقم مختلفة بهدف تحقيق مهامّ الشركة وأهدافها. بالإضافة إلى هذا، فإن المعيار الرئيسي في المشاريع المطروحة للدراسة والتصنيع هو كونها صالحة للتسويق أو قابلة للبيع. من هذا المنطلق، فإن الخبراء من شتى فروع العلوم يجتمعون في الشركات من حين لآخر حول مائدة ليتبادلوا خبراتهم سعيا نحو إيجاد منتج جديد غيرِ مسبوق أو خدمة جديدة. ولهذا فإن كل شخص في نهاية اجتماعات الفريق يكون مجبَرًا على إجراء أبحاثه طبقا لتقسيم العمل في المشروعات التي تم إقرارها على ضوء المعطيات المشتركة التي ظهرت في نهاية هذه الاجتماعات.

وهكذا فإذا أراد شخص أن يعمل مع فِرَق ومجموعات مختلطة في القطاع الخاص، فإن شركته ستتيح له فرصة للتدرّب في عدة ندوات ودورات حول التنمية الشخصية في قسم المَوارد البشرية للشركة. وعند سؤال الأفراد الذين شاركوا في هذه الدورات التدريبية والتعليمية عما حصّلوه من مكاسب، فقد أجابوا بصفة

عامة على النحو التالي: "لقد أدركتُ أن الحوار السليم مع أناس يتمتعون بخبرات علمية متعددة تعود إلى أنماط شخصية متنوعة، قد أنتج مساهمة وظيفية عظيمة وقيمة إضافية أخرى. وتعلمتُ طرق رفع مستوى الذكاء الجماعي في الفريق الواحد. وأول هذه الطرق هو ضرورة تكوين فِرق من أفراد ذوي خبرات مختلفة تعود إلى مجموعات ذات قدرات فردية مختلفة أيضًا. والعامل الأهم في رفع نسبة المخترعات والاكتشافات المبتكرة هو تأسيس الحوار بين الأشخاص المنتمين إلى أنماط شخصية ذات فروق خاصة. وثاني هذه الطرق وجوب إجراء تبادل وتحاور بين العلوم التي تتوفر في الطاقم البشري الموجود من شتى فروع العلوم المختلفة. أما ثالثها فإن كل عضو في المجموعات التي تشكّلتْ على هذا النمط، لا بد أن يعرَّف على طاقاته ونمط شخصيته الذاتية، ويزوّد بالتعليم والتدريب الذي يُمَكِّنه من إقامة اتصال سليم مع الأنماط الشخصية المختلفة".

كيف تعرف نمطك الشخصي؟

ولكي يتمكن الإنسان من تحديد المجموعة النمطية التي ينتمي إليها، يجب عليه أن يراقب نفسه ويتابعها عن كثَب، ويتبين الميول والرغبات الباطنية التي تتحكم فيه وتوجه أفكاره وتصرفاته. وإذا نَظر إلى تصرفات ومواقف ظاهرية فقط، فسيصعب عندئذ التعرّف على نمطه الشخصي، لأن المواقف والتصرفات الظاهرية في أغلب الأحوال هي تصرفات قد تمت بشكل شعوري وتحت سيطرة المخّ

الواعي. وفي الحقيقة إذا ما أُريد تشكيل مجموعات استشارية وأطقم عمل ذات تأثير فعَّال، فالشرط الأول لذلك، ليس جمع شخصيات خبيرة في مجالات مختلفة فقط، بل ويجب كذلك تشكيل فريق من الخبراء متغاير الخواصّ والصفات من حيث انتماؤه إلى أنماط شخصية متنوعة. وإذا كان قائد المجموعة أو مدير المؤسسة لا يتمتع بهذه الرؤية في تقييم الأنماط الشخصية، وإذا كان دأبه أن يختار الشخصيات التي توافق وتصادق على مرئياته فقط دون أي اعتراض، فإنه سيتمكن من الإدارة نعم، وسيكون متوائمًا ومندمجا مع المؤسسة ومجموعة العمل، ولكن مؤسسته ومجموعته لن تحقق إلا نسبة محدودة من الإنتاج والإبداع والإنجاز الرفيع.

هذا، وإن إدارة الأنماط الشخصية المختلفة وتحويل فروقهم الفردية إلى ثراء أمرٌ صعب المراس. ومن جهة أخرى فإن العنصر الجماعي المتنوع الخواص والمتشكل من مجموعات ذات سمات شخصية مختلفة يقلق السلطة المركزية في أغلب الأحيان، فيُلقَى به جانبًا ولا يوضع في عين الاعتبار.

الزعامة والأنماط الشخصية

وإذا كانت الأنماط الشخصية تختلف لدى الزعماء، فإن نوعية الزعامة وطريقة أدائها أيضا تختلف وفقا لاختلاف النمط الشخصي؛ حيث إن كل مجموعة نمطية تضع بعدا من أبعاد الزعامة في مقدمة إستراتيجيتها. تذكروا مثلا الإجراءات الحياتية للخلفاء الراشدين، أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ ﷺ، تجدوا أن إجراءاتهم الفذة كانت

انعكاسا لطبيعة مجموعاتهم الشخصية التي ينتمون إليها. وتذكروا كذلك "تشرشل" و"هتلر" و"غاندي" و"طورغوت أوزال" وزعماء آخرين، فإنكم سترون أن ستين بالمئة من الاختلافات الإجرائية تعود إلى الفروق الموجودة بين الأنماط الشخصية التي ينتمون إليها. ومن هذا المنطلق، فإن الزعيم العالمي الشامل الذي يتمتع بشعبية جماهيرية واسعة في عصرنا الحاضر، لا تقوم زعامته على مفهوم الشخص الأوحد، إنما تقوم على النظام الشوري والشعور الجمعي المشترك، وعلى الشخصية المعنوية التي تتكون من مجموع الأفراد الذين يحملون السمات المختلفة للزعامة.

تحويل الاختلاف والتنوع إلى ثراء

ويتضح من هذه الحقيقة أن أكثر المؤسسات تجددا وعطاء هي تلك التي تأسست من اجتماع شخصيات خبيرة منتمية إلى أنماط شخصية مختلفة؛ إذ إن عنصر كل مجموعة شخصية قد يدرك جزءً ضئيلا من الحقيقة الشاملة، إلا أن إدراك الحقيقة كاملة يحتاج إلى عمل دؤوب بصورة مجموعات وهيئات استشارية تتكون من أنماط شخصية متنوعة. كما أن التشاور وتبادل الآراء ينبغي ألا يتم عبر بضعة أشخاص من نفس المجموعة فقط، بل يجب أن يتم ذلك عن طريق شخصيات ذات خبرة واسعة، ومجموعات عمل ذات فروق فردية تستطيع أن ترى الأبعاد المختلفة للأحداث والقضايا، حتى يتم الوصول إلى الحقيقة الشاملة، ويقل احتمال الإخفاق، ومن ثم يمكن تنمية العطاء ورفع الإنتاج. ألا يُشير رسولنا ﷺ

في حديثه "**اختلاف أمتي رحمة**"(رواه الطبراني) إلى أهمية اختلاف الأفكار فيما بين المجموعات البشرية ذات الفروق الشخصية، وذلك في فهم الأحداث وإدراك الجوانب المتباينة لها؟! إذن لا يملك الإنسان قابلية استيعاب الحقائق الكلية التي تتعلق بالوجود والأحداث، حيث إن علم البشر محدود للغاية لأنهم لا يستطيعون تقييم الوجود والأحداث إلا من نوافذهم الخاصة ومن الزوايا التي توفرها لهم أنماطهم الشخصية. وهذا النطاق المحدود لا يمكن تجاوزه إلا بالعمل الوحْدويّ والبحث التعاوني والشعور الجمعي والذكاء الجماعي.

معادلة "أنا" و"نحن".. رؤية مستقبلية

وإن الأعوام المقبلة ستشهد زيادة ملحوظة للقيمة التي تُمنح للعمل التعاوني والشعور الجمعي والذكاء الجماعي. وإن الإنتاج والنماء والتقدم الحاصل من العمل الجماعي، سيزداد أو ينقص حسب العناية التي تولَى للأنماط الشخصية المختلفة وتقديمِ الجوانب المثمرة لديها أو إهمالها.

ومن ثم إذا لم ينتبه المرء إلى هذه الحقيقة فلن يستطيع أن يخرج من سجن أنانيته وشخصيته، بل سيقع في عقدة عدم فهم الشخصيات الأخرى وإيجابياتهم وطريقة قراءتهم للحياة. وأسوأ ما في الأمر أنه سيشكّل عقبة أمام التطور واستثمار الإيجابيات الشخصية المختلفة في مؤسسته وأطقُمه البشرية، وذلك بسبب المبررات التي ينتهجها وفقًا لشخصيته. وإن طريق الخلاص من مرض الأنانية

هـو معرفـة الشـخص لنفسـه والوقـوف علـى حقيقتـه، والتغلّـب على مواطـن ضعفـه، والانتقـال مـن الأنانيـة إلـى الذوبـان فـي "حـوض النَحْنَوِيَّـة"، أي إن اندمـاج "أنـا" فـي بحـر "نحن" هـو الطريق الأوحد لإثراء الحياة والمستقبل، وللخلاص من أزمات الأنانية.

الطاقة التحويلية من السلب إلى الإيجاب عند الإنسان(*)

يمكن تحويل جل الوقائع ذات الصور السلبية إلى وضع إيجابي، أي إلى منافع لنا وللإنسانية عبر تأْطِيرها من جديد. وجل الذين تركوا بصمات هامة في الفكر والحياة، وكانوا روّاد الإنسانية في العالم، همْ أُناس تعرضوا للمحن والابتلاءات طوال حياتهم أو في حقبة منها. ولم تكن تلك المحن والابتلاءات تحمل في طياتها سوى مزيد من معاني. هل من نَبيّ لم يتذوق الأذى ولم يتعرض للمحن؟! وهل ثمة من استطاع الإطلال على آفاق عالم جديد دون التعرض للسجن والتهجير؟ لقد اعتبر هؤلاء الناس تلك المعوقات، كالمرض والقهر والتهجير وما شابهها سُلّمًا يرفع من شأنهم ويقربهم من النجاح، كما أنهم لم يتخلوا عن العزم وكانوا على ما أصابهم صابرين.

ونحن كبشَر، نواجه في الحياة أحداثا عديدة لا نريدها ولا نستسيغها، مثل التعرض للانتقادات والمرض والظلم والتنحية والسجن وخسارة الأموال. فكثير من الناس ينفعلون إزاء هذه الأحداث وتحبط معنويّاتهم ويتمرّدون ويغضبون ويحزنون ويتخبطون ويستولي عليهم القلَق، أمّا الذين استطاعوا أن ينظروا إلى الحياة والوقائع من زوايا مختلفة فهم يواجهون تلك الأحداث بأخذ العبرة

(*) هارون أوجي

والصبر والتجلّد والشجاعة، ويرون فيها تحذيرا لهم أو يعتبرونها وسائلَ ترفعُ من شأنهم. وفي الواقع، ترتبط فحوى هذه الأحداث والمعاني بما رسَمنا لها نحن من حدود ووضعنا لها من أطر.

كل شيء في الكون جميل

هناك جمال حقيقي في كل شيء حتى في الأشياء التي تبدو قبيحة؛ وكل شيء وكل حدث في الكون جميل بذاته أو باعتبار نتائجه. ولئن كانت بعض الأحداث تبدو قبيحة ومعقدة في الظاهر فإنها تضمر وراء ذلك حِكمًا عجيبة وجمالًا رائعا. ومَن منا يستطيع أن يذكر لنا مخلوقا وُجد مصادفةً، خاليا من أيّ معنى ولا هدفَ له؟ انظروا إلى الذرة، وتمعّنوا في الخلية، وتحرّوا عن الإنسان في جميع أعضائه، وتدبّروا في النظام الحيوي الذي نحن فيه، وفي منظومة الشمس والفضاء اللامتناهي. في أيّ منها توجد المصادفة والعبثية واللاغاية؟ كلّنا يدرك أن موسم الشتاء ذا العواصف والثلوج يخلّف ربيعا جميلا، ولذلك نحاول أن نستشف الجمال الجوهري الذي يكمن في هذا الموسم دون الوقوف عند الوجه العابس له. وإذا لم نستطع أن نفعل ذلك، فإن الشتاء يكون فترة مؤلمة بالنسبة إلينا. هل سبق لكم أن رأيتم أناسا يسبّون الرياح والأمطار؟ هؤلاء يستاؤون من الرياح التي تسوق السحب وتنزل المطر وتشيع كل هذا الجمال.. ويمتعضون بسبب قصر أنظارهم وبسبب ما يلحق بمصالحهم الضيقة من ضرر طفيف دون التفكير في أنهم سيفتقرون إلى الماء لولا تلك الأمطار. وهؤلاء الناس لهم وجهة نظر ضيقة وسلبية، ينظرون إلى الأحداث من منظار أنانيّ حاصرين ذلك بمصلحتهم الضئيلة.

وقد تؤدي الأحداث التي تبدو حسنة إلى نتائج سيئة، وكذلك الأحداث التي تبدو سيئة قد تؤدي إلى نتائج خيّرة. وقد جاء في القرآن الكريم: ﴿**وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ**﴾ (البقرة:٢١٦). قد نتحسر على فوات أمرٍ لهثْنا وراءه ولكن بعد مضيّ مدة تستجد أحداث وتنكشف لنا أن الخير كان في عدم تحقق ما نريد؛ بينما هناك أمور نكره وقوعها في أول وهلة ولكن نحمد الله على وقوعها، لما تنطوي عليه من الخير.

الطفل الذي يُبصر خارج المعتاد

إن أحد طرق التأطير والنظر إلى الوقائع من زوايا مختلفة، يكمن في إمكانية الكشف عن المعاني الخفية في أعماق الأحداث. قامت مجلة "*Baltimora Sun*" الأمريكية بنشر مقال كان لافِتًا للانتباه، ولذا أعادت مجلة "*Reader's Digest*" نشره في ما بعد، تحت عنوان "الطفل الذي يبصر خارج المعتاد". والطفل المذكور في النص هو "كالفين ستانلي *(Calvin Stanley)*". وكان كالفين طفلا كسائر الأطفال يقوم بكل شيء ما عدا الإبصار، فهو يقود الدرّاجة ويلعب البيسْبول ويذهب إلى المدرسة. والسؤال المطروح هنا: "كيف يستطيع القيام بكل ذلك؟"

تقول المجلة إن سر النجاح في ذلك هو التوجيه الذي تلقاه من الأمّ، ونظرة الطفل إلى الأحداث وفق هذا الإطار الذي تعلمه؛ إذ لما سأل كالفين أمه عن سبب العمى، أجابته بأنه ولد هكذا، ولا ذنب

لأحد في ذلك. ولما سأل: "لماذا أنا بالذات؟" قالت: "لا أعلم لماذا يا كالفين، ولعل هناك خُطّةً خاصةً بك". ثم أخذت ابنها وأجلسته أمامها وأردفت قائلة: "يا كالفين أنت لا تبصر، وتستعمل يديك بدل عينيك، ولا تنسَ أنْ ليس هناك شيء تعجز القيام به". وحزن الابن لمّا شعر بأنه سوف لن يرى أمه. فقالت له الأم: "يا كالفين إنك تستطيع رؤية وجهي بيدَيك ومن خلال سماع صوتي. وبذلك تستطيع أن تحدّث الناس عني أكثر من بعض الذين يستعملون عيونهم". ونجح كالفين في مباشرة العالَم المرئي بفضل الإيمان والثقة. وبدأ يخطّط في العاشرة من عمره ليكون مبرْمجا إعلاميا في المستقبل ويبتكر برنامجا للعميان في يوم من الأيام.

والنجاح من هذا القبيل ليس حكرا على كالفين، إذ كل من له مبادئ أساسية ودعائم إسناد صلبة يستطيع تحويل وجهة نظره للأحداث إلى أمور إيجابية، ويمكنه الوصول إلى مثل هذه النتائج في كل وقت. وهكذا تتوفر للناس بدائل وخيارات أخرى وسبل حلّ جديدة في أحلك الظروف. ومهما تكن السحب كثيفة في السماء فإن من ورائها شمسًا طالعة. وأهم شيء هنا هو التطلع لرؤية تلك الفوائد العظيمة من وراء الأحداث التي تبدو سيّئة وكريهة ومعكِّرة للحياة. ورغم وجود سبل عديدة لفهم الأحداث وتقييمها، إلا أننا نميل دائما إلى تأطيرها وفق فهمنا المسبق لها. وإذا استطعنا تغيير طريقة فهمنا للأحداث فإننا سوف نجد بدائل أكثر في حياتنا.

النظرة الأولى قد تكون مضلِّلة

التاريخ مليء بنَجاحات كبيرة أعقبت أحداثا كانت تبدو سيئة في أول الأمر. ومن بينها معاهدة الحديبية التي كانت مسرحًا لصرخة أبي جندل ﷺ الحزينة. وقد عذّبه أبوه أسوأ تعذيب بسبب إسلامه، مما جعله يهرب في أول فرصة من المكان الذي سجن فيه ويرجع إلى الرسول ﷺ، وذلك في وقت كان الرسول ﷺ بصدد صياغة اتفاقية صلح مع ممثل المشركين سهيل بن عمرو والد أبي جندل.

وكانت الاتفاقية تنص على أن اللاجئ من المدينة إلى مكة لا يُسلّم للمسلين، وفي المقابل فاللاجئ من مكة إلى المدينة يُسلم لمشركي مكة ولو كان مسلمًا. وكانت الاتفاقية قد اكتملت صياغتها ولم يتم التوقيع عليها بعد. "فبينا رسول الله ﷺ يكتُب الكتاب إذ جاءه أبو جندل بن سهيل بن عمرو في الحديد قد انفلت إلى رسول الله ﷺ. وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ خرجوا وهم لا يشكّون في الفتح لرؤيا رآها رسول الله ﷺ، فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع وما تحمل رسول الله ﷺ على نفسه دخل الناسَ من ذلك أمرٌ عظيمٌ حتى كادوا يهلكون. فلما رأى سهيل أبا جندل، قام إليه فضرب وجهه ثم قال: يا محمد قد لُجَّت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا. قال: صدقت. فقام إليه فأخذ بتلبيبه. فصرخ أبو جندل بأعلى صوته: يا معاشر المسلمين! أتردّونني إلى أهل الشرك فيفتنوني في ديني؟ فزاد الناسُ شرا إلى ما بهم. فقال رسول الله ﷺ: يا أبا جندل اصْبر واحتسب فإن الله ﷻ جاعل لك ولمن معك من المستضعفين

فرجا ومخرجا، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا فأعطيناهم على ذلك وأعطونا عليه عهدا وإنا لن نغدر بهم" (رواه الإمام أحمد في المسند).

لقد وقع هذا الحدث بعد مضي ست سنوات على هجرة المسلمين من مكة إلى المدينة؛ حيث توجّه المسلمون إلى مكة في شوق لرؤيتها وللطواف بالكعبة، ونزلوا بمكان يطلق عليه اسم "الحديبية". وكان المشركون لا يريدون مجيء المسلمين إلى مكة، وتم الاتصال بينهما عبر إرسال الرسل حتى وقعت اتفاقية صلح الحديبية، فعاد الرسول ﷺ مع أصحابه إلى المدينة.

وبدأ المسلمون عقب صلح الحديبية مباشرة وعلى رأسهم أبو بصير ﷺ يفرون من مكة طالبين اللجوء إلى جوار الرسول ﷺ. فقدم المدينةَ أبو بصير (رجل من قريش) وهو مسلم، فأرسلوا في طلبه رجلَيْن فقالوا: "العهد الذي جعلت لنا!" فدفعه رسول الله ﷺ إلى الرجلين. فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فتمكن أبو بصير من أحدهم فضربه حتى برد، وفرّ الآخر. فجاء أبو بصير فقال: يا نبي الله، قد والله أوفى الله ذمتك قد رددتني إليهم ثم أنجاني الله منهم. قال النبي ﷺ: ويْلُمّه مسعر حرب لو كان له أحد! فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم فخرج حتى أتى "سيف البحر". وانفلت منهم أبو جندل بن سهيل، فلحق بأبي بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير حتى اجتمعت منهم عصابة. فوالله ما يسمعون بِعِير خرجت لقريش إلى الشام إلا عرضوا لها فقتلوهم وأخذوا أموالهم. فأرسلتْ قريش إلى النبي ﷺ

تناشده بالله والرحم لمّا أرسل من أتاه فهو آمن. فأرسل النبي ﷺ إليهم فأنزل الله تعالى ﴿**وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ**﴾ (الفتح:٢٤)

وكانت تبدو معاهدة الحديبية في أول وهلة وكأنها في غير صالح المسلمين، ولكن بمقتضى الاتفاقية التي ألزمت الطرفين بعدم المحاربة طوال عشر سنوات، أرجعت السيوف إلى أغمادها، فتوفرت فرص الاتصال والاحتكاك بين المسلمين والمشركين. وكانت مناسبة سانحة للانطلاق في فتح القلوب والعقول، حيث تعرّف خلالها مشركو قريش على المسلمين عن قرب، ورأوا صدقهم واستقامتهم وعرفوا جمال الإسلام. كما أن شخصيات كبيرة مثل "خالد بن الوليد" الذي أبى أن يُهزم بالسيف و"عمرو بن العاص" الداهية السياسي دخلوا في صف القرآن الجذّاب طوع أنفسهم. وخلال سَنَتين فقط من إبرام الاتفاقية، بلغ معتنقو الإسلام أعدادا أكبر ممن أسلم خلال ما يقارب عشرين سنة، أي منذ بعثة الرسول ﷺ إلى وقت إبرام هذه الاتفاقية. ونلاحظ هنا فطنة نبوية تتجاوز وجهات النظر البشرية. كان الرسول ﷺ قد رأى فوائد مستقبلية عند إبرام هذه الاتفاقية، وانتهز جميع الفرص خطوة تلو أخرى ليبلّغ رسالته إلى أكبر عدد من الناس.

وجهة النظر في الحياة اليومية

إن من يمعن النظر فيما تعرض له من الأحداث في الماضي ويسعى إلى الكشف عن أسبابها الحقيقية يعثر على نتائج مذهلة،

حيث يكتشف أنّ مِن وراء تلك الأحداث تنبيها أو إنذارا أو تحذيرا له. وإذا واجهنا صعوبات تحول بيننا وبين ما نرغب فيه ونصرّ عليه، فإن علينا التريّث آنذاك للكشف عن نوايانا الحقيقية؛ هل سنظلم الآخرين إذا حصلنا على ذلك الشيء؟ وهل نلتزم العدل في استعمال قدراتنا وإمكانياتنا؟ وهل لنا آمال سيئة؟ هل نحتاج إلى كفاءة أكبر لوظائف أهمّ؟ وهل هناك نقص في شخصيّاتنا؟... بهذه الأسئلة وغيرها نستطيع اكتشاف المعاني الكامنة في أعماق الأحداث.

ولنؤطر هذا الحدث الذي قد يصادفنا في حياتنا اليومية؛ غضب منكم صاحب العمل فعاتبكم. ماذا ستفعلون؟ إذ بإمكانكم حمل ذلك على وجه إيجابي أو سلبي. وإذا نظرتم إلى هذا الحدث من زاوية سلبية، فإنكم ستشعرون بالحزن والغضب من صاحب العمل وربما يطير نومكم. وتفكيركم السلبي هذا سيولد نتائج سلبية. أما إذا كانت نظرتكم إيجابية فإنكم ستسعون إلى مراجعة وضعكم بالقول: "كان بالإمكان أن يطردني صاحب العمل فورا، وأكون عاطلا عن العمل.. وهذا الأمر أحسن من ذاك. وهو يهتم بي. وكل بني آدم خطّاء". وبذلك نتعلم كيفية الحوار النفسي وأسلوب الخطاب مع الآخرين، وكيفية النظرة إلى الأحداث، وهذا مهم جدا.

وإذا كنا لا نملك فنّ تأطير الأحداث والنظرة إليها من زوايا مختلفة، فإننا سوف نراها من حيث يراها الآخرون. وهل قِطاعُ الإشهار سوى تأطير لمدى فهم الجمهور للأحداث وإعادة صياغتها من جديد؟ وإذا لم نقم نحن بتأطير تلك الأحداث بأنفسنا فهل سنرى غير ما يُقدَّم إلينا؟! يستخدم العاملون في مجال وسائل الإعلام قوة

التأطير بشكل جيد. ولنفكر في الوقائع الاجتماعية التي نلتقط معانيها كما تقدمها إلينا وسائل الإعلام دون أن ندرك الصورة الحقيقية في جلّها. ومن سيتفطن إلى وجود خداع أو خطة مغرضة عندما يوضع الحدث البريء في إطار بشع؟ اللهم إلا إذا كانت لدينا ركائز قوية نستند إليها عند تأطير الأحداث وعند النظر إليها من زوايا مختلفة، وذلك عبر التساؤل مع أنفسنا وعبر التفكير السليم. وآنذاك يمكننا التفطن إلى الوجه الحقيقي لتلك الأحداث.

الفروق الجنسية في العملية التربوية(*)

عندما نتحدث عن زيادة كفاءة الأفراد في تركيا وفي العالم، فإن أول ما يتبادر إلى الذهن طبعًا هو المؤسسات التربوية. وعندما يكون الإنسان هو الموضوع نتذكر المثل القديم: "العلم في الصغر كالنقش على الحجر". هذا المثل محق وهو يشير إلى أهمية التعليم والتربية وكيفية تشكل خلفية خزين المعلومات، وشكل التربية لدى الإنسان وأنها تستمر مثلما تشكلت، وأن إحداث أي تغيير فيما بعد يحتاج إلى انقلاب ذهني كبير. لذا فسنقوم هنا بنقد ذاتي لعملية التربية والتعليم الموجودة حاليًا في المؤسسات التي تعد قاعدة التعليم، وهي المدارس الابتدائية والمتوسطة والثانوية، وأحيانًا مدارس الحضانة أيضًا. كما سنقدم بعض الاقتراحات التي نعتقد أنها تفيد في رفع الكفاءة في هذه المؤسسات التعليمية.

الهوية الجنسية

اكتشف العالم النفسي "هربرت لاندسال" في مركز أبحاث "*Bethesda*" بأن النساء والرجال الذين أصيبت عندهم الأقسام الدماغية نفسها بالخلل يتأثرون بشكل مختلف. فقد اختار لدراسته مجموعة مصابة بالصرع وقد نُزع القسم الأيمن من دماغهم وهو القسم الذي يحدد الإحساس بالحيز أو الفضاء الموجود حول الإنسان ويعين

(*) **شمس الدين بولات** [كاتب وباحث في مجال التربية/تركيا. الترجمة عن التركية: أورخان محمد علي].

شكل الأشياء المحيطة به. فشاهد أن النساء اللائي نُزع القسم الأيمن من دماغهن لم يفقدن الشيء الكثير من قابلياتهن. بينما شاهد أن الرجال الذين نُزع هذا القسم من دماغهم قد فقدوا قابلياتهم المتعلقة بالإحساس بالمكان والفضاء في تجارب *(IQ)*[1] التي أجراها عليهم.

وقام "لاندسال" أيضًا بتجارب حول القسم الأيسر من الدماغ الذي يسيطر على قابلية اللغة. فشاهد أيضًا أن الرجال الذين تضرر هذا القسم من دماغهم فقدوا قابلية الكلام، أما النساء اللائي تضرر هذا القسم من دماغهن فلم يفقدن معظم هذه القابلية، مع أن قابلية الرجال في الكلام واللغة أكثر من قابلية النساء بثلاثة أضعاف.

الفروق الدماغية بين الأنثى والذكر

وأدى هذا بـ"لاندسال" إلى استنتاج ما يأتي: "إن النساء يملكن قابلية الإحساس بالمكان وقابلية الكلام في كلا القسمين من الدماغ". وهذه النتيجة أصبحت مقبولة بشكل عام. ومع أن هاتين القابليتين أي قابلية الإحساس بالمكان وقابلية الكلام موجودة بشكل أقوى في الرجال إلا أن قابلية الإحساس بالمكان وبالفضاء موجودة عندهم في القسم الأيمن من الدماغ، وقابلية الكلام واللغة موجودة في القسم الأيسر منه. وقد أيدت التجارب العديدة الأخرى التي جرت في هذا الخصوص هذا الاستنتاج. وتوصلت العالمة الكنَدية "ساندرا وتلسون" إلى أن الفروق الدماغية في الرجل تيسر له القيام بفعاليتين في الوقت نفسه. فمثلا يستطيع الرجل القيام بنشاطين مثل القيام بقراءة خارطة والتحدث في اللحظة نفسها بشكل أيسر

من المرأة. وهي تقول بأن السيطرة على فعاليتين أو نشاطين في الوقت نفسه يتم في الرجل في فصين مختلفين من فصي الدماغ. أما في المرأة ففي الفصين معًا، لذا يصعب عليها التحدث وقراءة خريطة في اللحظة نفسها. لذا فالأبحاث التي تناولت تشريح الدماغ دلت على أن الفروق بين دماغ الرجل ودماغ المرأة تجعل الرجل أفضل من النساء في النشاطات المتعلقة بالفضاء والمكان، لأن هذا النشاط في المرأة يتم عن طريق فصي الدماغ معًا.

إذن فهذه الأبحاث تؤكد على وجود فروق في الدماغ بين الرجل والمرأة، وأن لكل منهما بنية مختلفة عن الأخرى. وهذا يؤدي إلى فروق في التخصص بينهما، كما يدل أيضا على أن دماغ الرجل قد تخصص أكثر من دماغ المرأة.

هنا يخطر على البال هذا السؤال: هل يبدي كلا الجنسين ردود الفعل نفسها أمام الأشياء نفسها ما دام لكل منهما بنية دماغية مختلفة عن الآخر أم ردود فعل مختلفة؟ هذا هو ما يهمنا هنا. وقد دلت المشاهدات والأبحاث العلمية على أن الرجل يستخدم فص دماغه الأيسر في حل المعضلات التجريدية، بينما تستخدم المرأة فصي الدماغ في هذا الأمر. وتم قياس التيار الكهربائي الذي ينشره الدماغ عند الأولاد وعند البنات لدى قيامهما بإسقاط شكل ثلاثي الأبعاد على الورق، فلوحظ أن الفص الأيمن عند الأولاد يعمل بنجاح أكبر. أما في البنات فهذا العمل يستوجب منهن عمل فصي الدماغ. كما لوحظ في التجارب التي أجريت على الأولاد والبنات بعرض مشكلة أمام العين اليسرى (للوصول إلى الفص الأيمن مباشرة)[٢] أن الأولاد كانوا أكثر نجاحًا في حل المشكلة.

لقد نوقشت نتائج هذه التجارب وهذه المعلومات من قبل مئات الباحثين وتم التوصل إلى النتائج الآتية:

• الفروق الموجودة في بنية الدماغ تؤدي إلى فروق في السلوك وفي القابليات بين الجنسين.

• البنات أسرع من الأولاد في تعلم القراءة.

• البنات أكثر نجاحًا في الامتحانات الشفوية من الأولاد.

• الرجل أكثر نجاحًا في القابليات المتعلقة بـ"الفضاء والمكان"

• تستعمل البنات الطرق الشفوية أكثر في حل المسائل الرياضية التجريدية.

• تبدأ الطفلة بالكلام أسرع من الطفل، ويكون خزينها من الكلمات أكثر.

• يملك الرجال قابلية في الأمور المشخصة أو الملموسة.

• البنات في مرحلة الدراسة الابتدائية أكثر نجاحًا من الأولاد في تعلم القراءة، لذا يُتهم الأولاد بأنهم أغبياء. ويترسخ هذا في لاشعورهم مما يكون له أسوأ الأثر في المراحل المقبلة من التعليم.

• تؤسس الطالبات علاقات أفضل مع المدرسين والمدرسات، ويشاركن في الدرس بصورة أكثر إيجابية من الطلاب.

• يبدي الطلاب نجاحًا أكثر من الطالبات في الرياضيات والمواضيع المشخصة (أي غير التجريدية) والنظرية الأخرى.

آليات التعليم والفروق الدماغية

فاستنادًا إلى هذه المعطيات يجب التوجه إلى شكل جديد من التعليم قائم على أساس هذه الفروق بين الجنسين. فكما تُعطى مناهج مختلفة من التعليم لمجموعتين مختلفتين من ناحية الاختصاص (مثلا دروس الفيزياء التي يدرسها المهندسون مختلفة عن دروس الفيزياء لمدرسي الفيزياء) كذلك يجب مراعاة هذه الفروق في القابليات للوصول إلى أفضل النتائج.

ثم لننظر إلى هذه المسألة من زاوية المعلمين والمدرسين والأساتذة. فهل على هؤلاء القيام بتعليم مفردات المناهج التعليمية بشكل مختلف للطالبات عن الطلاب؟ أم أن هناك طريقًا وسطًا بين هذه الثنائية؟

هذه الفروق بين المرأة والرجل ليست فروقًا سطحية كما يتوهم البعض. ولا شك أنهما متساويان في الحقوق والواجبات في المجتمع، ولكن إن قمنا بتدقيق القابليات نرى فروقًا كبيرة بين قابلياتهما.

تقول "آنا موير" موضحة هذه المسألة: "تنزل هذه الفروق إلى أعماق كبيرة، وهي تبدو في الدماغ وفي بنيته وفي أولويات كلا الجنسين واستراتيجياتهما. وهي توجه آمالنا وأهدافنا وقابلياتنا ومهاراتنا. أما حصر هذه الفروق في ساحة التناسل فليس خاطئًا من الناحية العلمية فقط، بل هو إهمال لإنسانيتنا كذكر أو كأنثى".

وحول فكرة المساواة بين الجنسين تقول "أليس روسي": "التنوع ظاهرة بيولوجية، أما المساواة ففكرة ومفهوم أخلاقي وسياسي واجتماعي". وهي بذلك تبدي شكوكها حول مدى تلاؤم مفهوم المساواة مع العلم.

في مرحلة الحضانة والتعليم الابتدائي لا يكون الطلاب موفقين تماما. ولكن ما إن يبلغ الطالب مرحلة المراهقة حتى يبدي تقدما كبيرًا حيث يستطيع اللحاق بالطالبات في موضوع القراءة والكتابة والحديث، ثم يتجاوزهن في ساحة الرياضيات؛ حيث نرى أن درجات *(IQ)* التي يحصل عليها الطالب البالغ سن الرابعة عشرة والسادسة عشرة ترتفع بشكل ملحوظ، بينما تراوح درجات *(IQ)* التي تحصل عليها البنات في هذا السن في مكانها، بل ربما تهبط أيضًا.

ومع أن البنات يتعلمن العد والحساب بصورة أسرع من الأولاد، (في الحقيقة هن يتعلمن كل شيء في البداية أسرع من الأولاد)، إلا أن الأولاد لا يلبثون أن يتفوقوا عليهن في المنطق الرياضي. وتتناقص قابلية البنات بمرور الوقت في الرياضيات كلما اتجهن من العمليات الحسابية الأربعة –كالطرح والجمع- إلى المستويات النظرية؛ أي إن الفروق في القابليات بين الجنسين موجودة في جميع المراحل العمرية.

قامت جامعة جون هوبكنس في الولايات المتحدة الأمريكية عام (١٩٧٢م) ببحث حول قابليات الأطفال الأذكياء في مدينة "بوسطن".

وقد شمل هذا البحث آلافًا من الأطفال من كلا الجنسين بعمر ١١-١٢ سنة. وكان البحث يدور حول القابليات الرياضية لهؤلاء الأطفال المتفوقين من ناحية حاصل الذكاء *(IQ)* والذين كانوا يشكلون ٣٪ ضمن المتفوقين في موضوع الرياضيات والامتحانات الشفوية، فظهر أن الأولاد أكثر قابلية من البنات في موضوع الرياضيات. وكلما زادت صعوبة الامتحانات زادت نسبة نجاح الأولاد بالنسبة للبنات.

ففي التجارب التي أجريت وشارك فيها المئات من الطلبة من كلا الجنسين لوحظ أن نسبة نجاح الطلاب إلى الطالبات في مستوى +٤٢٠ هو ١,٥÷١ وفي مستوى +٥٠٠ (أي في تجارب وامتحانات أصعب).

كانت النسبة ١÷٢، وفي مستوى +٦٠٠ أصبحت النسبة ١÷٤ وفي مستوى +٧٠٠ (وهو أعلى مستوى) وصلت النسبة إلى ١÷ ١٣ كما لوحظ أن الفروق المتعلقة بالجنس تتوضح أكثر كلما تقدم العمر. فهرمون الرجولة يقوي قابلية الرجل المستندة إلى النظر والمتعلقة بالفضاء-المكان، بينما يُضعف هرمون الأنوثة هذه القابلية. لذا تتوضح فروق القابلية في علم الرياضيات عند الرجل بعد بلوغه ونضجه.

تناول الباحثون النظرية القائلة بأن الطلاب أكثر نجاحًا في المنطق الرياضي بينما الطالبات أكثر نجاحًا في عمليات الجمع والطرح... تناولوا هذه النظرية بالفحص والنقاش فأعطوا مفردات في علم الرياضيات إلى الطلاب تختلف عن المفردات المعطاة للطالبات.

ولكن الفروق في القابلية في علم الرياضيات لم تظهر إلا بعد إعطاء المفردات نفسها لكلا الجنسين.

ولتفسير هذا الأمر ذكروا ما يأتي: "إن معظم مدرسي الرياضيات هم من الرجال، لذا فإن لغة علم الرياضيات ولسانها لغة ذكورية ولا تناسب الطالبات".

الانقلابية في فلسفة التعليم

لذا نستطيع القول بوضوح بأن على نظام التعليم عندنا قبول وجود هذه الفروق بين الجنسين وأخذها بنظر الاعتبار وتجديد نظام التعليم حسبها. فإن كنا نرغب في تشويق الطالبات وحثهن للدخول إلى كلية الهندسة، علينا أن نجعل درس الرياضيات في المدارس أسهل بالنسبة للطالبات، وهذا يحتاج إلى تعليم الطالبات هذا الدرس بشكل مناسب لعقولهن.

هناك أدلة تبرهن على إمكانية التغلب على العقبات التي يصادفها الطلاب الصغار في مراحل التدريس الأولية، فهم يلاقون في البداية صعوبة في التعلم لأن المناهج الدراسية موضوعة حسب عقول وقابليات الطالبات، ولكن إصرار عوائل الطلاب على قيام أبنائهن بالتعلم يدفع هؤلاء الطلاب إلى اجتياز هذه العقبة وتعلم القراءة والكتابة بسلاسة. ولكن الطالبات لا يستطعن اجتياز عقبة تعلم العلاقات المكانية-الفضائية بسهولة، أي بينما يستطيع الطلاب اجتياز الصعوبات التي يلاقونها في المراحل الأولى من التعلم لا تستطيع الطالبات تطوير قابلياتهن فيما يتعلق بالمكان-الفضاء.

والنتيجة التي نخلص إليها في الختام هي وجوب تقويم الطلاب والطالبات في النظام التعليمي حسب قابلياتهم الفطرية لكي يمكن الاستفادة من هذه القابليات بشكل صحيح. وهذا يستوجب وضع مفردات مختلفة في مناهج التعليم للطالبات وللطلاب تكون متلائمة مع قابلياتهم واستعداداتهم الفطرية. ونحن نأمل زيادة في البحوث العلمية في هذا المجال لكي يمكن الاستفادة بشكل أفضل من قابليات كلا الجنسين.

الهوامش

(١) *IQ: intelligence guatient*: أي حاصل الذكاء أو درجة الذكاء ونحصل عليها بقسمة السن العقلي للإنسان على عمره وضرب حاصل القسمة في مائة. (المترجم).

(٢) لأن الفص الأيمن يسيطر على الجزء الأيسر من الجسم. والفص الأيسر على الجزء الأيمن منه (المترجم)

الأسوة الحسنة ودورها في التربية الناجحة(*)

مهما يكن لدى المرء من قدرات ومواهب وأساليب يستثمرها لتربية ذاته وتزكيتها، فإنه لا يستغني عن وجود قدوة من بني جنسه تكون له نبراسا في سيره إلى ربه. فعليه أن يحرص على اختيار شخص استجمع قدرا كبيرا من الفضل والتقوى يكون قدوة له في أمور الخير والهدى، ويرجع إليه في السراء والضراء مستفيدا من رأيه ومشورته فيما يلم به من أحداث ومواقف. فللقدوة تأثير كبير في تكوين شخصية الفرد وصقلها، حيث إن الإنسان ميال بطبعه إلى التقليد والمحاكاة، وفي التربية الإسلامية يتحول هذا التقليد ويرتقي إلى مفهوم راق يطلق عليه "الاتباع"، وأرقى هذا الاتباع ما كان على بصيرة. يقول الحق ﷻ ﴿**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي**﴾ (يوسف:١٠٨). فالاتباع عملية فكرية يمزج فيها بين الوعي والانتماء والمحاكاة والاعتزاز في ظل البصيرة والحجة.

القدوة وإحراز الأهداف

نعم، هنالك الكثير من الأفكار والطموحات -بدءا بالأعمال اليومية والمشاريع العادية، وصولا إلى الأهداف السامية والمطالب العالية- لاقينا دون تحقيقها عراقيل وصعوبات، وفشلنا في إكمالها، بل منها ما لم نتجاوز بها مرحلة التصور والخيال.

(*) **هارون أوجي** [كاتب وباحث تركي. الترجمة عن التركية: أجير جمال الدين أشيوق]

ومع أن عديدًا من العوامل لها تأثير مباشر في تحقيق الأهداف، لكن لا مراء في أن أقرب الطرق وأسلمها للوصول إليها هو اتخاذ قدوة صالحة، والاحتذاء بحذوه، والاستفادة من تجاربه، والاستنارة بمعارفه. وإذا كان هناك من يستطيع أن يكون سعيدا حتى في الظروف القاسية، فإن بإمكاننا أن نكون سعداء مثله بمجرد التعرف على إستراتيجيته في كيفية النظر إلى الأشياء والأحداث. والذي يستطيع أن ينهض من نومه مبكرا نشيطا مفعما بالطاقة والحيوية، فإنما يتيسر له ذلك بفضل أعمال وتصرفات يقوم بها. فمتابعة أمثال هؤلاء قد تؤدي بنا إلى نفس النتيجة التي وصلوا إليها.

والحقيقة أننا في مراحل مختلفة من حياتنا نستلهم العديدَ من الأشخاص، فتكون في طريقة تفكيرنا وتصوراتنا وتصرفاتنا بصمات واضحة منهم على قدر علاقتنا بهم. فلا غرو أن يبرز في ملامح شخصيتنا أمور تلقيناها من أبينا أو أمنا أو كليهما أو من مدرسنا أو من شخص تقي ورع متدين. ففي كل موقف تطفو على السطح تجربة تلقيناها من أحد هؤلاء، مما ينم عن مدى تأثرنا به واستفادتنا منه. فحق ما قيل: "المرء ابن بيئته وخلاصة تجاربه".

ومن جانب آخر نجد في مجتمعاتنا من انحرف، فعاش في بداية أمره تجارب تافهة وسلبية، ولكنه ثاب -أخيرًا- إلى رشده وبحث عن مرشد يعِينه على تسوية وضعه وإصلاح أمره، وفي نهاية المطاف فاز به فعلا. علما بأن في أوضاع الناس -صالحهم وطالحهم- دروسا وعبرا يستخرجها الكيس الفطن.

الإنسان مجبول على التأسي

والحقيقة أننا نتأسى دائما في مختلف مراحل حياتنا؛ فالطفل يقوم بالاقتداء بالكبار باعتبارهم مثله الأعلى، ويبدأ باكتساب العادات والتقاليد والملكات من خلال ما يسمعه ويلاحظه من أقوال وحركات وانفعالات. فيندفع برغبة خفية لا يشعر بها نحو محاكاة من يعجب به في لهجة الحديث أو أسلوب الحركة والمعاملة. والتلميذ يتدرب على الصنعة بالتأسي بالأستاذ والمعلم. وأنتم إذا كنتم لا تتقنون النطق بألفاظ، فعليكم التأسي بأشخاص يتقنونها، فقد تكونون مثلهم في غضون وقت قصير للغاية. فالذي يقلد خطيبا مفوها بصوته وإيقاعاته ونبراته يبدأ شيئا فشيئا بالإحساس بالثقة بالنفس. ومن أراد الاستفادة من الأحاسيس القوية والمشاعر الجياشة التي يتمتع بها، فعليه أن يبدأ بالأمر من محاكاة أحد الذين يعجب بهم. وإذا كنتم تعرفون أناسا يحسنون الاتصال والتعامل مع أولادهم فبإمكانكم متابعتهم والاستفادة من تجربتهم. فنحن نستطيع التشبه بمن نعجب به بالاحتذاء به؛ بأن نؤمن مثله ونفكر على طرازه ونتكلم بسليقته ونثابر على شاكلته ونتخلق بأخلاقه.

نعم، لا مراء في أن بعض المهام معقدة ومتشابكة بحيث يستغرق التأسي والاقتداء بمن يحسنونها والقيام بمثل ما قاموا به وقتا طويلا، إلا أنه إذا كان لدى الإنسان الذي يريد التأسي من العزيمة والإيمان ما يسند هذه الإرادة ويدعمها فإنه سيحقق ذلك إن عاجلا أو آجلا.

إن التأسي أسرع من طريقة التجربة والخطأ في الوصول إلى الهدف المطلوب، فرب أعمال وإنجازات صرف عليها أصحابها

عمرا ثمينا ومبالـغ باهظة، يستطيـع الإنسان أن يحققها في زمن قصير جدا، وذلك بالمتابعة الحثيثة والتأسي الفعال والسير في نفس الطريق الذي سلكوه.

واليابانيون هم أكبر المقلدين في العالم، فالسـر الذي يكمن وراء النجاح الباهر لاقتصاد اليابان ليس هو الاختراعات الفريدة، بل إنهم يبدؤون من العمل بأخذ المنتجات والأفكار من شتى الجهات وعلى نطاق واسـع، سـواء في مجال قطاع السـيارات وأَنصاف الموصِلات أو غيرهـا، وبتصميـم دقيـق يحافظـون على العناصـر المهمة في تلك الأفـكار والمنتجـات ويطـوّرون الجوانب الأخـرى. صحيح أنه لابد من بذل الجهد لاختراعات جديدة وكشوفات مبتكرة، ولكن لا يعني ذلـك أننـا سـنضرب صفحـا عمّـا تـم اختراعه، وسـنحاول كشـفه من جديد.

ولابـد للإنسـان مـن القـدوة الصالحـة فـي أمـور معاشـه وحياتـه الدنيوية لكي يعيش حياة مثالية؛ فالإنسان الذي ليس له قدوة صالحة لن يهتدي إلى الصواب في الحقيقة، ولن يكون على بصيرة من أمره وواثقًـا مـن كونـه على الحـق والصواب، ولـن يتفلت من الوسـاوس والشـكوك حـول الوصول إلـى أهدافه؛ فمثله كمثل سـفينة في خضم بحـر محيـط تمخـر بدون بوصلة، فلا غرو أنها سـتتيه بين ألف وجهة ووجهـة. فهكـذا الحيـاة؛ عروقهـا متشـعبة وأسـاليبها متنوعـة يحتـاج سالكها إلى مرشد رشيد.

الرسول ﷺ قدوة القدوات

فنحن في علاقاتنا مع أولادنا وأبوينا وأزواجنا، وفي مأكلنا ومشربنا وعباداتنا ودعواتنا وسائر أعمالنا أحرار، نستطيع أن نتصرف كما نشاء. وبذلك قد نسمو إلى العلا وقد نهبط إلى الحضيض، ونحسن أو نسيء. ولكن علينا أن لا ننسى أن الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم لم يتركه سدى، ولم يدَعْه بدون أسوة، سائبا يسرح ويمرح في الحياة من دون هاد أمين، بل هداه بالقرآن إلى الأسوة الحسنة، كما في قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا**﴾ (الأحزاب:٢١) و﴿**قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ (آل عمران:٣١) . فهاتان الآيتان وغيرهما تشير إلى أن الطريق الآمن والدرب الموصل إلى المطالب إنما هو اتخاذ القدوة الصالحة واتباع الأسوة الحسنة. وهل هناك طريق أسلم من التأسي بسيدنا محمد ﷺ الذي اتفق الصديق والعدو على أنه كان في قمة الأخلاق الحسنة.

وفي شخصية الرسول ﷺ وسيرته يجد المرء الأسوة الحسنة في حياته كلها؛ فهو إنسان أكرمه الله ﷻ برسالته، وسيرته شاملة لكل النواحي الإنسانية في الإنسان، فهو الشاب الأمين قبل البعثة والتاجر الصادق، وهو الباذل لكل طاقته في تبليغ دعوة ربه، وهو الأب الرحيم والزوج المحبوب والقائد المحنك والصديق المخلص والمربي المرشد والحاكم العادل. كما أنه ﷺ ضرب المثل الأعلى في تربية الذات من جميع النواحي سواء في عبادته أو زهده

أو خلقه الكريم أو غير ذلك. والمتأمل لسيرته يجد الحل الأمثل لكل المعضلات التي تقف حائلا دون إشعاع الروح وبلوغ صفائها ونقائها.

فقد ولد ﷺ وبزغت شمسه في عصر مظلم محلولك تراكمت فيه العقائد الزائفة والمشاكل الاجتماعية؛ فكان الناس يعبدون الشجر والحجر، والشمس والقمر، حتى إن بعضهم كان يصنع من المأكولات مثل الحلوى والجبن صنما، فإذا جاع عاد ليأكله. وكان أحدهم إذا بُشّر بالأنثى ﴿**ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۞ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ**﴾ (النحل:٥٨-٥٩)، وكانت الأخلاق الرذيلة والأفعال الشنيعة -مثل الزنا والميسر وتعاطي الخمور والتعامل بالربا- كأنها تصرفات عادية في المجتمع. ولكنه ﷺ استطاع في زمن قصير أن يقضي عليها كلها، ويرسي بدلا عنها فكرةَ أن غاية خلق الإنسان هو التعرف إلى الله والقيام بالعبودية له، فعلّم الناس وربّاهم على سبل العيش المتوازن بعيدا عن الإفراط والتفريط، وإخلاص الأعمال لله تعالى، وملازمة الصدق، والوفاء بالعهود، وعدم الخيانة عند الائتمان، والشفقة على الأهل، والرفق بالنساء. وأرشدهم إلى العدل والتواضع والسخاء والمعروف والبر والحلم والصبر.

فالذين أحبوه واتبعوا مبادئه واقتدوا به واتخذوه أسوة في ذلك العصر، بنوا حضارة إنسانية يتمتع فيها الإنسان بإنسانيته ويحس بكرامته.. حضارة أحرزوا فيها شأوا أعلى لم تبلغ إليه حضارة بعدهم حتى الآن. ومن بعد ذلك أنشئت عشرات من الدول

على خطى النظام الذي جاء به مثل الدولة الأموية والعباسية والسلجوقية والقره خانية والعثمانية. وكم نشأ وترعرع في ظل تلك الدول علماء دهاة اهتدوا بهديه ﷺ وسبقوا عصورهم وألقوا بضيائهم إلى أيامنا هذه، وأبطالُ روح عاشوا في أبعادٍ ماورائية، وأدباء مصاقع وأساتذة بيان.

فها هم سادتنا أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وأبو عبيدة وعقبة بن نافع ﷺ وطارق بن زياد والإمام أبو يوسف ومحمد بن الحسن والجابري وابن سينا وابن بطوطة والخوارزمي وجلال الدين الرومي والإمام الرباني وبديع الزمان سعيد النورسي ﷺ وغيرهم ممن تركوا بصمات واضحة على عصورهم رضي الله عنهم وأرضاهم.

ولقد علمنا التاريخ أن الذي سما بهؤلاء الدول والأشخاص وحلق بهم في الذرى إنما هو اتخاذهم الحبيب المصطفى ﷺ أسوة يحتذى به من كل الوجوه، وقدوة يؤتم به من كل النواحي.

القدوة الصالحة وقصة نجاح

طالب في مقتبل العمر، لا يتلقى من أسرته أيّ دعم مادي أو معنوي. وما إن ناهز سنه الرابع عشر حتى اضطر إلى العمل والدراسة معا. وأخيرا حصل على عمل في جريدة، ودخل الجامعة، فواصل مدير تحرير الجريدة مساعدته ومساندته أثناء دراسته الجامعية، مما أدى بالطالب الشاب أن يقول في قابل أيامه: "لقد تعلمت مِن تصرف مديري أن أمد يد العون إلى الآخرين، وأن أفسح المجال لغيري كي يستفيد من الفرص التي أتيحت لي".

وبعد أن تخرّج الشاب من الجامعة بدأ بالعمل في مؤسسة. فكان من مبادئ مدير المؤسسة أنه يطلب من العاملين أن ينجزوا كل مهمة في يومها، وأن يُجروا الاتصالات الهاتفية ويردوا على الرسائل في نفس اليوم. وكان -مع ذلك- يعامل كل أحد بظرافة عالية أيا كان مستواه الاجتماعي، لا يميز في ذلك بين شخص عادي لا يتمتع بأي صلاحية أو منصب أو شبكة علاقات، وبين شخص ذي منصب رفيع من وزير أو سفير أو غيرهما. وكان الشاب يراقب هذا المدير ويتابع تصرفاته، فيتعلم من أسلوبه كيفية تأسيس العلاقات الطيبة مع الآخرين والوصولِ إلى المستوى المطلوب في إنجاز المهام وإحراز النجاح.

وبعد فترة عُيّن الشاب محررا للمجلة، ومن بعد ذلك مديرا للنشر. وكان صاحب الجريدة من النوع الذي يستهدف في مشاريعه الربح، وكان يطمح دائما في كل عمل يقوم به الوصولَ إلى المستوى الأمثل وغير العادي، سواء كان مسابقة رياضية أو نشاطا تجاريا أو غير ذلك. فهذه الطبيعة التنافسية أثرت في المدير الشاب تأثيرا بالغا، وبهذه الروح والعزيمة وأسلوب الإدارة الرشيدة وعقلية الطموح إلى الأمثل قفزت جريدته إلى الدرجة الأولى في البلد سواء من ناحية المبيعات أو النوعية. وحينما يتحدث الشاب عن أيامه تلك كان يقول: "لقد كنت محظوظا للغاية لأنني كنت برفقة أناس يقدّرون الإنسان وجهده وإنجازاته..."

فهذا الرجل هو "توم جونسون" *(Tom Johnson)* الذي أدار قناة *(CNN)* سنة ١٩٩٠م، والتي كانت تواصل بثها الحي المباشر

٢٤ ساعة، وكانت تشاهَد من ١٣٠ دولة. وفي غضون ست سنوات من المدة التي ترأسها "توم جونسون" أصبحت تشاهَد من ٢٠٨ دولة.

فـ"توم جونسون" القائل: "بإمكانك التعلم من كل من تلاقيه" هو الذي يقول بدوره: "لقد تعلمت مقابلة الإحسان بالإحسان من "بيتون" *(Peyton)*، وأهمية الاستفادة من كل يوم يمر بي، وجدوى الحرص على النوعية الجيدة من "بيل" *(Bill)* و"ليندن جونسون" *(LBJ)*، وتعلمت من "تيد" *(Ted)* و"أوتيس" *(Otis)* أن الفوز إنما يتوفر برفع المستوى وتجنُّب الغش، وأن الحفاظ على الجودة يحقق نجاحات مذهلة.." نعم، إنه استطاع أن يقول هذا كله لأنه كان إنسانا عاقلا يقدّر مواهب الآخرين ويبذل جهدا جهيدا في سبيل الاستفادة من قدراتهم وتجاربهم. وما فعله وحققه جونسون ليس شيئا جديدا وغريبا، بل إنما وصل إلى ما وصل إليه بالتأسي والقدوة الحسنة.

مَن طلب القدوة وجدها

الحاصل أن الإنسان ميال بطبعه وغريزته إلى الاقتداء بالآخرين، فهو بميزته هذه يتمكن من الوصول إلى أهدافه والحصول على طموحاته، وهذا النوع من الاقتداء يلبي رغبة فطرية موجودة لدى الإنسان الذي يتطلع إلى تحقيق ما وصل إليه أولئك الأفذاذ أو يزيد. وبالمقابل إن وقع في شباك الجهل والغرور وفخهما، وتغاضى عما أحرزه غيره من الإنجازات والنجاحات، ولم يراجع حساباته ويقيّم وضعه في مجال النجاحات والإخفاقات، فسيحرم قطعا من هذه الطاقة الكامنة في كيانه، ويقع في كوارث لا تحمد عقباها لا سمح الله!

فإذا كان لدى الفرد ميل إلى نوع من أنواع النبوغ كالعلم أو العبادة أو التخصص في أي علم من العلوم، فيحتاج أن يكون أمامه مثل بارز في هذا المجال يسير على خطاه ويقتفي آثاره. علما بأن عالم الإنسانية في غاية الثراء من ناحية توافر القدوات الحسنة في النواحي المعنوية والمادية، وإذا تلفّت المرء يمنة ويسرة واستعرض أمام مخيلته أساتذته الذين تتلمذ عليهم في إحدى المؤسسات التربوية أو التعليمية فلا شك أنه سيجد بغيته، ولربما تكون هذه القدوة من العلماء العاملين البارزين في المجتمع ممن يبعد آلاف الأميال، ومع ذلك يسهل الاتصال بهم والغَرْف من معينهم للاستفادة من علومهم وجهودهم وتجاربهم التربوية والروحية، فيوفر على نفسه كثيرا من الوقت والجهد في سبيل البحث عن الأفضل والأصلح لذاته. بل يزيده ذلك تمسكا بتعاليم دينه وقيمه، فيجاهد نفسه في ذلك لأنه يرى إمكانية تطبيق تلك التعاليم في أرض الواقع.

فإذا سار على الدرب الذي فتحوه وعبّدوه فسيرى بعين اليقين كيف تتوالى النجاحات والنتائج الباهرة الحميدة.

وخير مثال على ذلك هو الأثر الكبير الذي مثلته القدوة في نشر الإسلام في كثير من أصقاع الدنيا بواسطة تلك النماذج المتحركة التي دعت إلى الإسلام بأفعالها قبل أقوالها، فاستقطبت ملايين من البشر دخلوا في دين الله دونما فتح ولا جهاد. تلك النماذج تمثلت في أعداد ليست بالكثيرة من التجار المسلمين والزوار الذين أدخلوا بسيرتهم وتمسكهم بتعاليم دينهم كل هذه الأعداد إلى الإسلام.

السنوات الذهبية، أيام ما قبل المدرسة[*]

تعرف السنوات بين (٠-٦) بأنها التعلم الذهبية قبل المدرسة، لأن سبعين بالمائة من المعلومات المؤثرة على تصرفات الفرد تؤخذ في هذه المرحلة، وتترسخ أسس شخصيته فيها.

إن بعض ما يتعلق بالتصرفات تنتقل عن طريق الوراثة وتكون موجودة منذ الولادة، وبالتالي فليس الطفل عجينة سهلة التشكيل والتغيير في يد الوالدين ولا في يد المربين، إلا أن للبيئة الاجتماعية دورا مهما في تشكيل وتطوير شخصية الطفل، ومن خلالها تتعرض المميزات والخواص التي ورثها الطفل للتغير. ومرحلة الطفولة هذه هي مرحلة "تغذية اللاشعور"، لذا فإن التعليم والتوجيه قبل مرحلة الدراسة هي أُولى وأهم مرحلة في الحياة التعليمية.

من يعطي التعليم قبل الانخراط في المدرسة؟

في ثقافتنا وتقاليدنا كان الطفل ينشأ في حجر أمه وجدته وجده ومع القصص التي يسمعها منهم، وكذلك في جو اللعب مع أخيه أو إخوانه أوأطفال الجيران، مقلدا تصرفات الكبار ومتخذا إياهم قدوة له في جميع تصرفاته، وهكذا يكتسب شخصيته. ولكن لم يَعُد هذا الطراز من التعليم والتوجيه ممكنا ومتاحا في الظروف الحالية إلا للقليل من الأطفال. لأن بنية العائلة -ولاسيما في المدن-

---

(*) **هارون أوجي** [كاتب وباحث تركي. الترجمة عن التركية: أورخان محمد علي]

قد تغيرت، وضعفت العلاقات مع الأقارب والجيران. وأصبحت الأسرة وحدة صغيرة مؤلفة فقط من الأب والأم والطفل. فأصبح الطفل وحيدا لا يجد من يلعب معه، إما لعدم وجود إخوة له، أو بسبب فارق السن. كما انعدمت ساحات اللعب. أما التلفزيون الذي بدأ يَعرض برامج ومناظر جذابة -وقد تكون ضارة- بمجرد الضغط على زر فقد احتل بيوتنا.

ومع أن هذا الأمر يقلق العديد من العوائل، إلا أنها تضطر للرضوخ أمام الأمر الواقع لأنها لا تجد بديلًا آخر لتلهية الطفل. فإذا أضفنا إلى هذا عدم مبالاة الوالدين، ونقصَ معلوماتهم حول تربية الطفل، إضافة إلى كونهم مرهقين بالعمل، فليس من الصعب حدس ما يُنفث إلى لا شعور الطفل من أمور. إذن، فمن الذي سيتولى توجيهَ الأطفال وتعليمَهم وإرشادهم في مرحلة ما قبل المدرسة؟ وكم من أمّ تملك المعلومات التربوية الكافية التي تساعدها في تنشئة أطفالها النشأة الصحيحة من الناحية الاجتماعية والذهنية والروحية؟

ففي هذه الظروف السلبية التي ذكرناها من قبل هل تقوم الأم بهذه المهمة إن لم تكن عاملة أو موظفة؟ أم تقوم بها إحدى ربات البيوت إن كانت الأم عاملة؟ أم يجب إيداع هذه المهمة إلى حضانة الأطفال؟ وما هي التطبيقات الجارية في هذا الخصوص في العالم؟ وما هو التطبيق الحالي لهذا الأمر في بلادنا؟ وأي نتائج تم الحصول عليها من هذه التطبيقات المختلفة؟ إن الأجوبة التي سنحصل عليها عن هذه الأسئلة وما شابهها ستقودنا -على الأرجح- إلى فهم جديد وتناول جديد في هذا الصدد.

البيئة الاجتماعية والطفل

من الحقائق المعروفة أن أعدادا كبيرة من الأطفال في العالم ينشؤون في بيئة لا تساعدهم على تطوير وتنمية قابلياتهم. صحيح أنه لا يمكن عمل شيء يُذكر في صدد تغيير العوامل الجينية المؤثرة سلبا على الطفل، ولكن يمكن تصحيح وتعديل مؤثرات البيئة السلبية بمقياس كبير. والحقيقة أن الأفراد يملكون قابليات أكثر مما يستطيعون تقديمها وتحقيقها حاليا. ويمكن تطوير القابليات بمساعدة ومعونة البيئة المحيطة بالفرد. وفي هذا الصدد تكتسب التربية والخدمات المقدمة للطفل قبل دخوله المدرسة أهمية كبيرة.

التطبيقات الموجودة في العالم

وفي السنوات الأخيرة زادت العناية -ولاسيما في الغرب- بالنظريات وبالتطبيقات المختلفة لهذا الموضوع وبتطوير البرامج حولها، وبدؤوا يستعملون مصطلح "العناية والتعليم المبكر للطفل" في وصف هذه الخدمات المقدمة للطفل. وهذه الخدمات متنوعة؛ فبعضها تركز على الناحية الصحية، وبعضها على التغذية، وبعضها على الناحية التربوية والتعليمية المبكرة. كما توجد هناك برامج تقوم بتقديم خدمتين أو ثلاث خدمات معا. وتطلق أسماء مختلفة على هذه البرامج؛ منها: "نهضة المجتمع" أو "التربية والتعليم المساند المقدم للأبوين"، أو "رعاية الطفل وتعليمه المبكر" أو "البرامج الموضوعة للمؤسسات التي تقدم تعليما مبكرا للطفل قبل مرحلة الدراسة في المدرسة".

البرامـج الموضوعة في هذه المؤسسـات المركزية تقدم خدماتها للأطفال في إطار مؤسسة. ونظرًا لقيام هذه المؤسسات بدفـع رواتب عاليـة للمربيـن المحترفيـن، وتوفيـر ألعـاب غاليـة للأطفـال وبرامـج مكْلِفـة ودفـع مصاريـف كبيـرة لإيجـار البنـاء وتدفئتـه وللضرائـب ولغيرها من المصاريف الأساسـية، فإن أجور هذه المؤسسـات تكون عالية بحيث لا تستطيـع العوائل الفقيرة الاستفادة من خدماتها. وفي الدول الضعيفة اقتصاديا يكون عدد مثل هذه المؤسسات قليلا، وهي تقـدم خدماتهـا إلـى العوائـل التـي تكـون إيراداتهـا عاليـة أو أكثر من المتوسـط، وتُحـرَم منهـا الطبقـة التي من المفـروض أن تقدم لها هذه الخدمات أوّلا. وبعض هذه المؤسسـات تقتصر على تقديم خدمات محددة فقط، كالعناية بأطفال العاملين في مؤسسات معينة.

دور الدولة في تطوير التعليم المبكر

ولكي تنتشـر خدمات التربية والتعليم للأطفال قبل سـن المدرسة يجـب علـى الدولـة ألا تعد هذه المؤسسـات مؤسسـات تجارية، فلا تأخـذَ منهـا الضرائـب، بل ربما عليها مسـاعدتها ماليا، لكي تسـتطيـع هـذه المؤسسـات -التـي تضطلـع بـأداء وظيفـة مهمـة جـدًّا- تقديـم خدماتها بأسعار منخفضة وللطبقات الفقيرة ذات الدخول المحدودة. وفي السنوات الأخيرة بدأت بعض المدارس الابتدائية بفتح مدارس حضانـة فـي سـن السادسـة داخـل المدرسـة، وعـادةً مـا تكـون أجور خدماتها أرخص من تلك المؤسسات الخاصة. ولكن هذه المدارس عندمـا أهملـت الأطفـال في سـن ٣-٥ تكون قد أبقت هذه المشـكلة

دون حل. كما أن وجود أطفال بعمر ست سنوات تحت نفس السقف مع صبيان بعمر ١٣-١٤ سنة وتَلَقِّي التعليم نفسه واشتراكهم معهم في ساحة اللعب نفسها أو الحديقة نفسها لا يكون شيئًا صحيحًا.

إن نسبة الاستفادة من برامج الرعاية والتعليم المبكر في تركيا اعتبارا من سنة ٢٠٠٠م حتى الآن هي ٩,٨٪ فقط. بينما تبلغ هذه النسبة في أوروبا ٦٧,٨٪ وفي الولايات المتحدة الأمريكية ٦٢,٧٪، وفي الدول النامية ٢٠٪ تقريبًا.

ويجب أن تكون من أهداف الدولة القيام بنشر وتوسيع التعليم قبل المرحلة الدراسية، وتقليل الفروق بين المؤسسات التي تعطي هذا النوع من التعليم، ووضع معيار معين في هذا الصدد، وتهيئة برامج تعليمية مقروءة ومرئية ومسموعة. غير أن النشاطات المبذولة في هذا الصدد ليست كافية.

من جهة أخرى بدأت بعض دور النشر وبعض الشركات بتهيئة منشورات وأفلام وبرامج حول التعليم قبل المرحلة الدراسية. والآن توجد في الأسواق حكايات مشوقة للأطفال حول البطولات والتضحيات والحب دون مقابل، وحول الاستقامة وحب الطبيعة وحب الله ورسوله. ومع أن أعداد هذه الكتب ليست كبيرة إلا أنها موجودة وأعدادها ومستوياتها في ارتفاع مستمر. وتقوم القصص المصورة وبرامج الأقراص المدمجة المقروءة والمرئية بلعب دور إيجابي في تطوير الناحية الاجتماعية والذهنية للطفل، إلا أن على الأبوين القيام بمعاونة الأطفال في استعمال هذه البرامج. فالأطفال

يقومون بطرح أسئلة عديدة وهم يشاهدون هذه البرامج أو يقرؤون هذه القصص، وعليهما الإجابة على هذه الأسئلة بشكل صحيح ودون ضجر أو ملل. فهذه الأجوبة ستطور ذهن الطفل وفكره وروحه. فإن لم يخصصا وقتا خاصا للطفل، لم يستطع الاستفادةَ الكاملة منها. ولكن المؤسسات المختصة بتربية الطفل تستطيع الاستفادة من هذه البرامج بشكل أفضل ضمن خطة معينة تُعِين الطفل على الاستفادة الكاملة منها.

نتائج التعليم قبل المرحلة الدراسية

إن وضع معايير معينة لتقييم نتائج التعليم قبل المرحلة الدراسية يعد مشكلة مهمة. ومع هذا فقد استعملت معايير عديدة في هذا الصدد؛ منها مدى نجاح الطفل في المرحلة الدراسية فيما بعد، وكذلك مدى نجاحه في الحصول على عمل أو مدى بعده عن ارتكاب المخالفات القانونية. فقد أجريت مثلًا في الولايات المتحدة الأمريكية تجارب على آلاف الأطفال الذين مروا من مثل هذه البرامج. وأثبتت هذه التجارب أن الأطفال الذين تلقوا هذا التعليم واشتركوا في هذه البرامج، كانوا أسرع تكيفا مع المدرسة وأكثر نجاحا في المرحلة الأخيرة للدراسة الثانوية. بالإضافة إلى أن تكيفهم الاجتماعي كان أفضل، ونسبة حصولهم على العمل بعد التخرج أكبر، ونسبة اقترافهم الجرائم أقل. كما أن دوافع الحصول على نجاح أكبر وعلى وظائف رفيعة في مهنهم أكسبتهم شخصية مستقرة وأكثر إيجابية، أي حصلوا على مكاسب نفسية أيضا. وقد تم عزو

كل هـذه النتائـج الإيجابيـة إلى آثار هذه البرامـج في تطوير قابلياتهم فـي التعلـم وإلـى عوامل عديدة أخـرى، مثل عوامل المعلـم والعائلة والبيئـة والتفاعـلات المتقابلـة لهـذه العوامـل. ولوحـظ أن الأطفـال الذيـن تلقـوا هـذه البرامج التعليمية المسـاندة قبل المرحلة الدراسـية تطـورت لديهـم منـذ البدايـة، الرغبةُ فـي التعلم، ونمـت قابلياتهم في هذا الصدد بسـرعة، إلى جانب زيادة اقترابهم من معلميهم، وقيامهم بـأداء واجباتهـم المنـزلية برغبـة ودقة أكبر. كما نمـت عندهم القابلية للعمل الاجتماعي.

إننا لا نملك معلومات ولا تقييمات حول مدى تأثير هذه البرامج التعليمية قبل المرحلة الدراسية على توجيهِ وتشكيلِ المشاعر الإنسانية والمعنويـة لـدى الطفـل كالاسـتقامة والتضحيـة وحـب الخيـر وحـب المساعدة والوفاء. ولكن هناك اعتقاد سائد بأن هذه المرحلة القصيرة هي أكثر المراحل قابلية، على التأثير وعلى تشكيل شخصية الطفل.

وفي السويد -التي تعد من أفضل الدول التي تعطي للأطفال هذا التعليـم المبكـر وفـي أرقـى مسـتوى- ظهر أنـه كلما قُدمـت خدمات هـذا التعليم بشـكل مبكـر للأطفال، كانـت النتائج إيجابيـة، وإيجابيةُ النتائج تتناسـب طرديا مـع مدى جودة مسـتوى المؤسسـة التي تقوم بهذه الخدمة.

التعليم المبكر وآثاره الاجتماعية

لكل مجتمـع غايةٌ مختلفة في تنشئة الأطفال؛ فاليهود -مثلا- لكي يديمـوا وجودهم فـي مجتمعاتهم وفي العالم، اهتمـوا بتنمية مواهب

الاقتحام -ولاسيما في عالم التجارة والمشاريع- واللينِ وتحقيق التفوق في العلاقات الإنسانية، لذا يسعون إلى تنشئة أطفالهم بهذه المواصفات. أما الذين يعيشون في القرى والأرياف فيحاولون تنشئة أطفالهم بحيث يتكيفون بسرعة مع الظروف الطبيعية. أما الأقوام المحاربة فترى في خصال الشجاعة والتضحية والارتباط بالوطن أهم الخصائص والقيم التي يجب أن ينشأ عليها الأطفال.

أما في تركيا فإن أهم الأولويات الخلقية الاجتماعية التي تهتم بها العائلات في تربية الأطفال هي إطاعة الوالدين والاتزان والوقار وإظهار المحبة للآخرين وسهولة التفاهم معهم. وبعد هذه الصفات وبجانبها تهتم العائلات بأوصاف أخرى كتنمية القابلية الفكرية والذهنية، والارتباط بالقيم الخلقية الوطنية والثقافية، وحرية التفكير وسهولة التعبير عن الرأي والشعور بالمسؤولية.

وهناك عائلات تهتم في مرحلة ما قبل المدرسة بتطوير الناحية التعليمية في الطفل، كسرعة تعلمه الأعداد وتمييزه للألوان، وسرعة تعلمه لبعض المصطلحات والأسماء. والحقيقة أن هذا مجرد جزء من التوجه الإنساني عند الفرد. بينما يجب تناول قضية تربية الطفل وتعليمه بشكل كلي وشامل. إن الاقتصار على إعطاء الأهمية لتنمية ذكاء الطفل سيؤدي إلى تناسي الآثار الإيجابية للأمور الضرورية الأخرى؛ مثلا إن نقص ثقة الطفل بنفسه قد يفتح الطريق إلى نقص في الدوافع للتقدم في الناحية الثقافية، مما يؤدي في المطاف الأخير إلى تقليل درجة الذكاء وإلى هبوط في النجاح المدرسي وإلى فشل

في مستقبل حياته. لذا يجب ألا يُجبر الطفل في هذا السن على حفظ أشياء معينة، وألا يوضع في مقارنة أو مباراة مع غيره.

تطوير الثقة بالنفس لدى الطفل

لكي يطور الطفل ثقته بنفسه ويتعود على المبادرة والتصرف بشكل مستقل، على أقرب محيط اجتماعي إليه -ولاسيما أمه- مساندته ومساعدته في هذا الأمر. فإن كان الطفل يتلقى التعليم في مؤسسة تعطي التعليم المبكر، يجب إعطاء هذه المساندة والمعاونة للطفل من قِبَل هذه المؤسسة بالتعاون مع عائلته. فإن لم يكن في استطاعته الاستفادة من مثل هذه المؤسسة التعليمية، فيمكن إعطاء الأمهات البرامج التعليمية المبكرة لأطفالهن. ولكن لا يوجد في بلادنا مثل هذا التطبيق. أما المتوفر حاليا فهو اشتراك الأمهات في الندوات والاستماع إلى محاضرات تتناول هذا الأمر، أو مشاهدة البرامج التلفزيونية أو الاستماع إلى برامج في الإذاعة تتناول هذه الناحية، وتعطى -بمقياس معين- الإرشادات للأمهات حول كيفية التصرف مع أطفالهن. ولكن لا يمكن عد هذا الأمر برنامجا من برامج التعليم.

بعد أن يبلغ الطفل السنة الثالثة من عمره يشعر بحاجة إلى تجربة أشياء جديدة. لذا يحتاج إلى اللعب مع أطفال في سنه أو أكبر من سنه. فعندما يبلغ الطفل هذا العمر، يكون الأساس البيولوجي له قد تكامل عنده للّعب مع أقرانه وتحمّل خيبة الأمل عندما يردّه أحدهم أو يرفض اللعب معه. كما أنه يصل في هذه المرحلة العمرية

إلى تحمل الأثر النفسي عند البعد عن منزله لفترة. وفي المؤسسات التعليمية التي تنظم كل شيء حسب حاجة الأطفال يجد بسهولة من يلعب معه، لأن المؤسسة تيسر وتنظم هذا الأمر. وفي أثناء اللعب مع أقرانه يستطيع أن يقيس مقدرته وما يستطيع فعله وإنجازه، ويكتسب عادةَ البقاءِ لمدة طويلة مع غيره والانشغال معهم في اللعب. وعندما يلعب مع غيره سيدرك أهمية قواعد اللعب، ويشعر بمدى ضرورة التعاون والتساند مع الآخرين.

وعندما يرى أنه لا يستطيع في كل مرة أخْذ اللعبة التي تبدو جذابة له، يتعلم الصبر والتحمل. وعندما يقوم بصيانة حقوقه يتعلم ضرورة صيانة حقوق الآخرين ويتعلم مبدأ المشاركة. كما يتعلم من مراقبة أصدقائه، كيف يأكل وحده وكيف ينجز عمله بنفسه، ويكتسب هذه العادات. وهكذا ينجح الطفل في التصرف بشكل مستقل وهو في بيئة لها قواعد اجتماعية، وتزداد قابليته في التعبير عن نفسه، ويثرى مخزونه من الكلمات.

وتنجح هذه المؤسسات التعليمية في جعل الأطفال الخجولين أطفالا واثقين من أنفسهم وفعالين. ومن جهة أخرى يتحول الأطفال المدللون كثيرا والوقحون، إلى أطفال أقل أنانية وأكثر رغبة في المشاركة، أي أكثر اجتماعيا.

النتيجة

تقوم الأمهات العاملات بإيداع أطفالهن في ساعات عملهن إلى آخرين للعناية بهم. والمهم هنا ليس رعايتهم فقط، بل تعليمهم

وتربيتهم. لذا فإنه بدلا من إيداع الطفل عند عائلة، يكون من الأفضل -من ناحية تطوير قابلياته من جميع النواحي- إيداعه في مؤسسة تعليمية ذات مستوى جيد يمكن الوثوق بها. وحتى الأمهات غير العاملات في حاجة إلى مثل هذه المؤسسات. وليس من الصحيح قيام المجتمع بتأنيب هذه الأم على أساس أنها لا تستطيع العناية بطفل واحد، وأنها لا تشعر بالمسؤولية تجاهه ولا تقوم بنفسها بتربيته وتعليمه بل تدع هذا الأمر إلى مؤسسة. مثل هذا اللوم غير صحيح ولا معنى له. لأن الطفل عندما يلعب مع أقرانه ضمن نظام معين وضمن حرية بمقياس معين وضمن حب، تتطور قابلياته. والمهم هنا ليس البقاء بجانب الطفل طوال اليوم، بل حصر الاهتمام والعناية به ولو لمدة عشرين دقيقة، وإظهار الحب له وتلبية حاجاته. ومثل هذه المدة الزمنية -التي يجب تخصيصها له لإبداء وإظهار شوقك ومحبتك له- متوفرة لديك دون شك.

الرابطة بين الأم وطفلها(*)

الانتباه هو قدرة التوجه نحو حادثة أو أمر، ثم تركيز الطاقة الذهنية حوله. وإن توجيه أذهاننا إلى شيء أو إلى حادثة وتركيز انتباهنا عليه يساعد على تنظيم العديد من الفعاليات الحيوية، وهو وظيفة من وظائف أدمغتنا. إن الانتباه هو تكثيف لطاقتنا الذهنية، وهو يساعدنا على فهم الأمور وإدراكها. وبتعبير آخر فإن الطاقة الذهنية لشخص مّا تتمركز وتتكثف على البؤرة التي جلبت انتباهه. والإنسان إنما يتعلم الأمور والحوادث التي يركز طاقته الذهنية عليها ويستطيع التفكير فيها. واللحاء الجبهي *(Frontal Cortex)* الموجود في القسم الأمامي من الدماغ يقوم بدور فعال في عملية الانتباه. وقابلية الانتباه تعد من النعم المهمة المهداة لنا والتي نحتاج إليها في كل أمر من أمور معاشنا وحياتنا. ومهما اختلفت مهننا أو أعمارنا فالانتباه ضروري للجميع.

في المرحلة الجنينية فإن سماع الجنين للأصوات الآتية إليه من الخارج نتيجة لنعمة السمع ونعمة الانتباه. ومع الولادة وبتوجيه الانتباه نحو العالم الخارجي تتطور هذه القابلية الفطرية. وبواسطة الحواس الخمس يستطيع الإنسان بشكل إرادي أو آلي تكثيف انتباهه نحو شيء أو أمر من الأمور.

(*) **حسن أيدنلي** [كاتب وباحث تركي. الترجمة عن التركية: أورخان محمد علي]

والانتباه ضروري في تنظيم الحياة اليومية وتحقيق التعلم وتنظيم العلاقات بين الأفراد وأداء المهام والمسؤوليات وتعقب القراءة والاستماع وفهم التعليمات والتركيز على التفاصيل.

الانتباه في الحياة اليومية

لنفرض هنيهة بأن مدة تركيزنا وانتباهنا أصبحت قصيرة. في هذه الحالة لا نستطيع أن نكون مثمرين ومنتجين في العديد من الساحات في حياتنا اليومية، وبالأخص عندما نقرأ أو نكتب أو نستمع أو نعمل. ويصعُب علينا آنذاك أداء وظائفنا بشكل وافٍ وكامل؛ فلا نستطيع متابعة كلام شخص نستمع إليه على الرغم من تركيز انتباهنا على كلامه. وعندما نشكو من ضعف الانتباه نقع في أخطاء بسيطة ونعجز عن رؤية التفاصيل. وقد لا نرى المانع الموجود أمامنا فنتعثر، وقد نسقط على الأرض، ونجد صعوبة في الذهاب إلى المدرسة أو في القراءة أو في أداء وظائفنا الروتينية.

وما نطلق عليه تعبير "تكثيف الانتباه" أو "التركيز" فهو قابليتنا في تعميق انتباهنا. وهو مهم وضروري في تأملنا للأشياء وللحوادث وإدراكنا أيّ موضوع وفي تفكرنا بكتاب الكون وقراءتنا له بشكل أفضل، كما يغنينا عن تلقي التحذيرات والتنبيهات. والقرآن الكريم يدعو الإنسان بشكل متكرر إلى التفكر والتأمل، تأمُّلِ هذا التناغم المدهش في الكون وتأمل تجليات أسماء الله الحسنى فيه. فتركيز الفكر والتأمل يلعب دورًا مهمًا في تكامل الإيمان.

لو كنا نسمع جميع الأصوات وننتبه لها لسمعنا أو رأينا أشياء مزعجة كثيرة. فمحدودية السماع وعدم سماعنا الأصوات خارج هذه الحدود وسيلة مهمة لراحة الإنسان، كما أن عدم تشتت انتباهنا في كل صوت نسمعه من النعم الكبيرة المهداة لنا. ولولا هذا لكان أقلُّ صوت نسمعه أثناء العمل كافيًا لتشتيت انتباهنا وقطع تركيزنا عن عملنا. وكذلك الأمر بالنسبة للرؤية. فلو كنا نبصر كل جسم يقع في ساحة رؤيتنا عندما نعمل لتشتت انتباهنا وقلت إنتاجية عملنا. إذن فمن النعم الكبيرة المهداة لنا أن انتباهنا لا يتشتت نتيجة كل التنبيهات الواردة إلينا من الخارج.

إن تركيز انتباهنا بشكل كافٍ يساعدنا على فهم أفضل وعلى اتخاذ قرار أحسن وفي زيادة إنتاجنا في حياتنا اليومية. إن خزن ما يقال لنا في الذاكرة وفهم الموضوع الذي نعمل عليه فهمًا جيدًا وتذكرنا له فيما بعد متعلق بمدى تركيز انتباهنا آنذاك على ذلك الموضوع. وفي لحظات تعرضنا لأي خطر لا نرى ولا نسمع أي شيء خارج أنفسنا وخارج الخطر الذي تعرضنا له، وهذا يشير إلى أن الإنسان يستطيع التركيز على شيء إن أراد ذلك.

يعرض عارض يشتت الانتباه عند كل إنسان بدرجة ما، ويشكل الانتباه عند التعرض للخطر أمرًا في غاية الأهمية. وعندما ننظر إلى الحوادث التي يتعرض لها الإنسان في حياته اليومية نرى أن بعضها حوادث طفيفة وبعضها حوادث خطيرة قد تودي بحياته. وتقع معظم هذه الحوادث نتيجة عدم الانتباه. ويتعرض الأشخاص الذين يشْكون من السهو ومن قلة الانتباه إلى حوادث أكثر في حياتهم

اليومية؛ فكثيرًا ما نسمع: "لم أكن منتبهًا، لم ألاحظ ذلك الشيء". ويجب ألا ننسى أن العديد من الأطفال يتعرضون لمشاكل كثيرة وحوادث خطرة ومشاكل صحية، وحوادث تنتهي بالموت نتيجة عدم الانتباه.

عوامل إفساد الانتباه

هناك أمراض بيولوجية ونفسية وعوامل تفسد الانتباه وتشتته. من أهمها عارض "النشاط المفرط". والأشخاص الذين يعانون من هذا المرض ومن عدم التركيز نرى أن المدة التي تتطلبها المواضيع التي تُعرض لهم -والتي تستلزم انتباهًا وتركيزًا ذهنيًا- تكون قصيرة جدًّا. كما أن حالات التوتر والكآبة والقلق والإجهاد تؤدي إلى نقص في التركيز. والأشخاص الذين يعانون من هذه الحالات يصعب عليهم فهم ما يقرؤون وإن أعادوا القراءة عدة مرات مع أنهم كانوا يستطيعون فهمه سابقًا بقراءة واحدة. وهؤلاء لا يستطيعون إنجاز المهام التي تتطلب تركيزًا لمدة كبيرة.

وتظهر حالات عدم التركيز في الأشخاص الذين يعانون من أمراض عصبية كالخرف والصرع. كما أن هناك أدوية لها تأثيرات جانبية سلبية تؤدي إلى عدم التركيز.

وفي حالة قلة المحفزات وعدم وضوح الأهداف أو قيام شخص بمهمة تفوق طاقته أو بمهمة دون قابلياته أو عند زيادة الانفعال أو القلق... في مثل هذه الحالات تظهر مشاكل الانتباه. وعندما تتلقى حاسة البصر أو حاسة السمع تنبيهات كثيرة جدًّا يظهر عند

الإنسان مشاكل في منظومة الانتباه وفي مدة الاستيعاب والفهم. وتظهر هذه الحالة كثيرًا لدى الأطفال الذين يقضون مدة طويلة أمام التلفزيون أو أمام جهاز الحاسوب. ففي أثناء هذه المدة تنخفض قابلية انتباههم من ناحية السمع والبصر. والتنبيهات التي يتلقونها تفوق سعة أذهانهم، لذا تظهر هنا مشاكل عدم التركيز. فعلينا الحذر من كل ما يبعث تنبيهات كثيرة لكي نتجنب قلة التركيز وما تنتجه من مشاكل ومحاذير.

وصايا للحفاظ على الانتباه

وتلعب قابلية الانتباه دورًا أساسيًّا في تحقيق القيام بمهمة التنظيم والتصنيف والتخطيط. ويجب تأمين هذه الخواص والصفات عند الدراسة والبحث وعند تنفيذ التعليمات. فإن جُوبه أحد بالفشل في هذه الساحات فعليه البحث عما إذا كانت عوامل الانتباه عنده طبيعية أم لا.

والانتباه يشكل أهم عامل في نجاح الطلاب، حيث يلعب عامل الانتباه للدرس ومداه وقوته عند أي طالب، أو مدى تشتت انتباهه دورا أساسيا في موضوع نجاحه أو فشله. فالطالب الذي لا ينتبه إلى أستاذه في الصف والذي يتشتت انتباهه على فترات متقاربة يُلاحظ انخفاض في نجاحه. ومهما بدا الطالب في الظاهر منتبها لأستاذه في الدرس فإن من المهم مدى انتباهه فعلًا وحقيقة.

يمكن برعاية الوصايا أدناه رفع درجة الانتباه، فهي تساعد كل شخص على تركيز الانتباه، وتزداد بالتالي القدرة الذهنية له:

- تأمين الاطمئنان النفسي والروحي.
- تناول الفيتامينات بشكل متوازن.
- تأمين مكان مريح وملائم للتكيف معه.
- مطالعة الكتب بشكل كاف.
- القيام بتمارين ذهنية لتقوية الذاكرة، منها تمارين الحفظ عن ظهر قلب.
- محاولة تطويل فترة الانتباه منذ مرحلة الطفولة. ويتم هذا بالاهتمام بتنظيم فعاليات التعليم واللعب والراحة حسب عمر الطفل.
- الابتعاد عن التعرض للتوتر والإرهاق.
- الابتعاد عن الأجواء المريحة جدًّا التي تبعث على الكسل والتي تقلل الحوافز.
- الابتعاد قدر الإمكان عن الملوثات (دخان السجاير، الهواء الملوث، منتجات النفط، المواد الحافظة للأغذية...)
- الابتعاد عن الضوضاء في أوساط العمل.
- تقليل التعرض للتلوث في ساحة العمل.
- الابتعاد عن التعرض للمنبهات الصوتية والبصرية واللونية القوية، أو التقليل منها.
- عدم الإفراط في الأكل.

قد لا تكون هذه الوصايا كافية عندما يكون تشتت الانتباه في مستوى عالٍ. لذا يستطيع المبتلَون بهذا مراجعة الأطباء أو ممارسة أنواع من التدريب والمران في هذا المجال.

والنتيجة التي نخلص إليها هي أن على الإنسان ألا يبذر نعمة التركيز والانتباه الموهوبة له في أمور لا تعود عليه بالفائدة في عمره الذي يعيشه مرة واحدة، ولا يجعلها هباءً منثورًا. فهذه القابلية ضرورية له في سعادته في الدنيا وفي الآخرة. ولكي نستغل قابلياتنا وطاقاتنا كما يجب فعلينا الحرص والحفاظ على ما عندنا من قابلية التركيز والانتباه.

تربية الولد أم تربية الوالدين(*)

هل يغتاظ ولدكم منكم ويتحداكم باستمرار؟ هل يأبى أن يخبركم أين يغدو ويروح؟ هل يبدي سلوكًا متمردًا أو معاندًا ليعلن عن عدم اضطراره للقيام بأي عمل في المنزل، ثم يلزمكم برعايته والاهتمام به لأنكم أنجبتموه دونما سؤاله؟ هل تتصادم معتقداتكم وقيمكم بمعتقداته وقيمه؟ هل يتّهمكم بعجزكم عن تلبية رغباته ومطالبه؟.. لعل القليل جدًّا من الآباء والأمهات سيجيب على هذه الأسئلة بـ"لا"، لأن المطالب والرغبات لدى كل ولد تختلف عن الآخر، وبالتالي قد يكون الولد يعاني من مشاكل في المشاعر والسلوك، لأنه لا يقدر -على سبيل المثال- أن يتفاهم مع صديقه أو أخيه أو أنه يريد دائمًا شراء الأمتعة والملابس الجديدة أو أنه يملّ من المدرسة والواجبات المدرسية.. ولعله يصاحب أشخاصًا دون الأخذ برأيكم وتأييدكم، وربما ينزعج من تدخلاتكم في ميعاد نومه، وساعات استيقاظه، وأوقات مأكله ومشربه، وترتيب غرفته.. وربما لا يريدكم أن تدلوا بآرائكم في كيفية قضائه عطلة نهاية الأسبوع وأوقات الفراغ.

(*) **هارون أوجي** [الترجمة عن التركية: د. أماني عدلي علي]

فماذا تفعلونه أنتم في مواجهة هذه التصرفات؟ هل تفرضون على ولدكم الالتزام بأوامركم والانقياد لها ظنًّا أنها لمصلحته؟ هل تحذرونه بالتخويف والترهيب؟ أم تسعون إلى ضبط تصرفاته بإلقاء الدروس والمواعظ الخلقية وتقديم البدائل والحلول؟ أم تتبعون أسلوب المحاكمة والعتاب أو الذم والزجر وتعلنون عن عدم رضاكم عن السلوك والحركات التي يبديها؟ أم تسخرون منه وتستهزئون به وتلقّبونه بألقاب ليخجل ويكفّ؟ أم تقومون بالمدح المفرط والتشجيع الزائد له، والوقوف إلى جانبه ومؤازرته في كل حركاته وتصرفاته؟ أم تحللون أقواله وأفعاله وأفكاره، وتقوّمونها أمامه وجهًا لوجه؟ أم تجدون صعوبة في الإجابة على أسئلته وتهربون منها أو تضعون لها حدودًا؟..

كيف نتواصل؟

ولعل من الطبيعي أن يجيب الآباء على بعض هذه الأسئلة بـ"نعم". بيد أن هذه الأحوال تعيق التواصل بين الأبوين وولدهم. كما أن توجيه الأوامر من أجل الحصول على طاعته، يؤثر سلبيًّا على نموه ويؤدي إلى إحساسه بعدم احترام شخصيته واحتياجاته ومشاعره، وهذا يخلق عنده نوعًا من الغضب والتحدي وإبداء التصرف العدائي. وكذلك التخويف أو كثرة الأوامر والنواهي تجعل شخصية الولد انطوائية غير واثقة بنفسها، ونتيجة لذلك يتجه الولد ليس إلى التفكير الحر، وإنما إلى أن يظل متعلقًا بوالديه، سلبيًّا خجولا شاعرًا بالدونية. فالأولاد لا يحبون سماع المواعظ ولا مواجهتهم

بالأخطاء، لأن ذلك التصرف يجرح كرامتهم ويدفعهم إلى الشعور بعدم القدرة والكفاءة، وبالتالي الميل إلى العزلة أو الشعور بالدونية والوحدة النفسية. إن الانتقادات الموجهة إلى الأولاد تفقدهم الثقة بأنفسهم وتشعرهم بأنهم غير محبوبين.

ثم إن إلصاق الألقاب الجارحة لمشاعر الأولاد، والاستهزاء بهم وإحراجهم تخدش مشاعرهم وتؤثر على شخصيتهم تأثيرًا سلبيًّا وتجعلهم يقومون بعكس ما يقال لهم ليُظهروا أنفسهم أنهم على حق. كما تُثير المماطلة وتغيير المواضيع والهروبُ منها، الظن بأننا لا نهتم بهم ولا نحترمهم وإنما نرفضهم.

التوازن في المدح والذم

إن المدح المفرط له تأثير سلبي على الأولاد كما ذكرنا، وإن الأولاد الذين اعتادوا على المدح باستمرار، يشعرون بعدم القبول أو الذنب عند العدول عن هذا المدح، كما أن من الأولاد من يخجلون أو لا يحبون أن يُمدحوا أمام زملائهم ورفاقهم.

إذن ماذا نفعل نحن الآباء والأمهات؟ كيف نعقد صلة وثيقة بيننا وبين أولادنا؟ كيف نؤثر فيهم؟ لقد قيلت أشياء متباينة كثيرة حول هذا الموضوع، لكن المسألة في هذا الصدد ترتكز على دعامتين أساسيتين؛ أولهما: "الإنصات الفعال" ومن ثم مساعدة الولد على الانفتاح، وإتاحة فرصة التعبير عن مشاعره، ومحاولة فهم العوامل الأساسية التي تؤثر على أقواله وأفعاله، ومساعدته على إيجاد الحلول بنفسه؛ وثانيتهما: كيفية التحدث معه ومعرفة توصيل الأفكار

والرغبات إليه، والتصرف تبعًا لذلك. أما هذا فيعتمد على استخدام "رسالة أنا" بدلًا من "رسالة أنت".

الإنصات الفعال

وقد يساعد "الإنصات الفعال" و"رسالة أنا"، على إقامة الصلة الوطيدة بين الوالدين والولد، حيث يفهم الطرفان مشاعر بعضهما البعض. كما يكتسب الولد عبر هذين العاملين قيمًا فاضلة مثالية؛ كالصدق والكرم والبر.. ويصبح مستعدًا لتقبّل معتقدات أبويه بسهولة، إذ يُعتبر غرس هذه القيم والفضائل من أعظم المهمات والحقوق التي حملها الأبوان على عاتقهما. ولابد من أن ننوه إلى أن الولد يكتسب المعلومات عن قيمه ومعتقداته عن طريق مراقبة سلوك الكبار أو عن طريق الحوار المباشر معه أو أثناء حديثه مع زملائه في المدرسة أو مع غيرهم في البيئة التي يعيش فيها. لكن الأهم من ذلك كله، أن يكون الوالدان أسوة حسنة يتأسى بهما الولد مدى الحياة. فإذا كنا نحن الآباء نتحلى بحسن الخلق وصدق الحديث، وإذا اعتنقنا معتقداتنا الدينية بحق فلابد أن ينتهج الطفل نفس منهجنا. أما إذا تناقضت أقوال الكبار وأفعالهم، فلا يمكن للولد أو المراهق أن ينال منهم شيئًا يغذي به جانبه القيمي والعقائدي، لذلك لا مناص من تحويل الأقوال إلى أفعال ومنها إلى سلوك حتى يتحقق المقصد.

الإنصات مهم للغاية، لأنه يساعد الولد على التعبير عن مشاعره وعن مشاكله، ثم إن الإنصات الهادئ يبعده عن التوتر والانفعال،

ويشعره بالاهتمام به وفهم ما يقوله. فكلما تحدث الولد ووجد قبولا واهتماما ضعفت المقاومة السلبية لديه وقل عناده. إن الولد يلجأ دائمًا إلى أبويه ويشركهما في مشاعره وأحاسيسه كلما احتاج إلى شيء أو أراد غرضًا أو سئم وضجر من أمر ما. وإن عدم إظهار الاهتمام لما يقوله الولد وعدم تلبية مطالبه قد يؤدي إلى عواقب أسوأ من رفض الإنصات إليه، حيث تسوء العلاقات بينهما تدريجيًّا وتصل إلى درجة الانفصال في نهاية المطاف. وبالمقابل إن الوالدين اللذين يستخدمان طريقة الإنصات الفعّال ويحاولان فهم مشاعر الولد وما تعنيه رسالته، ثم يعيدان ما تلقوه منه بألفاظهما الخاصة بهما إلى الولد يلقون تجاوبًا إيجابيًّا منه.

هنا لا يقوم المنصت (الوالدان) بنقل ما قاله السائل (الولد) وتقويم رأيه ولا يضيف شيئًا ولا سؤالًا من عنده، إنما يردّ فقط ما فهمه من رسالة المرسِل، ويحتفظ بمشاعره وأفكاره وتعليقاته الخاصة به. فعلى سبيل المثال، عندما يقول الولد عند وجبة العشاء: "لا أريد أن أتناول الطعام هذا المساء"، يسعى الوالدان إلى إقناعه بطريقة لينة ناعمة ويقولان له: "هيا تعال بسرعة، ينبغي أن تتناول ثلاث وجبات في اليوم الواحد، انظر، طبخْنا لك الأكلة التي تحبها". وإذا ما اتخذ الولد موقفًا أمام هذا الكلام وقال: "أكلتُ كثيرًا أثناء الغداء، ولا أريد أن أتناول شيئًا"، عندها يبدأ الآباء بإلقاء الأوامر الحادة إذ يقولون: "هيا تعال فورًا لا نريد أي اعتراض"، بينما يبدي الولد تصرفًا عنايا ويقول: "لستُ جائعًا، ولن آتي إلى الطاولة". في هذه الحالة لن يستطيع الوالدان أبدًا معرفة مشكلة ولدهم.

أما إذا تم استخدام أسلوب الإنصات الفعّال بدلًا من هذا التصرف عند قوله: "لا أريد أن أتعشى" وقيل له: "لا تريد أن تتناول العشاء هذا المساء إذن"، فسيرد الولد بـ"نعم، أشعر وكأن معدتي مملوءة"، وفي حال اتباع المنصِت أسلوب الإنصات الفعّال واستطراده بـ"أرى أنك متوتر اليوم" يجيب الولد: "لستُ متوترًا، بل خائفًا جدًّا" ويبدأ في البوح بمشاعره. فبذلك يتمكّن المنصت من إدراك المشكلة وفتح قنوات الاتصال مع ولده من خلال الإنصات إليه.

ماذا يحقق الإنصات الفعّال؟

لا يمكن قمع المشاعر المؤلمة وإزالتها بالتفكير بالأشياء الأخرى، اللهم إلا إذا أعرب عنها بصراحة؛ حتى الكبار إذا ما عجزوا عن إيجاد حل لضيقهم وضجرهم يلجؤون إلى من ينصت إليهم ويروّحون عن أنفسهم بذلك. إذن الإنصات الفعال أكبر مساعد لكشف المشاعر ولمعرفة مصادر الضيق.

الإنصات الفعّال يحسّن الاتصال والعلاقة بين الولد والوالدين، ويسرّع نموّ المحبة لدى الولد تجاه والديه ويجعله يرتبط بهما -أو بالمنصِت- ارتباطًا شديدًا، كما ينشّط المشاعر المماثلة لدى الوالدين أيضًا. وهكذا يولد ودٌّ عميق واحترام متبادل بين الطرفين، لأن الإنصات الفعال يعني اهتمامًا بما يريد الولدُ التعبيرَ عنه، ويعني اهتمامًا إيجابيا بالرسائل الخفية للولد؛ في حين أنه طريق لتجاوز الحالات المتوترة بين الوالدين والأولاد، وكلما مورس الإنصات الفعال تحسنت العلاقات الأسرية وتقلصت الحالات المتشنجة.

كما أن الإنصات للولد يحسّن إنصات الولد للأبوين. يقول المتخصصون: إن الآباء والأمهات يشكون دائمًا من عدم استماع ولدهم إليهم.. وما هذا إلا انعكاس لسوء استماعهم لابنهم في الحقيقة. والجدير بالذكر أن الإنصات الفعّال يكسب الولد مهارة في معالجة المشاكل وتحليلها بنفسه، والتفكير بها، وإيجاد الحلول لها.

مفردات الإنصات الفعّال

إن مفتاح الإنصات الفعال يكمن في الرسائل غير اللفظية وفي الاتصال غير الشفوي الذي يرسله الأبوان لولدهما من خلال الابتسامة ولغة الجسم وملامح الوجه ونبرات الصوت. المعبرةِ عن الحنان والمحبة والود التي تنبعث بين الفينة والأخرى والتي تعبر عن الموافقة والتفهم لما يقوله الولد. إن أسلم طريق لامتصاص مقاومة الولد وعناده هي تخصيص وقت للإنصات الفعال له، فكلما تحدث الولد ووجد قبولا واهتماما ضعفت المقاومة السلبية لديه وبالتالي ازداد حبًّا وشغفًا بوالديه.

وعليه فإنه لا يستوجب كلُّ موقف أو كل علاقة بين الوالدين والولد الإنصات الفعّال، أو بعبارة أخرى قد لا يكون الوقت مناسبًا للإنصات الفعّال. ولكن أنسب وقت للإنصات الفعّال هو وقت عدم تحقق حاجة الولد أو رغبته، أي وقت يعاني الولد من مشكلة. فغالبًا ما يسعى الوالدان لحل مشاكل أولادهم بأنفسهم، إلا أن الصواب هو حث الولد على الاعتماد على نفسه وتشجيعُه على حل مشكاله بنفسه دون مساعدة الكبار.

وهكذا يُعدّ الإنصات الفعال خطوة ضرورية في التربية الإيجابية، ومرحلةً مهمة في حل مشاكل الولد وتفهّم مشاعره، كما يؤدي إلى تجاوب وتواصل وتفاعل إيجابي بين الأبوين وأولادهم.

"رسالة أنا" بدلًا من "رسالة أنت"

يطلِق الآباء والأمهات -بشكل عام- أمام مبادرة سلبية يبديها الولد رسالة "أنت" بعبارات "لا تفعل"، "إذا فعلتَ.."، "لماذا تذهب"، "اجتهد"، "عليك أن تكون أفضل".. يريد الأولاد بعد تفهم مشاعرهم أن يقوموا بتصرفات إيجابية وفق رغبات آبائهم. لابد أن ننوه هنا إلى أن جميع المشاكل لا تنشأ من قبل الأولاد فحسب، بل يمكن أن يكون الآباء أيضًا هم السبب في نشوب هذه المشاكل. إذ عندما يشعرون بالتعب أو الحزن والأرق والتوتر أو القلق، يسارعون إلى إظهار أحاسيسهم الحقيقية برموز صريحة واضحة مثل "أنا متعب"، "أريد الاسترخاء" وغيرها من التعابير التي تشير إلى "رسالة أنا".

ومنه فإن "رسالة أنت" تحرّض الولد على التمرد والعناد والتحدي، بينما "رسالة أنا" تؤدي إلى التجاوب والتواصل الإيجابي من الولد، كما أن بيان تأثرنا منه بصراحة، أكثر تأثيرًا من توضيح سلوكه السيئ، لأن تصرفنا هذا يبين مشاعرنا تجاهه ويترك له حرية الاختيار في السلوك، ثم يساعده في إدراك معنى المسؤولية ومعنى تحملها. ونظرًا لذلك فإن "رسالة أنا" ترمز إلى الصدق، وبالتالي تقود الولد إلى نقل مشاعره برسائل صريحة صادقة. وأما الفائدة العظمى من تلك الرسالة، فهي معرفة الولد أبويه بحق، ونمو العلاقة الحميمة

الصادقة بينهما والبوح بالمشاعر العميقة. ونتيجة لذلك يقوم الأولاد بالتعبير عن هذه العلاقة بقول: "أمي وأبي كالأصدقاء معي. إنهما طيبان جدًّا. لعلهما يخطئان ولكني أحبهما رغم ذلك"..

وأخيرًا، إذا كان الآباء والأمهات يحبون أولادهم بحق، ويريدون تربيتهم على المحبة والاحترام والمسؤولية والصدق، فإنهم مضطرون إلى تعلّم كافة السبل والمسالك التي تحقق لهم حياة فاضلة سعيدة كريمة، مليئة بالحب والأمن والسلام.. وإن كل ذلك بيد الآباء والأمهات وليس بيد سواهما..

كيف نبني شخصيتنا الفاعلة؟(*)

إن من أهم الحاجات الأساسية في حياة الإنسان أن توضع بعض الحدود لتصرفاته، وأن تُحترم هذه الحدود. وقد يتم التصريح عن هذه الحدود التي يجب احترامها في القوانين. إن هذه الأنظمة والقوانين تبيّن لنا الطرق التي نستطيع من خلالها منع نمو الأعشاب الضارة في حديقتنا. عندما يراعي الفرد هذه الحدود المكتوبة أو غير المكتوبة، المرئية أو غير المرئية، يتحول إلى إنسان ذي شخصية عالية مستقيمة. أما إذا قام هذا الإنسان بمخالفة هذه الأنظمة التي تحافظ على الحياة الاجتماعية ورفض تطبيقها، فإنه سوف يدمر نفسه بنفسه عاجلًا كان أم آجلًا.

إن أكبر عقبة أمام التحسين والإصلاح، هي ألا يتحمل الإنسان أية مسؤولية، وأن يعيب الآخرين دائمًا دون الالتفات إلى عيوب نفسه التي لا تعد ولا تحصى. وإذا نسي الناس صدق ضميرهم، سخر منهم ضميرهم ودفعهم إلى إيجاد الحجج والمبررات لكل أقوالهم وأفعالهم، حيث هناك رغبات جُبِلَت عليها فطرة الإنسان

(*) **سليم أيدن** [كاتب وباحث تركي. الترجمة عن التركية: محمد صواش]

تشكل الأساس لخرقه القواعد والقيم الأخلاقية. نعم، إن الطموح إلى النجاح والفوز والصدارة والارتقاء، والصعود إلى القمة، والشهرة والتباهي على الآخرين... تقود الإنسان إلى خرق القواعد والأنظمة. ولكن إذا استطاع هذا الإنسان تربية شخصيته وأعدها للتعامل الصحيح مع حوادث الحياة، عندها يمكنه كبح طموحاته هذه وتوجيهها ضمن الأطر المشروعة، ووفق المبادئ والقيم الأخلاقية السامية.

الصراع الذي يعيشه الإنسان في داخله تجاه تربية شخصيته، تجعله يغدو ويروح بين الالتزام والمعارضة للقيم الأخلاقية والقوانين، وبين رغبة امتلاك كل شيء ومقاسمته مع الآخرين، وبين الشعور بالخضوع للأنظمة الراهنة أو عصيانها. لكن يجب ألا ننسى أنه لا أحد يستطيع أن يُرغم الإنسان على القيام بشيء دون رغبته وإرادته، فإذا تم ذلك فهذا يعني أن ذلك الإنسان يعيش ضعفًا في الإرادة والشخصية.

هناك مقولتان تعدان موضوعًا مشتركًا بين اليونانيين القدماء والبابليين والسومريين، الأولى: "اعرف نفسك" والثانية: "كن معتدلًا في كل شيء". تشير هاتان المقولتان إلى مدى أهمية تربية الشخصية في جميع الثقافات. فإنهما لافتتان للنظر إلى حدٍ بعيد، خاصة من ناحية التأكيد على أهمية الوسطية والتوازن. هناك نقطة أخرى مشتركة بين الثقافات في تربية الشخصية وهي أن يعرف الإنسان عيوبه، وأن يتأمل مليًا في كيانه وذاته حتى يستطيع رؤية عالمه الداخلي وصفاء روحه وجوهره. إن معرفة الذات خصلة ضرورية ليس فقط من أجل

الحصول على شخصية قوية، بل من أجل معرفة خالق هذه الذات ومربيها. وكم أحسن القائل عندما قال: "اعرف نفسك، وليكن مرادك معرفة الله، ومَن عرف نفسه، فقد عرف الله".

تربية الشخصية

إن الطريق التي تُكسِب الإنسان شيمته وشخصيته، ليس فقط بالتركيز على الأخطاء والمساوئ والابتعاد عنها، إنما بالتركيز على الصواب والخير والسعي من أجلهما. إذن، لا يكون الإنسان ذا شخصية مثالية وأخلاق عالية برفضه للمساوئ فقط. فمثلًا، إذا أردنا أن نقيم حديقة جميلة فلا يكفي أن نزيل الأعشاب البرية عن تربتها، إنما يجب العمل على غرس الأزهار الجميلة ورعايتها أيضًا. فإزالة الأعشاب البرية ما هو إلا عمل يساعد على نمو الأزهار فقط، أما العناية بالأزهار ورعايتها فهو عمل مختلف تمامًا. السعي وراء الخير والفضيلة وغرسها في حياتنا حتى لا يبقى مكان للشر، أهم بكثير من الحيلولة دون الإضرار ورفض الشر قولًا. يوجد داخل كل إنسان حديقة تعكس شخصيته وعالمه الجواني، والأشياء التي تربّى في هذه الحديقة تكون مرآة لسلوك هذا الإنسان وتصرفاته. كما أننا إذا لم نغرس في حديقتنا الطبائعَ والعادات الحسنة وفق مزاجنا وروابطنا الخلُقية، فيستحيل أن نكون أناسًا صالحين. وإن كانت الروابط الخلُقية أو سماتنا المزاجية تشبه أنواع التربة المختلفة فإن سماتنا الشخصية تشبه الأزهار التي تنمو في تلك التربة. إذا فكر الناس مليًا وبذلوا قصارى جهدهم وطاقاتهم في زراعة الأزهار

ورعايتها، عندها سيزداد عدد الناس الذين يتحلون بالشخصية القوية المثالية.

ولابد في هذا الصدد -وبعد هذه الشروح النظرية القصيرة- أن ننتقل إلى هذه الأيام التي نعيش فيها، ونقول: إن نجاح الديمقراطية اليوم يرتبط بمدى امتلاك أفراد المجتمعات الشخصية الذاتية، وإن الديمقراطية التي تنسى أن الإنسان كائن أخلاقي والتي لا تبالي بتطوير الشخصية لدى الفرد، لا يمكن أبدًا أن تنجح وتصل إلى بر الأمان، لأن الديمقراطية هي نظام يتبناه الفضلاء والعقلاء الذين يملكون القدرة على حمايته والحفاظ عليه.

الإنسان الانتهازي أو الذي لا يفكر إلا بنفسه، يمكن أن يستغل قلب الآخر وروحه وبدنه دون أن يخالف القوانين والأنظمة، أي يمكن أن يمتثل الفرد للنظام، ولكن يمكن أيضًا أن يكون سيء الخلُق. فمن أهم شروط الكمال الأخلاقي أن يكون المرء ذا شخصية وضمير يستطيع من خلالهما رسم الحدود في المكان الذي يخلو من حدود مرسومة. ومن ثم فإن كل ما هو قانوني ليس بالضرورة أن يكون أخلاقيًا، لذلك نرى هناك فرقًا بين ما هو موافق للقانون وبين ما هو موافق للحق، ولا يمكن أن يسدّ هذه الفجوة إلا أصحاب الشخصيات العالية، فحيثما ينتهي القانون أو يبدي خللًا، يحلّ الإيمان مكانه وتتسارع القيم الأخلاقية التي تتغذى من الضمير بسد هذا الخلل.

الشخصية في تحقيق السلام

فلنتوج هذا بمثال من التاريخ، ففي بدايات عهد الدولة العثمانية، شغل "دورسون فقيه" قاضي مدينة بورصة، وظيفة تناسب مزاجه وطبيعته. وكان رئيس المخابرات يقدم للقاضي "دورسون فقيه" المعلومات حول الفتنة والفساد والأقاويل التي اندلعت بين الأهالي في تلك الفترة، وقد كان من ضمن المعلومات التي قدمها، المخططات التي وضعت لقتل القاضي "دورسون فقيه". ولكن دعونا نرى مدى أهمية تربية الشخصية في تحقيق السلام في الحياة الاجتماعية، وذلك من خلال تقديم مقطع من الحوار الذي دار بين عضو المخابرات وبين القاضي "دورسون فقيه":

عضو المخابرات: إن كل ما قلتُه، دليل على ظهور آلاف الأسهم المشدودة لرمي "دورسون فقيه" في قلبه.

دورسون فقيه: ما قلتَه صحيح، ولكنه صحيح من جانب العقل والمنطق. ولكنك لم تر بأم عينيك ما تتحدث عنه أليس كذلك؟ لم تسمع أيًّا منه بأذنيك. هل رأيتَ بعينيك، وهل سمعتَ بأذنك؟ هل رأيتَ زيدًا يقول هذا الكلام أو سمعته حتى توجه إليه التهم؟

عضو المخابرات: كلا! ما رأيتُ وما سمعتُ. لكن أظن وأعتقد وأعرف أنه كذلك.

دورسون فقيه: وهل يُحكَم على شيء بالاعتقاد والظن؟ فليس هذا بدليل.

عضو المخابرات: علمتُ الخبر من رجالي وأنا أثق بهم.

دورسون فقيه: يجب الاستماع إلى رجالك ورؤية أدلتهم.

عضو المخابرات: أنا لا يهمني الحكم، إنما دلني على ما ينبغي عليّ فعله.

دورسون فقيه: إن كان الطريق الذي سأدلك عليه يسوق بريئًا إلى الموت، فكيف أكفّر عن ذنبي بعد ذلك؟

عضو المخابرات: لو كان مكاني شخص آخر لفقد عقله. ولكنها "الدولة"، "ستفقد الدولة سيطرتها وتوازنها" يجب ردع مَن يسعون إلى هدم الدولة يجب معاقبتهم...

دورسون فقيه: إذا كانت الدولة دولة، فالإنسان أيضًا إنسان. لذلك يجب أن تتضح تهمة هذا الإنسان وتثبت حتى يحكَم عليه. وماذا لو قال الشخص الذي تقول عنه إنه مذنب "أنا أقوم بهذا العمل من أجل الدولة"؟

عضو المخابرات: ولكن يا دورسون فقيه! المكان الذي توجه إليه الأسهم هو أنت. أوَما تخاف الموت؟

دورسون فقيه: أنا لستُ الدولة. روح دورسون فقيه، ليست الدولة. إذا متّ ستحاسِب الدولةُ المذنبَ. لكن لا أستطيع أن أضع الدولة في موضع التهمة لأبقى حيًّا. فليعف الله عن تقصيرنا جميعًا...

فهذا الحوار يبين لنا أن شخصية الفرد تلعب دورًا مهمًّا في توجيه ذاته، حتى وإن كانت القوانين والقواعد موجودة تحت إمرته، فإن ضميره وشعوره بالمسؤولية ثم مخافته من يوم الحساب تمنعه من اقتراف أي خطأ أو جريمة. إنه يفضِّل أن تتعرض نفسه للظلم

والموت، ويتجنب ظلم الآخر. لأن الإنسان يحصد ما يزرعه في حقل عالمه الجواني.

نحن عندما نسعى إلى تربية أناس صالحين ذوي شخصيات متميزة، مستقيمين في تصرفاتهم وأقوالهم، عندئذ نستطيع أن نعيد مكانتنا التي فقدناها منذ سنين، ونُوصل أنفاسنا وأنفاس أجدادنا الأجلاء المليئة بالحب والرحمة إلى كل بقعة على تربة هذه الأرض. كما أن هذا يرتبط بالاهتمام الخاص في تربية الشخصية في مدارسنا، والقدرة على نقل القيم النبيلة إلى أطفالنا في الحاضر والمستقبل.

الإعلام الجديد والشباب(*)

تأثير الإعلام الجديد في شبابنا، كيف نوجهه؟ وكيف نحمي مجتمعنا من الذوبان في المجتمعات الأخرى؟ وهل أعددنا إعلامًا إسلاميًّا متميزًا بديلًا عن الإعلام الجديد، بحيث يجد فيه شبابنا ما يبحث عنه في الإعلام الآخر، ويراعي عقيدة المجتمع وشريعته وأخلاقه، دون أن ينسى القواسم المشتركة بيننا وبينهم، والتي هي ملك المجتمعات الإنسانية كلها حتى لا يحدث الانفصام والصدام؟

مفهوم الإعلام الجديد

لا يوجد تعريف علمي ثابت للإعلام الجديد نظرًا لتغيراته المتسارعة في حقول التكنولوجيا والثورة المعلوماتية وتطور البرمجيات، إضافة إلى أن الإعلام الجديد له مرادفات عدة، منها الإعلام الرقمي، والإعلام الاجتماعي، وصحافة المواطن، ومواقع التواصل الاجتماعي، والإعلام التفاعلي.

والإعلام الجديد لم يعد فيه نخبة متحكمة أو قادة إعلاميون، بل أصبح متاحًا لجميع شرائح المجتمع وأفراده الدخول فيه واستخدامه والاستفادة منه طالما تمكنوا وأجادوا أدواته. وبهذا نستطيع أن نقول إن تكنولوجيا الإعلام الجديد فتحت بابًا واسعًا لحرية الإعلام

(*) **العطري بن عزوز** [باحث في الدراسات الإسلامية والإعجاز / الجزائر].

لا يمكن إغلاقه، وهي وسيلة سهلة لإيصال المعلومات ونشرها إلى جميع أطراف العالم عن طريق وسائله (مواقع الشبكات الاجتماعية والمدونات والويكيبيديا والمنتديات وتويتر وموقع يوتيوب).

الفرق بين الإعلام الجديد والقديم

إن للعملية الإعلامية ثلاثة عناصر: مؤثر ومتأثر ووسيلة تأثير. وكان للإعلام القديم اتجاهًا واحدًا مؤثرًا، والمتلقي متأثرًا، والوسيلة الإعلامية المستخدمة إمَّا صحافة أو تلفاز أو إذاعة، وفي كل الحالات الثلاث يبقى المتلقي متأثرًا بشكل سلبي.. لذلك كان لهذه الوسائل الإعلامية أهمية كبيرة في صياغة وتشكيل الرأي العام في أي قضية، وفي الإعلام الجديد تغير الوضع، حيث حصل تحول مذهل في وسائل الاتصال خلال العقد الأخير. وقد لامس الوسيلة الإعلامية بشكل مباشر، الأمر الذي أعاد صياغة المعادلة السابقة من مؤثر ومتأثر إلى مؤثر، والمتأثر أصبح أيضًا مؤثرًا.

مثلًا كان الكاتب في الجريدة الورقية أو المجلة سابقًا يكتب مقالة، فيقرأها الناس بقدر كبير من السلبية، حيث يستوي المؤيد والمعارض، فلم تكن هناك وسائل معينة لقياس مدى تقبل القراء لكاتب وعدم تقبلهم لآخر إلا من خلال التعقيبات التي ترسل إلى الجريدة ذاتها. ومعنى هذا أن الكاتب الصحفي كان تأثيره كبيرًا في السابق، وهو المتحكم في المعلومة أو الفكرة التي يصوغها للجمهور. بينما في الإعلام الجديد بإمكان المتأثر أن يكون فاعلًا ومؤثرًا من خلال ردوده السريعة وتعقيباته التي يراها الجمهور بعد نشر مقال الجريدة أو المجلة.

خصائص الإعلام الجديد

• التفاعلية: بمعنى أن ممارسة الاتصال تكون ثنائية الاتجاه بين القائم بالاتصال والمتلقي، ويكون هناك تبادل الأدوار الاتصالية، ويكون الحوار حرًّا في الآراء والأفكار، وقد يكون مباشرًا أو في حجرات المحادثة أو مواقع تبادل رسائل البريد الإلكترونية، وتطلق التفاعلية على الدرجة التي يكون فيها للمشاركين في عملية الاتصال تأثير على أدوار الآخرين.

• المشاركة والانتشار: بتطور الإنترنت ووسائل الاتصال، أصبح بالإمكان لكل شخص يمتلك أدوات بسيطة أن يكون ناشرًا يرسل رسائله إلى الآخرين.

• العالمية: أصبحت بيئة الاتصال اليوم بيئة عالمية تتخطى حواجز الزمان والمكان والقارات والرقابة.

• الحركة المرنة: حيث يمكن نقل الوسائل الجديدة بحيث تصاحب المتلقي والمرسل، مثل الحاسب المتنقل، وحاسب الإنترنت، والهاتف الجوال، بالاستفادة من الشبكات اللاسلكية.

• تجاوز الحدود الثقافية: شبكة الإنترنت تلتقي فيها مئات الآلاف من الشبكات الدولية التي تتزايد كل عام بنسبة كبيرة، ومعها يتزايد عدد مستخدمي الإنترنت بطريقة غير مسبوقة، مما أدى بالتالي إلى تجاوز الحدود الجغرافية وسقوط الحواجز الثقافية.

• اندماج الوسائط: في الإعلام الجديد يتم استخدام كل وسائل الاتصال، مثل النصوص، والصوت، والصورة الثابتة، والصورة المتحركة، والرسوم البيانية ثنائية وثلاثية الأبعاد ..إلخ.

• الحفظ والتخزين: أصبح بالإمكان للمتلقي أن يحفظ الرسائل الاتصالية ويخزنها ويسترجعها متى شاء ويستخدمها في الوقت المناسب.

حقيقة التأثير والتأثر

أصبح للإعلام الجديد تأثير كبير في مخاطبة عقول ونفوس الشباب، ووسيلة هامة في منظومة القيم، بل أمسى له تأثير في مجرى تطور البشر.. ويختلف التأثير والتأثر بحسب الوسيلة الإعلامية ووظيفتها، وطريقة استخدامها، والظروف الاجتماعية والثقافية للأفراد والمجتمعات، وقد يكون التأثير سلبيًا وقد يكون إيجابيًا.

والتأثير من المصطلحات المشهورة في الإعلام والاتصال حيث يعرف بأنه "ما تحدثه الرسالة الإعلامية في نفس المتلقي (المتأثر)، وكلما استجاب المتلقي للرسالة، تعد الرسالة الإعلامية قد أحدثت تأثيرها، ويكون القائم بالاتصال قد حقق الهدف من الاتصال".

يرى "باركر وويزمان" أن الفرد يتلقى هذه المنبهات أو يستقبلها في شكل نبضات عصبية تأخذ طريقها إلى المخ، ثم يميز المخ بين هذه المنبهات ويختار بعضًا منها يخضعها للتفكير بعد أن يكون قد قام بفك كودها، ثم تحدث بعد ذلك عملية الاستجابة.

مجالات تأثير الإعلام الجديد

١- التأثير الثقافي والمعرفي: الشباب هم الفئة الأكثر تأثرا بالرسائل الثقافية والمعرفية التي تتضمن الأكواد والرموز، التي لا يستطيع جلهم حل رموزها ومعرفة أبعادها نتيجة شح رصيدهم

الثقافي والمعرفي بتراث الأمة وانبهارهم بالتكنولوجيا الحديثة، ولم يعد مهتمًّا بما يجري من أخبار في الجريدة أو التلفاز أو الإذاعة بما يسمى الإعلام القديم. وأصبح الإعلام الجديد -بكل وسائطه- يسيطر على اهتمامات الشباب تأثرًا وتأثيرًا، فإذا أراد أحدهم أن يخبر صديقه عن مكتبة زاخرة بالكتب، يختصر له الكلمات في رابط قد لا يتجاوز السطر، أو إذا أراد أن يخبره عن مشهد مثير يقول له: "ادخل على اليوتيوب وطالع الحدث".

والرسالة التي يحملها الإعلام الجديد إلى العالم العربي والإسلامي، هي ترسيخ الثقافة الغربية في عقول ونفوس الشباب؛ فمعظم الأفلام والرسوم المتحركة والأفكار التي تبث في جميع وسائل الإعلام الجديد، تُمجّد الرجل الأمريكي أو الغربي الذي يتصدى للجميع ويحاول أن يساعد الجميع، بالإضافة إلى الرسائل التبشيرية للديانة المسيحية واليهودية من جهة الغرب، ومن جهة الشرق: رسائل الإلحاد الوافدة من الديانات الشرقية المعروفة، بالإضافة إلى تشويه صورة الدين الإسلامي وتصويره على أنه دين الإرهاب العالمي والتخلف والهمجية، وأن العرب ما هم إلا رعاة إبل ينتشرون في الصحارى لا علاقة لهم بالحضارة، وهذه الصور تدرّس حتى في منظومتهم التربوية. ويمكن أن نلخص التأثير الثقافي والمعرفي في الشباب في هذه النقاط:

• وسائل الإعلام الجديد تعيد صياغة طريقة التفكير لدى الشباب والحكم على الأشياء، وهكذا يتحول تفكيرهم تدريجيًّا إلى تفكير

صناع القرار في الإعلام الجديد، أي البرمجة العقلية والذهنية لدى الشباب بما يتماشى وأهدافهم القريبة والبعيدة.

• الإعلام يؤثر على طريقة التفكير والتصرفات لدى الشباب، فهم يقلدون في كل شيء، مما يفقدهم القدرة على التمييز بين الخطأ والصواب.

• نتيجة انبهار الشباب بتكنولوجيا الغرب، أصبح يصدِّق كل الإشاعات والأخبار الصادرة من الغرب.

التأثير الأسري والمجتمعي

أصبحت الأسرة اليوم تعتمد على التكنولوجيا الرقمية التي سيطرت على الجو العائلي؛ فبرامج التلفاز حلت محل حكايات الجَدَّة، والبرامج التعليمية حلت محل تعاليم الأب والمعلم، وهواتف اليد حلت محل هاتف البيت.. وهكذا لم يعد الأب هو المراقب والمسيطر على الوضع داخل الأسرة وخارجها، حيث يمكن للطفل أن يشاهد ما شاء على التلفاز، وقد تملك البنت أرقام هواتف خارج إطار الأسرة، ويمكن لهم الاتصال بالآخر بالصوت والصورة والفيديو أحيانًا، دون الانتباه إلى أضرارها المادية والمعنوية وتهديدها لكيان الأسرة وقطع أواصر العلاقات الاجتماعية، وكما يقول الإعلامي فهد الشميمري: "إن الرسالة الإعلامية، سواء كانت في شكل خبر أو فكاهة أو برنامج وثائقي، فإنها تستطيع أن تعمل على إزالة قيمة من القيم وتثبيت أخرى محلها، أو ترسيخ شيء قائم

والتصدي لآخر قادم، وهذا بالضبط هو مفهوم التنشئة الاجتماعية في أبسط صورها".

ويمكن أن نلخص الآثار السلبية الأخرى فيما يلي:

• نقل أنماط الحياة الغربية إلى المجتمع الإسلامي يؤدي إلى خلخلة نسق القيم في عقول الشباب.

• السهر وعدم النوم مبكرًا والجلوس أمام التلفاز أو جهاز الكمبيوتر دون الشعور بالوقت وأهميته، له الأثر السلبي على التحصيل الدراسي والواجبات الضرورية.

• المضامين الإعلامية الموجهة إلى الشباب غير هادفة في أغلبها.

• تمرد الأبناء على التراث الإسلامي وانبهارهم بالمدنية الغربية وما تنتجه من تكنولوجيا.

التأثير الأخلاقي والسلوكي

يتميز الإعلام الجديد بأن له تأثير مباشر على الجانب الأخلاقي والسلوكي، فهو يعزز لدى الشباب الممارسات غير الأخلاقية من خلال ما يشاهدونه عبر القنوات الفضائية ومواقع الإنترنت، الأمر الذي يؤدي إلى التمرد على القيم الدينية والعادات الاجتماعية السائدة، والسخرية من العلماء، وتفشي الرذيلة، والتشكيك في قيم الأمة ومعتقداتها ومكنوناتها.

والقيم الأخلاقية مسؤولة عن توثيق العلاقة بين أفراد المجتمع وحفظ توازنه، وحينما يتجرد الإعلام عن الأخلاق يصبح يلبي رغبات جهات مشبوهة تكنّ العداء للمجتمع الإسلامي النظيف.

وقد نجح الإعلام الغربي في تفكيك عقول الشباب وإعادة بنائها، وأمسى الشباب لا يثق إلا بما تقوله وسائل الإعلام الغربية، وبالتالي يستحيل أن نتصور علاقة طبيعية بين مثل هذا الإعلام وبين القيم الأخلاقية، والواقع يثبت هذا التصور، فكل السلوكات الشاذة التي تصدر عن شريحة كبيرة من الشباب، سببها الإعلام بكل وسائله الحديثة.

ويمكن أن نلخص جملة من مظاهر تأثير الإعلام الحديث على المستوى الأخلاقي والسلوكي في هذه النقاط:

• تشير الإحصائيات التي أجريت في إسبانيا إلى أن ٣٩٪ من الأحداث التي قام بها بعض المنحرفين، قد اقتبسوا أفكارها من مشاهدة الأفلام والبرامج العدوانية وتصفحهم لبعض المواقع.

• هناك مواقع وقنوات تروِّج لكثير من العادات السيئة، حيث يترسخ في ذهن الشباب أن الإنسان إذا صادفه مشكل أو قلق أو فشل، يتجه إلى شرب الخمر أو التدخين.

• كثير من القنوات وصفحات الإنترنت، تثير في الشباب السلوك العدواني من خلال مواقع الألعاب.

• يستعمل الأطفال حاسة البصر أكثر من استعمالهم للحواس الأخرى، وهذا يؤدي إلى عدم التوافق والتوازن في القدرة التحليلية أثناء التفكير، كما تقول الباحثة الأمريكية "باتريسيا ترينفيلد": "إن ما تغير خلال الخمسين سنة المنقضية، هو استخدام الطفل لعينيه أكثر من حواسه الأخرى، مما جعل قدرة الطفل التحليلية البصرية تفوق

قدراته التحليلية الأخرى، وهذا الكلام ينطبق على الشباب الذي يقضي أوقاتًا طويلة أمام الإنترنت".

يبقى الإعلام ووسائله من أهم عوامل نقل الحضارة، وإشاعة الثقافة الجادة، ودعم الفكر الصالح، وبث القيم الصحيحة في العادات والسلوك، وإصحاح البيئة الإنسانية والمجتمع البشري، وتحقيق التواصل الاجتماعي والثقافي بين الأفراد والجماعات والأمم؛ ولذا فإن اهتمامنا بالإعلام البديل للحفاظ على الشباب من الانحراف والتأثر بالإعلام الجديد، هو في حقيقة الأمر تأسيس لبناء حضارة إنسانية يتعايش فيها الجميع مهما اختلفت الأديان والأعراق والألوان؛ ذلك لأن الرسالة المحمدية هي رسالة عالمية تحمل المنهج الأقوم للحياة الفاضلة التي تحقق السعادة لبني الإنسان.

واليوم قد دخلنا مرحلة حاسمة، تتطلب منا القيام بأعمال ملموسة لصيانة الشباب، الذي هو حصن الأمة في المستقبل، وذلك من خلال تكثيف اللقاءات العملية والتكوينية في مجال الإعلام، والسعي إلى تطويع هذه الآليات "التقنية الحديثة"، واستنباط وسائل حديثة في الاتصال الإلكتروني تستخدم في تحقيق هدف المشروع الحضاري الإسلامي في تنوير وتحرير عقول الشباب من القيود المادية، وتأهيله للقيام بدوره الحضاري باستخدام أدوات وآليات الإعلام.

إستراتيجيات في التواصل الأسري(*)

الأسرة هي المؤسسة الكبرى التي يُسقى منها الفرد حظَّه من العاطفة والرعاية والحماية والتوجيه والتعليم الاجتماعي لمنظومة القيم الاجتماعية، وفيها يرتبط ذكرٌ بأنثى ويتقاربان انطلاقًا من إعجاب أحدهما بالآخر. وقد حدد الإسلام الحنيف عامل الدين والأخلاق باعتبارهما شرطين أساسيين لاختيار كل من المرأة والرجل لبعضهما، لقوله ﷺ: "**تُنكح المرأة لأربع: لِمالها، ولحسبها، وجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك**" (رواه البخاري)، كما أكد الإسلام على جمال العلم. وتعدّ هذه الصفات العتبة الأولى لإنجاح الزواج، وتيسير الحياة تحت سقف واحد تملؤه المودة والرحمة. فكلما كانت مرجعيتهما الدينية واحدة، وتطبيقهما لأحكامها وتوجيهاتها فاعلة، تمكنَا من وضع اللبنة الصلبة لأسرتهما، وخلافًا لذلك تبدو بوادر الفشل والهدم. والواقع يتطلب قسطًا كبيرًا من الوعي، والإلمام الشامل بعلم التواصل حتى يضبطا مجموعة من التكتيكات والإستراتيجيات التي ستعمل على تذويب الخلاف وتحقيق طموحاتهما.

(*) **عبد الله صدقي** [باحث وأكاديمي / المغرب].

ويمكن اقتراح خمس إستراتيجيات للتواصل داخل الأسرة كالتالي:

١- وضع أهداف مشروع الزواج في الاعتبار أثناء كل سلوك: لا أحد يماري في أن الغاية من الزواج لا تنحصر في العفة والسكن والفضل والرزق وتلبية رغبات الجسد المشروعة فحسب، وإنما يسخر هذا كله لأجل بناء أمة ذات عزة وحضارة، تنعم تحت ظلها البشريةُ، وذلك ترجمة لما يحمله الإسلام من رحمة للعالمين، الأمر الذي يتطلب نموذجًا من الأسر ذات الجودة العالية، كي ينمو في مناخها جيل قادم لبناء غد أفضل، وهذا لا يتأتى بالضرورة إلا إذا كان المؤسسان للأسرة، نموذجين ناجحين في تمكنهما من الرضوخ إلى المرجعية بالتطبيق السليم والصحيح دون حرج؛ فتخلو نفساهما من كل عائق أو هوى، فلا يكون همهما محدودًا عند الجسد وحطام الحياة اليومية ومستلزماتها، ولا يدخلان في صراعات وخلافات من أجلها، حتى لا يصيرا رمزين للهزيمة فيؤسسان أسرة مليئة بالأحقاد والضغائن، يترعرع وسطها أبناء لا يزيدون المسلمين إلا خبالًا، ولا يملكون من الأمر شيئًا سوى الإفساد في الأرض والانحراف.

ولقد أدركت جميع الشعوب أن الكنز الحقيقي يتمثل في أبنائها، وإعداد جيل جديد يرفع من تطورها ونمو حضارتها ويحقق أحلامها. وهو ما دعا إليه الإسلام لتحقيق العدل والإخاء والسلام والحب بين البشر، ومن ثم تغدو مسؤولية الزوجين ورسالتهما مشروعًا شرعيًّا، به ينالان رضا الله ويفوزان بالجنة.

٢- القبول بالآخر والحذر من إقصائه: لا أحد يجادل في أن الطبع والتربية يختلفان من شخص لآخر، فكل من الزوجة والزوج يتلقى تربية خاصة في أسرته السالفة، كما أن كلاً منهما ينفرد بطبع ومزاج وعادات تختلف عن الآخر. فهما إذن مدعوان إلى قبول كل منهما بصاحبه بعد اتفاقهما على المبادئ العليا لمرجعيتهما، واحترام خصوصياتهما التي قد تكون متباينة ومختلفة بينهما، وإدراك أن هذا الاختلاف ثراء للأسرة، وتنوع داخل الوحدة يجدر بهما توظيفه واستغلاله استغلالًا حسنًا حتى يقطفا ثماره الطيبة؛ لتصبح بذلك خصوصيات أفراد الأسرة الجديدة يتجاوزان بها التصورات البالية، والتقاليد المتخلفة التي تعم مرافق المجتمع، فيعملا معًا على السمو بعلاقتهما نحو الحب والإخاء والصحبة الراشدة. إن هذا القبول المطلوب ليس سوى العمل على احتواء كل منهما للآخر، واحترام خصوصياته ورعايتها رعاية التقدير ترفع من مقامهما وتضمن كرامتهما معًا. فتربة الحياة الأسرية خصبة لنمو بعض الأمراض والعقد التي تعكر صفوها وتفتك بعراها. فالزوجان مدعوان لأخذ الحيطة والحذر، وعدم السماح لإحدى هذه الأمراض بالتسلل إلى حياتهما الزوجية، وإدراك أن كلاً منهما يكمل الآخر، فلا تفاضل بينهما إذن، وهما سواسية في الحقوق والواجبات كما أكد على ذلك القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، حيث قال ﷺ: "**ألا إن لكم على نسائكم حقًّا ولنسائكم عليكم حقًّا**" (رواه الترمذي).

فكم هو جميل أن تعتبر العشرة الزوجية فرصة ثمينة كي يتمكن الزوجان من ضبط أخطائهما، وما يعتري شخصيتهما من العُقد

والطبائع الشاذة مما أفسدته التربية السالفة وأفسده الدهر، وتقويم ما اعوج من الخصال. وهذا هو المسار الذي يجب أن ينخرط ضمنه الزوجان، ويبحثا معًا عن الصور والمظاهر التي تجعل كليهما ينمي حبه ورضاه بالآخر، وذلك بالسلوك الحسن والاهتمام بالمظهر، وملء كل منهما عين الآخر، وبعث الاطمئنان والرضا في قلبه، والرفع من مكانته، خاصة أثناء نصحه أو معاتبته أو مجادلته أو مخالفته، وكل ذلك يقتضي نوعًا من الحكمة والرزانة وعدم التسرع والتهور.

ولأن النفس البشرية ضعيفة، ودرجة تحملها تتفاوت من شخص إلى آخر، فالأمر يدعو إلى شدة الحذر حتى لا يقصي أحدهما صاحبه عن قصد أو عن غير قصد، وذلك في كل السياقات السلوكية.

٣- التعاون وتطبيق مقولة مَنْ ومتى وكيف وأين: تتسم الحياة على هذه البسيطة بالصعوبة والمشقة والمنعطفات الحاملة للمنغصات والآلام، ولذلك يحتاج الفرد فيها إلى مُعين قريب يستأنس به ويقاسمه حياته حلوها ومرّها، ويساعده على مواكبة الحياة ومغالبة صعابها وتخطي أزماتها، ولن يجد الفرد من هو أهل لهذه المكانة إلا فيمن قال فيهما الله سبحانه: ﴿**هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ**﴾ (البقرة:١٨٧). الزوجان معا هما من سينجب ثمرات حبهما التي تتجلى في الأطفال زينة الحياة الدنيا، وسيشاركان الحياة تحت ظلٍّ واحد، وسيقاومان أمواج الحياة العاتية بقاربهما الصغير ذي المجدافين النحيفين، وعلى درب المودة والرحمة والصحبة الراشدة سيبذل كل منهما الغالي والنفيس لإسعاد الآخر؛ إيمانًا منه أنه يسعد بذلك نفسه

لينال رضا الله، فيزداد تسلحًا بالصبر والتضحية في السراء والضراء وحين البأس. وذلك كله بعذوبة الصحبة على المحجة البيضاء، فيحتل بذلك التعاون بينهما -في أمور الدين والأخلاق والعلم- صدارة القضايا جميعها، ويضعان برنامجًا لجدولة ما يتعلق بالتربية الروحية، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا**﴾ (التحريم:٦)، بقصد الحوار البناء والبحث عن العوائق التي تعترض كل أعضاء الأسرة، ليقوّموها جميعًا ويبدوا أسبابها ونتائجها والحلول قصد تجاوزها.

هنا يجب أن ينتبه الزوجان إلى أهمية مراعاة مقولة من ومتى وأين وكيف، التي نعتبرها في اعتقادنا من أهم الإستراتيجيات التي تعمل على إنجاح المشروع التواصلي، كما تحقق مبدأ التعاون، وتكسر أغلب العوائق التي تحول دون قبول التوجيه والنصح والتذكير، ذلك أن طبيعة البشر تتقلب ولا تستقر على حال واحدة تبعًا لتكوينها النفسي، وموقعها الاجتماعي، والظرف الزمني الذي يرافقها، والفضاء والسياق اللذين يلازمانها.

أ- مقولة مَنْ؟

يقتضي تطبيق هذه المقولة تعرّف كل منهما على الآخر، التعرف على من يكون؟ ما هو طبعه؟ مزاجه؟ معلومات عن ماضيه التربوي، الظروف التي نشأ فيها، تعليمه، كل هذا سيساعدهما على فهم كل منهما للآخر ويتواصل معه بشكل موضوعي، وسيعرفان حدود طاقتهما وقدر تحملهما، فهناك من هو عصبي المزاج، والمتسم

بالعناد، والانفعالي.. وهكذا يصعب تحديد أنماط الأشخاص، كما يصعب ضبط تداخلات الحالات.

ب- مقولة متى؟ وأين؟

جل الأشياء والقضايا والمواقف مرتبطة بالزمن والفضاء فلا شيء يخرج عنهما، وما يصلح في هذا الوقت قد لا يصلح بالضرورة في آخر، وما يجدي في هذا السياق وذاك الفضاء قد لا يجدي في غيرهما.

فمتى يتدخل أحد الزوجين؟ ومتى يعقّب؟ ومتى يسأل؟ ومتى يجيب؟ ومتى يعلّق أحدهما على الآخر؟

كل ذلك يخضع لزمنه الخاص، إذ لا بد لهما أن يراعيا اللحظة الزمنية والسياق المناسب حتى يتجنبا أيّ إشكال في التواصل، أو أي صراع قد يقحم الأسرة في نفق من الضياع والنزاع والتبعثر، وكل تهور منهما يمكن أن يعرّض حلمهما للتلاشي، وأبناءهما للضياع. ويعد تطبيق مقولة "متى وأين" من سمات الحكمة، التي يجب أن يتصف بها الزوجان حتى يقطفا ثمار ما يصبوان إليه. فالاحتفاظ بالهدوء والصمت خاصة عند المفاجآت، أمر يجعل المرء يفكر التفكير الصحيح والسليم، ويأخذ الوقت الكافي للتمعن في المسائل والقضايا.

جـ- مقولة كيف؟

تلعب الطريقة دورًا فعّالًا وناجعًا لضمان الوصول إلى النتائج المرجوة، وهي الكيفية اللائقة والصالحة، على كل من الزوجين

إتقانها واختيار أنسب الوسائل والأساليب والإمكانيات. ويعد اللين والكلمة الطيبة والرفق والتمهل من الوسائل الهامة التي يعتمد عليها الكثير من أصحاب التجارب، الذين يجنون بها ما لا يُحصى من الفوائد، ويجتنبون ما يمكن من الصدامات والخلافات.

٤- فن التنازل والمزيد من الثقة: يعرّف بعض السياسيين السياسة بكونها إتقان لعبة "فن التنازل"، هكذا تلعب هذه الإستراتيجية دورًا وقائيًّا للزوجين، وتعمل على إنشاء أجواء مريحة تسمح لكل سجيّة أو فضيلة بالترعرع والنمو للمساهمة في بناء جانب مهم من الشخصية.

وتعني هذه الإستراتيجية التحلي بالمرونة والحكمة البالغة، وامتلاك الشجاعة والسيطرة على الذات، وانفعالاتها لجر الخطوة إلى الوراء، والتراجع عن الجدال العقيم أو الصدام ولو كان الحق حليف صاحبه، وذلك حفاظًا على سفينة الأسرة من الاهتزاز، الأمر الذي يتطلب قسطًا وافرًا من البصيرة، وبعد النظر والروية والذكاء النافذ.

فإذا حدث أن دبّ خلاف أو نقاش بين الزوجين في أمر ما، فما على أحدهما إلا أن يهرع مسرعًا نحو التنازل، ومبديًا بساطة حجم الموضوع دون تضخيمه، متجاهلًا كل الخلافات بينهما وقبول آراء صاحبه بتسامح وافر في تجاوز ما قد يصدر عن الآخر من هفوات وانفعالات، وباحثًا عن حلول ناجعة تفضي إلى استقرار الأسرة والوصول إلى بر الأمان.

وهنا ندعو الزوجين إلى مزيد من الحلم والتواضع ولين الجانب ليمتلك كل منهما الآخر، وأن يشد بينهما الحب والتقدير ودوام المودة والعشرة، وأن يوشحا نفسيهما بقيمتَي الصدق والأمانة.. فيتمكنان بذلك -وبشكل طوعي- من التنازل وقبول احتمال الخطأ في سلوكيهما، وبالتالي العمل على تصحيحه وتقويمه بشجاعة وجرأة فريدتين، دون الإحساس بالحرج أو الضجر أو السخط أو الكراهية.

٥- احترام الموقع وتعظيم شعائر الله: يمثل مفهوم الموقع داخل علم التواصل أحد آلياته الإجرائية، فكل من الزوجة والزوج يختص بموقع مغاير للآخر، وبموجب هذا الموقع يمتلك كل منهما خصوصيات تتميز عن خصوصيات صاحبه.

وينطلق تحديد الموقع من المرجعيات الدينية والثقافية والسياسية والاجتماعية والقانونية. فموقع الزوجة والزوج له في هذه المرجعيات مكانة سامية ومقدسة، وقد خص له الدين الإسلامي مقامًا فريدًا منوهًا به في الكثير من آي القرآن الكريم وأحاديث رسول الله ﷺ.

وموقع الزوجة يشمل العديد من الصفات؛ فهي الزوجة والأم والأخت والبنت والمواطنة في سائر الحقوق والواجبات العامة في الحياة. وهي بذلك، المقام السامي، لما تبذله من عطاء وتضحية ونكران للذات داخل الأسرة وخارجها في مهامها الاجتماعية والثقافية والسياسية، وما تحمله من هموم المجتمع انطلاقًا من موقعها الخاص.. وذلك تبعًا لخصوصياتها المغايرة لخصوصيات

الرجل، والتي لم يكن من قبيل العبث، أن رفع الله مقام النساء في العديد من سياقات القرآن العظيم، وطلب من الرجال معاشرتهن بالمعروف: (وعاشروهن بمعروف)، وأمر الرسول ﷺ الرجال بقوله: "**واستوصوا بالنساء خيرًا**" (رواه مسلم). كل هذا وغيره استوجب على الرجل احترام موقع المرأة وتوقيره، واعتبر ذلك أمرًا شرعيًّا لا هوادة فيه.

كما أن موقع الزوج يشمل بدوره الكثير من الصفات؛ فهو الزوج والأب والأخ والابن والمواطن في سائر الحقوق والواجبات العامة في الحياة، مثله في ذلك مثل الزوجة، لقوله ﷺ: "**إنما النساء شقائق الرجال**".

ولذلك لا يقبل أي تعسف أو مسّ بأي موقع منهما، فكل من الموقعين يخول لهما حقوقًا وواجبات يجب مراعاتها واحترامها والرفع من قيمتها وهيبتها بشكل متبادل، واعتبار أن أي إساءة إلى أحد الموقعين، ما هي إلا إساءة لكلا الموقعين دون استثناء.

ومن ثم يجدر بهما التسلح بالعقل والنظر البعيد لمعالجة أي شطط قد يتخلل تصرفاتهما، واحتمال الخطأ من الطرفين دون اللجوء إلى نقد غير مُجدٍ أو غير بناء قد يعصف بالأسرة ويجعلها عرضة للتلاشي والضياع.

أما تعظيم شعائر الله، فتكمن أهميتها في كونها تضمن الحفاظ على التوجيهات الربانية في سلوك البشر، لأن تقديس المرجعية الدينية لدى المسلمين، وتحريم الاستهتار بأحكام الدين الإسلامي

وأوامره، وتوجيهاته في الحقوق والواجبات -سواء في العقيدة أو الشريعة أو العبادات أو الأخلاق- أمر يجعل عرى الأسرة قوية. كما يمكّن الزوجين من التمسك بأحكام الله والاستسلام له في كل الأحوال، والرضوخ لأوامره سبحانه، بدلًا من الغطس في بحر السخرية من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ دون وعي، أو عن طبع جاهلي موروث.

وكيفما كانت الإستراتيجيات التواصلية الهادفة إلى إنجاح مشروع الزواج، فعلى الزوجين أن يدركا أنهما يؤسسان لمستقبل الأمة جمعاء. وهو ما يتطلب منهما ترسيخ مناخ نظيف داخل البيت حتى تنمو داخله الأجيال القادمة، فيستنشقوا عبير ما شيّده الأبوان، ويترعرعوا في فضاء تملؤه القيم النبيلة التي تعمل على تشكيلهم وتكوينهم على أفضل وجه، فهم تاريخ الغد ومستقبل الأمة وأحلامها.

فلينظر كل من الزوجين أي سعي يختاران، فإما سعيًا مشكورًا؛ وهو ما يتمثل في رفع راية الإسلام والعمل على تحقيق الهدف الأسمى لبناء تاريخ أمة تحيا بنور ربها وتنعم برضاه صلى الله عليه وسلم، فيكونا بذلك رمزين للنصر والفوز بالدنيا والآخرة.

وإما أن يكون سعيهما سعيًا مدحورًا؛ وهو ما يترجم خذلانهما وضياع رسالتهما، بل وخيانتهما للأمانة الكبرى. ولن يصدر عن هذه الخيانة سوى أمة مخذولة ترزح تحت وطأة التخلف والقهر والذل والهوان.

الطفولة والإدمان الإلكتروني(*)

هل شبكة الإنترنت ضرورية للطفل أم هي حاجية أو تحسينية؟ وإذا تبين ضررها فبماذا نعوّضها؟ وكيف يمكننا أن نكوّن أجيالًا لها صلة بعالم المعرفة؟ وإذا كانت الشبكة محظورة على الأطفال إلى حين يكبرون، ففي أي سن تتوقف عملية الطفولة؟ وهل يمكن للإنترنت أن يعوّض دور الآباء والمربين في التعليم والتلقين والتربية والتوجيه؟ وإذا عُوِّضت هل يمكنها أن تمنحهم عنصر المحبة والعطف والحنان؟..

ويقابلك الأطفال بسيل من الأسئلة، التي تدل على أن معركة أخرى يعيشها الأطفال مع أنفسهم ومع آبائهم سببها الأول الإنترنت، يتساءلون عن هذه الحراسة المشددة في حقهم: لماذا؟ ولماذا يحرمون من التعامل مع شبكة الإنترنت ويتعاطاها الكبار؟ لماذا هذا الموقع حرام على الصغار، حلال على الكبار؟

تبدو هذه الأسئلة كلها مشروعة، ومثلما أن الكبار يكدّون ويجتهدون في تحصيل الأجوبة لإقناع أنفسهم، فعليهم في الوقت نفسه إقناع أبنائهم بأجوبة معقولة وحقيقية، وفضاء البيت يمكنه

(*) **أ. د. محمد خروبات** [أستاذ التعليم العالي بكلية الآداب بـ"مراكش"/المغرب]

أن يتسع -على ضيقه- لندوة عائلية يشارك فيها بعض المهتمين، يكون موضوعها "أطفال البيت والأجهزة الإلكترونية الموجودة فيه، بما فيها الشبكة العنكبوتية".

نظريات ونسبية الأحكام

تختلف النظريات حول طريقة تعامل الأطفال إلى ثلاثة اتجاهات:

الأول: يرى أن تعامل الأطفال مع الشبكة يجب أن يكون مفتوحًا ولا يتقيد في ذلك بسنّ معين، لأنه لا وجود لسن قانوني أو أخلاقي أو ديني يمنع الطفل أو يحد من إقباله على الشبكة.

الثاني: يطالب بتحديد سنّ معين لذلك، ووضع حد زمني صارم لتعامل الطفل مع الشبكة حتى لا يكون على حساب واجباته المدرسية، وعلى حساب صحته وتربيته. ويتم كل ذلك تحت مراقبة الآباء.

الثالث: يذهب إلى حد منع الطفل مطلقًا من التعامل مع شبكة الإنترنت، وهو توجُّه يمارس أسلوبين كلاهما مرٌّ؛ الأول يتمثل في إبعاد الطفل ومحاولة شحن دماغه بسلبيات الإنترنت، والثاني يتمثل في إبعاد الإنترنت عنه، والمبرر في ذلك هو الأخذ بالقاعدة الأصولية "سد الذريعة"، غير أنه إن استهدى إلى غلقها فيما لا ينفع، فإنه سدها فيما ينفع.

تقع بين أيدينا دراسات علمية حول هذا الموضوع، غير أن هذه العينات تنتمي إلى غير بيئتنا، فتطبق الدراسة على أطفال من بلجيكا أو فرنسا أو أمريكا، ثم تؤخذ نتائجها ويزج بها في ثقافة عالمنا

الإسلامي. والواقع أن مثل هذه الأبحاث يسترشد بها، ويجب -في المقابل- أن نقيم دراسات علمية محلية تعنى بشؤون أطفالنا في العالم الإسلامي، وهي وضعية مختلفة عن وضعيته في الغرب. ثم إن وضعية الطفل في جهة من العالم الإسلامي ليست نفسها في جهة أخرى؛ فالعينات التي تختار للدراسة، يجب أن تكون من المجتمع المراد تطبيق الدراسة عليه، ثم يجب أن تمثل كل شرائح المجتمع.

تبقى نسبية الأحكام في هذا الموضوع مطروحة، فحالات الأطفال مع الإنترنت تختلف من طفل لآخر، ومن أسرة لأخرى، لذلك يتوجب النظر في كل حالة على حدة:

• هناك حالات يؤثر عليها الإنترنت صحيًّا وأخرى لا يؤثر عليها.

• هناك حالات تبدو أكثر نجاعة وأكثر اجتهادًا ومردودية حين تتعامل مع الشبكة، وهي بخلاف الحالات التي يزيدها التعامل تكاسلا وتقهقرًا.

• حالات يسبب لها الإنترنت مشكلًا أخلاقيًّا وعائليًّا، وأخرى هي تحت السيطرة والتوجيه.

الإنترنت والتأثيرات سلبًا وإيجابًا

يمكن الجزم بأن نظرة مجمل الأطفال إلى الإنترنت إيجابية للأسباب الآتية:

• العالم كله أمامه من دون حدود ولا قيود.

• يحاور أطفالًا من مختلف الأجناس والأعمار ذكورًا وإناثًا.

- إرسال رسائل سريعة وتلقي أجوبة سريعة أيضًا.
- سيادة طابع التكتم والسرية في التعامل.
- السماع إلى كل اللغات والأصوات بما فيها الموسيقى والألحان.
- التسلية بألعاب وأفلام وقصص كثيرة من مختلف الأنواع.
- الاعتماد على الذات في الإقبال على الإنترنت وعالمه.
- الاستعانة به في الدروس والفروض المنزلية.

هكذا يرى الأطفال أن الإنترنت ضروري في حياتهم حتى صرّح بعضهم بأنهم لا يمكنهم العيش بدونه. أما الكبار فلا يرون غضاضة من تلبية حاجات أولادهم، وإذا توجهتَ إليهم بالسؤال عن دافعهم لإدخال الإنترنت إلى البيت حصلت على ما يلي:

أ- إرضاء الأطفال ومجتمع البيت، فأمام الإلحاح والطلبات يسعى الآباء إلى الاقتناء.

ب- ولوج عالم المعرفة وهي فرصة يمنحها الإنترنت.

جـ- طابع المنافسة الجارية بين الأسر والعوائل والجيران، والكلام عن الإنترنت أصبح يشكل ثقافة من النوع الضاغط.

وأثبتت الدراسات الاجتماعية أن الأطفال يتعاملون مع التكنولوجيا الحديثة أكثر من آبائهم، غير أن هناك من حرموا أبناءهم من الإنترنت وقد فعلوا ذلك تحت تخوفات كثيرة، منها أنه وسيلة حربٍ ابتكرها الغرب لتدمير المجتمع الإسلامي، أو أن استخدامه يأتي على حساب التحصيل الدراسي للطفل.

كل هذه تخوفات يجب أن تُعقْلن، وليس بالمنع وحده يمكن المحافظة على الطفل والبيت، المحافظة يجب أن تكون بالوقاية والمصاحبة والمراقبة والتوجيه والتربية، ثم بتحديد الداء المتولد عن التعامل مع الشبكة، وبحثه ودراسته بمعزل مثل: الإنترنت والجنس، الإنترنت والعنف، الإنترنت والإدمان وضياع الوقت، الإنترنت والتمرد على الآباء والأسرة والمجتمع... نحاول في هذا المقال أن نلقي الضوء على بعض القضايا:

١- قضية الإدمان: يكثر الطفل منذ المراحل الأولى في حياته من الجلوس أمام التلفاز لمشاهدة الرسوم المتحركة، فبقدر ما يدمن على مشاهدة التلفاز فهو يدمن على الإنترنت. وظاهرة الإدمان نفسها تشكل ظاهرة مرضية، وما هو في الواقع يفوق بكثير مما هو في الشبكة، فليست كل الألعاب ولا كل مظاهر الانحراف التي يشكو منها الآباء موجودة في الشبكة. ومن هنا فقبل أن نتساءل عن علاقة الطفل بالشبكة، نتساءل عن علاقته بالواقع أولًا، غير أن البعض لا يميل إلى هذا الطرح لأن المعوقات التي يفرضها الواقع على تحرك الطفل لا توجد في الشبكة.

يميل كثير من الباحثين إلى مناقشة قضية الإدمان من دون التعرض إلى أسبابه. والتعرض إلى الأسباب يتطلب استخلاصها مما يقدمه الأطفال أنفسهم حين نتوجه إليهم بالسؤال التالي: لماذا تدمن التعامل مع شبكة الإنترنت؟ ويقر الكثير منهم أنهم دفعوا إليه قهرًا، لأن الإنترنت -في غيرالوقت الضروري- يعوض نواقص كثيرة، منها:

• الفراغ العاطفي؛ فالطفل لا يجد الأبوين بجانبه كثيرًا، فكأنهما عوضاه ذلك بشبكة الإنترنت والأجهزة الإلكترونية الحديثة.

• المشاكل الأسرية التي تحدث في وسط البيت، لا يملك الطفل إزاءها إلا الانزواء في عالم الشبكة لاعبًا ومتسليًا.

• المشاكل الصحية والنفسية؛ فكثير من الأطفال لا تسعفهم ظروفهم الصحية في الانخراط مع زملائهم في اللعب والجري في الهواء الطلق فيعوضون ذلك بعالم الإنترنت.

٢- الشبكة والوقت: لا شك أن التعامل مع شبكة الإنترنت يمتص الوقت كله، إلى درجة أن الإحساس بالوقت ينعدم لدى الطفل، فلا يدري متى انتهت الساعة الأولى ودخلت الثانية، بل لا يدري في بعض الأحيان متى انتهى النهار ودخل في الليل، وساعة حصة الرياضيات تصبح أثقل عليه من أربع ساعات أمام الإنترنت. ومع نسبية الزمان يذوب وقت الطفل ويموت تمامًا كما قتل الكبير وقته في لعب الشطرنج أو مجالسة أصدقائه في المقاهي.

٣- الإنترنت والمشاهد الإباحية: في الطفل حواس موجودة فيه بالفطرة، وتفعل فعلها فيه بسعيها نحو القيام بما لأجله وجدت، فالعين يجب أن ترى، والأذن يجب أن تسمع، واليد يجب أن تلمس، والرجل يجب أن تمشي وهكذا... فلا مجال للشك إذن، في أن وعي الأطفال يتشكل من المشاهد والرؤى والمسموعات والملموسات...

صحيح أن شبكة الإنترنت وإن كانت من ابتكار العقل الغربي، فإن الإقبال عليها متاح للجميع بكل المقاييس. لكن الملاحظ أن حضور إبداعات المسلمين فيه بالإنجاز والابتكار، ضعيف جدًّا أمام إنجازات العقل الغربي في مختلف الميادين. ومن هذا المنطلق، فإن الكثير من هذه الإنجازات لا يتلاءم مع وضعية الطفل المسلم ومع أخلاقه ومدخرات قيمه، مما يدفع البعض إلى توجيه أصابع الاتهام إلى الشبكة واعتبارها أداة تدمير لأذواق وأحاسيس ومشاعر الطفولة البريئة.

إن أخطر شيء؛ هو أن يترك الكبارُ الصغارَ يتوجهون بمفردهم إلى المسلسلات والأفلام التي توقع الطفل فريسة شهوات مدمرة مثل شهوة الجنس وشهوة العنف.

٤- الإنترنت والمعرفة: تؤكد مجمل الدراسات على إيجابية التعامل مع شبكة الإنترنت من الناحية المعرفية، لكن الأهم هو تحديد مفهوم المعرفة المراد جنيها والتي تخص الطفل.

توفر الشبكة كمية هائلة من المعلومات، وهذا وإن كان إيجابيًّا من وجه، فهو مزعج بالنسبة للاستعدادات العقلية للأطفال... فعقل الطفل لا يمكنه أن يستوعب هذا الكم الهائل من المعلومات. ومعلوم تربويًّا أن تحديد سنّ التمدرس مع انتقال الطفل من مستوى إلى آخر، هو بحسب القدرات العقلية والمعلومات التي تليق بذلك المستوى. لذلك مال بعض الباحثين إلى الكلام عن المراحل العمرية للطفل، حين يكون له استعداد للتعامل مع الشبكة ومع المعلومات المتدفقة، ثم هل يستقيم تعليميًّا وتربويًّا أن نجعل من معلومات الشبكة بديلًا

للمعلومات العلمية والمعرفية التي يأخذها في المدرسة؟ أو أن يأخذ حريته كاملة في التعامل مع هاته وتلك؟

أبعاد الهجمات على الأطفال

لا أحد ينكر أن هناك أبعادًا لهذه الهجمة الشرسة على أطفالنا في عالم اليوم، نحاول أن نحدد بعضها فيما يلي:

• البعد الاقتصادي: فمجمل الأفلام والمسلسلات هي للتسويق والربح، لا يهمها المحتوى مما يشكل ضررًا على الأطفال. وقد انخرط الآباء في هذه المضاربة حين داوموا على إرضاء رغبات أولادهم دون النظر في أبعاد هذه الآفة.

• البعد السياسي: حيث تسيطر نماذج فكرية معينة وشخصيات وطقوس، بها مضامين غير بريئة تضعف من شخصية الطفل وتراثه ودينه، ناهيك أن البعض منها لا يخفي عداوته للخصوصية الإسلامية.

• البعد الحضاري والثقافي: حيث تطل الحضارة الغربية ببريق مدنيتها لتدغدغ أحلام طفولتنا البريئة، وتمارس ضربًا من التربية غير المباشرة للطفل وهو بين أحضان والديه.

• البعد الديني: حيث تأخذ بعض الأفلام والألعاب والمسرحيات والقصص الموجهة للأطفال بُعدًا دينيًّا، فهي توجه الأطفال نحو المسيحية أو اللائكية، وحتى الإلحاد والزندقة.

وما ذكرناه في هذا البُعد، لا يهم طفلنا في العالم الإسلامي وحده، بل يهم كل أطفال العالم. فلابد من احترام خصوصية الطفل أينما كان.

التربية ودورها في مكافحة الظاهرة

حينما يثار الإشكال لا نحدد مَن المسؤول، إما أن نقول إنها مسؤولية الشبكة فهي وحدها تتحمل الوزر والتبعات، أو نقول إنها مسؤولية الطفل بفعل رغباته وارتباطه المدمن بالشبكة، والبعض يقول إنها مسؤولية الجميع دون أن يكون هو المبادر وهكذا... والواقع إنها قضية تربوية بالأساس.

ويحصر البعض التربية في الاعتناء بالطفل من جهة الأكل والشرب واللباس والتداوي والتمدرس ومجمل الحاجيات المادية فقط، لكن المفهوم الصحيح للتربية يبقى ناقصًا ما لم نأخذ بعين الاعتبار المحيط العام للطفل، ومنه الشارع والمدرسة وعالم الإنترنت.

التربية هي أساس التوجيه والتقويم والتهذيب والتكوين، وباختصار هي أساس "التنمية البشرية".

إذا كانت التربية بهذه المواصفات الإيجابية، كيف نساهم بها في حل هذه المعضلة؟

الكبار مكون أساس في المعادلة، والمبرر في ذلك ما يلي:

أ- الشبكة هي آلة، تستخدمها ما شئت وتتركها ما شئت، الإنسان هو الذي يتحكم فيها.

ب- الطفل هو إنسان صغير ليس مسؤولًا عن نفسه، إنه رهن التكوين والتشكل بفعل التربية. وفي الحديث الصحيح الذي رواه أبو هريرة وأخرجه البخاري: "ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه".

من هذا المنطلق نحدد ما يجب القيام به تربويًّا لمعالجة هذه الظاهرة فيما يلي:

• التربية بالقدوة: لا يميل كثير من الآباء إلى الاعتراف بتقصيرهم تجاه الطفل -من هذا الجانب- حين يحمّلون الدولة أو الشارع أو المجتمع المسؤولية عن هذا الموضوع، وإذا كانت المسؤولية الأولى ترجع للآباء فهي ترجع إليهم من جهة الأسوة والقدوة. والسؤال المطروح هنا: كيف يتعامل الكبار مع الشبكة؟

• مراعاة المقاصد والأهداف: يربى الطفل لأهداف ومقاصد معينة، من هنا فإن الإقبال على الإنترنت لا يجب أن يكون لمجرد الإقبال، إلا إذا كان دروسًا تطبيقية تلقن الطفل مبادئ التعامل مع الإنترنت، وهي خطوة أولى نحو توظيف شبكة الإنترنت في تنمية المدارك الروحية والتربوية والعلمية والمعرفية للطفل.

• المراقبة العامة: مراقبة الأطفال جزء من العملية التربوية التي تقتضي متابعة الطفل زمانًا ومكانًا وموضوعًا، وهو ما يطلق عليه "التربية العامة".

نعني بـ"الزمان" متابعته في كل أطوار نموه، وعبر الأدوار التي يقطعها في حياته، لأن الانحراف لا سنّ له.

نعني بـ"المكان" متابعته في كل الأمكنة التي يسلكها، مثلما يجب توجيهه إلى المكان المناسب يجب تحذيره من المكان غير المناسب.

ونعني بـ"الموضوع" إثارة الموضوعات الضرورية في حياته ليهتم بها ويدركها، مثل المحافظة على علمه ودينه وصحته مع ضبط علاقته مع الله والإنسان والمحيط.

• الحصانة الذاتية: التربية العامة من شأنها أن توصل إلى نوع مهم في التربية: الحصانة الذاتية.

صحيح أن مصاحبة الأطفال ومراقبتهم يجب أن تكون دائمة ومسترسلة، لكن هذا يتعذر على البعض؛ إذ لا يمكنهم مصاحبة أبنائهم أينما حلوا وارتحلوا، وهذا النوع من التربية يجعل الطفل يراقب نفسه بنفسه، ويسعى جاهدًا إلى مراقبة نفسه وتوجيهها، حتى إذا رأى شيئًا غير مُرْضٍ عرضه على آبائه ومربيه. فعلى الآباء والمربين أن يمارسوا أسلوب التصفية -لا الحرمان- فيحرمون الطفل من مشاهدة التلفزيون والسينما والمسرح أو شبكة الإنترنت، وهذا أسلوب مدمر لرغبات الطفل. فإذا خيف على الطفل من التعامل مع هذه الوسائل -وهو صغير- أصبح مدمنًا عليها وهو كبير، وقد ينحرف في كبر سنّه، فكأنه يحاول تعويض ما فاته في الصغر.

إن أسلوب التصفية والغربلة يكتسب عند الطفل بفعل التوجيه، وهذا يتطلب من المربي أن يشارك الطفل في تصفح المواقع ومشاهدة مواضيعها، حتى إذا كان فيها ما لا يسر أعرض عنه وأصدر حكمًا عليه، وهذا من شأنه أن يزرع في الطفل الثقة في النفس في الحكم على القضايا.

وبخصوص الأفلام الكارتونية التي يكثر أطفالنا من مشاهدتها، يجب بث الوعي لديهم على أنها ليست حقيقة، وكذلك السينما هي مجرد تصوير يتم بصنعة تقنية فائقة... حتى لا يختلط لديه الخيال بالواقع، وأن كل هذا -وإن تناول قضايا واقعية وعالج مسائل

اجتماعية- فهو لأجل الترفيه فلا يأخذ منا كل الوقت والجهد. ثم يجب بث الوعي لديه أن وراء كل هذا أرباحًا اقتصادية مثل الإشهار. بهذا يكون الطفل حاكمًا على كل المشاهد عوض أن يكون كتلة مستلبة.

مقترحات وبدائل

شبكة الإنترنت جزء من المعلوميات الحديثة التي يجب على الأبناء أن يلجوها، لأن الجهل بها هو ضرب من الأمية؛ تلك التي يطلقون عليها "الأمية الرقمية"، لكن التعامل مع الشبكة يجب أن يكون مصحوبًا بالمراقبة من قبل الآباء والمربين، مراقبة مصحوبة بالتعليم والتوجيه.

المهمة التربوية بفعل المراقبة العلمية المستمرة تكسب الطفل حصانة ذاتية تمكنه من مراقبة نفسه بنفسه.

لا يكون التعامل مع الإنترنت بلا هدف ولا مقصد، يجب استخدامه فيما ينفع واستغلاله في الواجبات، أما الترفيه فخارج أوقات الدراسة.

رصد الحالات التي يؤثر فيها الإنترنت سلبًا على الأطفال، ومحاولة تجنبها أو التخفيف من آثارها.

إثارة الكلام فيها من قبل الآباء والمربين، وتخصيص ملتقيات وحوارات خاصة لمعالجة الموضوع مع استقدام خبراء واختصاصيين في الموضع.

إقامة دورات تكوينية ولقاءات لتوعية الأطفال حول طرق التعامل مع شبكة الإنترنت.

المشرفون على التوجيه والتعليم، يجب أن يكونوا على تكوين علمي وتقني وتربوي جيد ولا سيما في محلات *"Cyber"* التي يشرف عليها أناس غير مؤهلين للتربية والتوجيه.

مجلات الأطفال في العالم الإسلامي من الورقية إلى الرقمية(*)

تكاد تجمع الدراسات المتخصصة في الإعلام الموجه للطفل في العالم الإسلامي، على أن المبادرات في هذا المجال ضعيفةٌ مقارنةً مع المنتوج الغربي الوافد إلى الطفل المسلم بلغته الأصلية أو المترجم إلى العربية بحمولته الثقافية والقيمية، كما أن حضور روح الرسالة ومقاصدها التربوية الحضارية في هذه المبادرات على قلتها، يبدو ضعيفًا بالمقارنة مع ما يروج في السوق من أدبيات موجهة للطفل يطغى عليها طابع التجارة والإثارة، والتي لا تنظر إلى الحاجيات الحقيقية للطفل بقدر ما تنظر إلى الربح المادي العاجل.

ولا زلنا في العالم الإسلامي نتطلع إلى إعلام حقيقي موجه للطفل مناسب لقيم مجتمعنا وحضارته، في وقت نعاني فيه من إغراق السوق بالمنتوج الغربي الموجه للطفل والقائم على ترسيخ قيم حب الذات وحب السيطرة والعنف والمغامرة والمواقف غير الواقعية وحضور سلطة الخيال، مما يؤثر سلبًا على نفسية الطفل وعقليته في ظرفية حرجة، تتشكل فيها مفاهيمه وتصوراته وقناعاته عن نفسه وعن محيطه ومجتمعه.

(*) **خالد الصمدي** [رئيس المركز المغربي للدراسات والأبحاث التربوية الإسلامية/المغرب]

وقد عرف عالمنا الإسلامي تجارب عديدة في الإنتاج الإعلامي الموجه للطفل تراوحت ما بين التجارب الفردية والجماعية، والتجارب الأهلية والرسمية، استمر منها ما استمر وتساقط منها في الطريق الإعلامية المحفوفة بالمكاره ما تساقط. وتحتاج هذه التجارب التي غطت ما يقرب من نصف قرن أو يزيد، إلى دراسات تقويمية علمية متأنية ترصد المكتسبات، وتنبه إلى مكامن الخلل والزلل، وترسم خارطة الطريق في زمن العولمة والتنافسية، وفي عالم يجد فيه الطفل نفسه أمام آلاف الخيارات الإعلامية الجذابة والمغرية؛ من فضائيات وألعاب فيديو رقمية ومواقع إلكترونية على شبكة الإنترنت، يجد المقبلون على تجارب في إنتاج مجلة تربوية للأطفال يفكرون ألف مرة قبل الإقدام على ذلك، إلا أننا نؤكد أن سبل النجاح متوفرة، لكن شريطة الإلمام بالواقع وظروفه وشروطه، والاطلاع على المعايير العلمية والتربوية والفنية التي تتطلبها التجربة في عالم الوسائط المتعددة والتواصل عن بعد... وهو ما يسعى هذا المقال إلى الإسهام فيه بنصيب.

واقع الإعلام المكتوب الموجه للطفل في العالم العربي

في سياق رصد الدراسات والأبحاث التي تشخص واقع الإعلام المكتوب الموجه للطفل في العالم العربي والإسلامي، نسوق دراستين قيمتين، أولهما: الدراسة القيمة للدكتور مالك إبراهيم الأحمد في كتابه "نحو مشروع مجلة رائدة للأطفال" الصادر ضمن سلسلة كتاب الأمة في العدد ٥٩ سنة ١٩٩٨، حيث بسط تاريخ تطور

إصدار مجلات الأطفال في العالم العربي، وحدد أهم الإشكالات التي واجهت وتواجه هذه التجارب الإعلامية الموجهة للطفل في العالم العربي، مما حد من تأثيرها في توجيه الناشئة. ومن هذه الإشكالات والصعوبات التي عرضها:

• ارتفاع أسعارها في كثير من البلدان العربية قياسًا على قدرة الأطفال الشرائية.

• عدم قدرتها على منافسة المجلات الأجنبية خصوصًا في البلدان التي تسود فيها لغة أجنبية بقوة.

• ضعف التوزيع وقلة وجود هذه المجلات في المنافذ (محلات التوزيع).

• استخدامها اللهجة المحلية لبعض البلدان (حد من انتشارها).

• المستوى الفني المتدني خصوصًا في البلدان العربية الفقيرة.

• التعثر المستمر في الصدور، فيندر أن تجد مجلة عربية للأطفال تصدر بشكل منتظم منذ بدء صدورها، باستثناء المجلات التي تصدر عن مؤسسات رسمية؛ وزارة التعليم أو الإعلام فهي تصدر لفترات أطول.

• غياب المؤسسات المتخصصة بالأطفال، والتي تعنى بإصدار هذه المجلات من وجهة نظر تربوية.

• غياب المجلات الموجهة للأطفال في مرحلة ما قبل سن المدرسة أقل من سبع سنوات.

• الابتعاد عن البيئة المحيطة والأحداث العامة الجارية.

• غلبة طابع القصص المصورة على كافة مجلات الأطفال.

• اعتماد الكثير من المجلات على ترجمة القصص الأجنبية.

• غلبة العنصر التجاري على المجلات كما يظهر من مستوى المادة المقدمة.

• عدم صلاحيتها للاستخدام كوسيلة تعليمية داخل المدرسة.[١]

وثاني هذه الدراسات التشخيصية: الرسالة الجامعية التي تقدم بها الدكتور طارق البكري لجامعة الإمام الأوزاعي سنة (١٩٩٩م) لنيل شهادة الدكتوراه في موضوع "مجلات الأطفال ودورها في بناء الشخصية الإسلامية"،[٢] خصص فيها مباحث في الفصل الثالث، لرصد واقع المجلات العربية الموجهة للأطفال في سياق المجلات العالمية، والتي عرض فيها أهم الصعوبات والإشكالات التي استعرضها الدكتور "إبراهيم الأحمد"، إلا أنه يرى أن الوضع ليس بهذه القتامة، وأن هناك محاولات جادة مستمرة قدمت الكثير لإعلام الطفل العربي رغم الإكراهات، حيث يقول: "ورغم اتفاقنا إلى حد بعيد مع هذه الملاحظات، إلا أنه من خلال متابعتنا المجلات العربية الصادرة في العالم العربي، وعدد من المجلات التي توقفت نجد أن هذه الملاحظات غير دقيقة تمامًا، فهناك مجلات تستفيد من أسلوب المسلسلات المصورة لوضع نصوص تراثية مناسبة وقصص قيمة عالية المستوى... ونرى أن كثيرًا من المجلات العربية اليوم، تستخدم هذا الأسلوب بطريقة عالية الجودة من حيث الشكل والمضمون، وهو أمر في غاية الإفادة ويؤدي دوره بشكل أسرع من القصص الرتيبة أو التوجيه المباشر".[٣]

وفي سياق التشخيص نظمت "المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة" (إيسيسكو) ندوة دولية في موضوع "قضايا الطفل من منظور إسلامي"، بتعاون مع جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، في الفترة الممتدة من ٢٩ أكتوبر إلى فاتح نوفمبر (٢٠٠٢م)، ونشرت أعمالها في سنة (٢٠٠٦). وقد قدم عدد من الباحثين في هذه الندوة عروضًا متخصصة في قضايا الطفولة، ومنها البحوث المقدمة في المحور الخامس بعنوان "دور الإعلام في تنمية ثقافة الطفل من منظور إسلامي" وضمنها بحث للدكتور هادي نعمان الهيتي بعنوان "هل يحتاج الأطفال المسلمون في العالم إلى مجلة عالمية ثقافية"، حيث شخص واقع اتصال الأطفال المسلمين مقرًا بأن الطفل المسلم يشارك في هذه الحركية باعتباره مستقبلًا اتصاليًا، إلا أن ما يتاح له أقل بكثير مقارنة بالأطفال الآخرين في هذا العالم، كما أن من بين ما يتاح له لا يتوافق مع توجهات النمو الاجتماعي والنفسي، ودعا إلى بناء مشروع اتصالي يتيح لأطفال العالم الإسلامي التواصل فيما بينهم، في تجاوز لحدود الجغرافيا واللغات واستثمار لوحدة الدين والقيم، كما قدم إطارًا نظريًا محدد الغايات والأهداف لبناء المشروع.[٤]

الحاجة إلى تطوير الإعلام المكتوب الموجه للطفل

إن المتأمل في هذا الرصد المركّز لواقع الإعلام العربي الإسلامي الورقي الموجه للطفل، والمتأمل في التحديات الإعلامية والتواصلية التي تعرفها بداية الألفية الثالثة، يمكن أن يسجل الملاحظات الآتية:

١- لا توجد استرتيجية عربية إسلامية واضحة للإنتاج الإعلامي الموجه للطفل بدليل ظهور تجارب ثم اختفائها لأسباب متعددة.

٢- باستثناء بعض المنتوجات الإعلامية الموجهة للطفل والصادرة في نهاية القرن العشرين بالعراق ولبنان وسورية ومصر والمدعومة من طرف الدولة ودور النشر الكبرى، لا تكاد تجد أثرًا لما يصدر في البلدان الأخرى في سوق التوزيع في العالم العربي والإسلامي رغم أهميته وجدته، بالمقارنة مع ما يصل الطفل العربي من المنتوجات الغربية بما تتميز به من جاذبية وتسويق إعلامي إشهاري ضخم مرافق لكل منتوج استهلاكي موجه للطفل.

٣- في سياق العولمة والتنافسية والتطور الهائل في تكنولوجيا الإعلام والاتصال، أضحى عامل الإثارة والحركة والصوت والصورة بديلًا عن الورق، ولم يعد الطفل اليوم في حاجة إلى أن يقصد مكتبة لشراء قصة قد تصدر بانتظام بعد أسبوع أو شهر أو سنة وقد لا تصدر، بل أصبح يضغط على أزرار البلايستايشن أو الحاسوب، ليشاهد آلاف القصص والحكايات المصورة والمتحركة، يتفاعل معها وتستجيب لاختياراته ورغباته، وتضع أمامه فرصًا متعددة ومختلفة للعب والتسلية.

٤- إذا ما علمنا أن كل وثيقة إعلامية تحمل رسالة، فإننا ندرك خطورة الكم الهائل من الرسائل الموجهة إلى الطفل بين ثنايا الألعاب الإلكترونية، مما يجعل الحاجة ماسة إلى التفكير في منتوج

إلكتروني يستجيب لحاجات أطفالنا في العالم الإسلامي، ويحمل رسالة القيم والحضارة الإسلامية ويكون قادرًا على المنافسة.

٥- إذا ما علمنا أن الغاية الأساس من مجلات الأطفال تكمن في تزويدهم بقدرات ومهارات علمية وتربوية، فإننا نقر جدلًا بأن لهذه الوظيفة وجهين متكاملين؛ وجهًا إعلاميًّا وهو الوسيلة، ووجهًا تعليميًّا هو الغاية... إلا أن التعلم من المجلات يصنَّف في خانة التعلم الذاتي اللاصفي، وقد سعيت إلى تتبع الآثار التي تحدثها التكنولوجيا الحديثة على تعلمات الأطفال فوقفت على فقرات دقيقة الصياغة في كتاب "ثورة الأنفوميديا"،[٥] وهذه الفقرات ضمن هذا الكتاب هي بعنوان "علم أطفالك بحق"، وحين أنهيت قراءة الكتاب أحسست -فعلًا- أن العالم عن طريق الإنفوميديا يصاغ من جديد. فالرجل يتحدث عن الفصل الدراسي التخيلي وعن مدارس بلا أسوار، وعن بنية تعلمية جديدة ليست بالضرورة داخل الفصل وعن "مدارس" متعددة التخصصات. إذن هناك تغير مستقبلي في الجهاز المفاهيمي التقليدي المرتبط بقضايا التعليم بكل أنواعه، سواء التعلم الصفي أو التعلم الذاتي اللاصفي، وكل ذلك ناتج عن ثورة الإنفوميديا. يقول "فرانك كيليش": "تتيح الكمبوتيرات المتصلة بشبكة الإنترنيت لجميع الأفراد والطلاب والأسر والمدرسين والمسؤولين الإداريين، أن يعيدوا النظر في طبيعة مصطلح المدرسة... فبدلًا من التفكير في أمر المدارس، فإن تلك الأجهزة ستدفعهم إلى التركيز على عملية التعليم والتعلم، فليس من الضروري أن تتم عملية التعليم في المدارس. ويقول: "منذ ظهور

التعليم الرسمي، ارتبط التعلم بشخص واحد ومكان واحد ألا وهما المدرس والفصل، بيد أن الكمبيوترات المزودة بالوسائط المتعددة والتي تعمل على شبكات الإنترنيت، سوف تعطينا فرصة لإعادة التفكير في ذلك النموذج العتيق الذي عفى عليه الزمن، ولن يقف تعامل الكمبيوترات الواعد مع القضايا والمسائل التعليمية فقط، بل سيتعداه إلى القضايا الاجتماعية المرتبطة بها"، ومنها الوسائل التعلمية خارج المؤسسات، ومنها المجلات العلمية والتعليمية والترفيهية والتي ستنتقل بالتدريج من الورقية إلى الرقمية.

إن هذه الاستنتاجات هي التي تجعل الحاجة ماسة لإنتاج مجلات تربوية إلكترونية تفاعلية موجهة للطفل، ذات خصائص فنية وعلمية وتربوية محددة ومميزة، تحافظ على المكتسبات التي حققتها المجلات الورقية، وتتجاوز بعض صعوباتها وإشكالاتها العلمية والتربوية والفنية، وتعمل على الاستفادة من الإمكانات التقنية التي توفرها التكنولوجيا الحديثة، من أجل تحقيق أعلى درجة من التفاعل لدى الطفل مع محتوياتها العلمية والتربوية والفنية، لما يشكل ذلك من تأثير وتوجيه إيجابي لمفاهيمه وتصوراته وممارساته وفق قيمه الثقافية والحضارية.

استثمار التكنولوجيا الرقمية

إن بيان الحاجة الملحة إلى استثمار التكنولوجيا في إنتاج المجلة التربوية الإلكترونية التفاعلية الموجهة للطفل، وتحديد خصائصها التقنية والتربوية والعلمية، يظهر جليًّا من خلال المقارنة بينها وبين

ما يوجد في السوق الإعلامية من المجلات الورقية، وذلك بتحديد الجوانب الإيجابية والسلبية لكلا النوعين، حتى نضع المشتغلين بمجال إعلام الطفل أمام خيارات متعددة ومختلفة دون أن ننتصر لنموذج معين، فوحدها المقاصد والأهداف والحاجة والواقع الاجتماعي والاقتصادي، هي المحددات الكفيلة باختيار الوسيلة الأكثر فائدة في الواقع المناسب.

من هنا يمكننا أن نقول: "إن المجلة التربوية الإلكترونية التفاعلية الموجهة للأطفال، هي وسيط تعليمي ترفيهي هادف، متعدد الفقرات والمعلومات العلمية والتربوية، معد بواسطة التكنولوجيا الحديثة ذات الوسائط المتعددة، يضمن للطفل أكبر قدر من التفاعل والإنجاز لفترات أطول، ويسمح له بالاحتفاظ بالتعلمات لأطول فترة ممكنة".

وقد ظهرت منذ بداية الألفية محاولات جادة في العالم العربي لتأسيس مجلات إلكترونية تربوية، تقدم للطفل العربي مادة علمية وتربوية مناسبة لقيمه وحضارته وبيئته، تسعى إلى تنمية قدراته ومهاراته التواصلية والمعرفية، ونذكر منها على سبيل المثال: *www. nabilonline.net* و *www.adabatfal.com* و *www.majid.ae* إلى غيرها من المواقع الإلكترونية.

هذه نماذج وأمثلة من المحاولات الجادة لتأسيس إعلام إلكتروني خاص بالطفل، نحتاج إلى التعريف بها في أوساط الأطفال داخل المؤسسات التعليمية والجمعوية من أجل التفاعل معها، كما تحتاج إلى تقويم رجال التعليم والتربية والإعلام والآباء والأمهات،

بـل وحتـى الأطفال أنفسـهم، حتى يعمل القائمـون عليها على تطوير تجربتهـم مـن كافـة نواحيهـا التقنيـة والعلميـة والتربويـة والتواصلية، كـي تصبح قادرة على المنافسـة فـي خضم ملايين التجارب المماثلة الموجودة على الشبكة، والتي تسوق النموذج الغربي بحمولته القيمية والثقافية وبلغات مختلفة وبأساليب غاية في الجاذبية والتشويق.

وسـعيًا منا إلى تطوير هذه التجارب، نضـع بين أيدي المشـتغلين بالإعـلام الإلكترونـي الموجه للطفـل أو المقبلين عليه، مجموعة من الخطوات المنهجية المعينة على إعداد مجلة إلكترونية تربوية منظمة وهادفة موجهة للأطفال.

خطوات منهجية لبناء مشروع مجلة تربوية إلكترونية تفاعلية

يمكننـا تحديـد أهم الخطـوات الناظمة لمنهجيـة العمل في إعداد مجلة تربوية إلكترونية، باستخدام الوسائط المتعددة فيما يلي:

أ– مرحلة إعداد الإطار النظري للمشروع وتشمل:

• تحديـد الرؤيـة والرسـالة والمرجعيـة الفكريـة والثقافيـة الناظمة للمشروع.

• دراسة تجارب مماثلة (ناجحة مستمرة وفاشلة منقطعة)، وتحليل أسباب النجاح والفشل في هذه التجارب.

• تحليل الحاجيات ودراسة المعطيات المتوفرة في الواقـع (واقـع الإعلام التربوي الموجه للطفل).

• تحديد الأهداف العامة للمشروع.

• تحديد الفئة المستهدفة بالمنتوج، من حيث خصائصها النفسية والعقلية ومحيطها الاجتماعي والثقافي.

• تحديد الموارد البشرية اللازمة لتنفيذ المشروع (فريق عمل متعدد التخصصات: نفسية، اجتماعية، تربوية، علمية، فنية، تواصلية، إدارة وتدبير، مالية ومحاسبة).

• تحديد الموارد المالية اللازمة لتنفيذ المشروع.

• تحديد الإطار الزمني لتنفيذ المشروع (السقف الزمني العام والمراحل الزمنية التفصيلية).

• تحديد المعدات والتجهيزات الفنية والمعلوماتية المستخدمة في الإنجاز من أجهزة وبرامج.

• صياغة التصميم التفصيلي للمجلة: أبوابها ومحتوياتها العلمية والتربوية والتواصلية.

• المصادر والمراجع العلمية والتربوية والفنية.

ب- مرحلة الإنجاز العملي للمشروع:

• جمع المعطيات: نصوص وصور وأفلام وأصوات ورسومات متحركة وغير متحركة، وفق الحاجيات المحددة في التصميم التفصيلي للمجلة.

• إعداد الواجهة الرئيسية للمجلة والصفحات الفرعية، وفق التصميم المحدد في الإطار النظري للمجلة.

• بناء المحتوى وتصنيفه باستخدام البرامج والأدوات لمعالجة النصوص، وإعداد الصور والحركات والأفلام والرسومات

التوضيحية والأصوات وربطها بشكل فني مع باقي العناصر، لتحقيق الهدف المرجو من المنتوج. ويقوم المشرفون التربويون والمؤلفون، بدور هام في مراقبة ما يتم تصميمه، وطريقة عرضه من قبل فنيي ومبرمجي الوسائط المتعددة للتأكد من خدمة الأهداف التعليمية للمنتج (عمل جماعي لفريق العمل).

• وضع المحتوى المنتج داخل الأبواب التفصيلية للمجلة. وتحتاج هذه الخطوة إلى الجزء الأكبر من الجهد والوقت، علمًا بأن تهييئ المعلومات والصور والنصوص مسبقًا يساعد وبشكل كبير على تنفيذ هذه الخطوة.

• فحص المنتوج وضبطه. وتتم عملية الفحص لكل من المحتوى التعليمي والوظيفي للبرنامج، للتأكد من خلوه من القيم النقيضة لتوجه المجلة، أو الأخطاء الفنية أو العلمية، أو أي خلل في طريقة العرض أو الاستعمال، وتتم مراحل الفحص والتصحيح على المستوى الداخلي، بتدقيقه من طرف المنتجين والمشرفين المشاركين في عملية التصميم والتنفيذ، وعلى المستوى الخارجي من خلال إتاحة الفرصة لاستخدامه من طرف عينة من الفئة المستهدفة أو مشرفين وفنين آخرين.

• مسك المنتوج النهائي وإخراجه على الشكل المطلوب الذي ييسر استخدامه، مثل وضعه على قرص مدمج أو على شبكة الإنترنيت.

• تحديد آليات وطرائق التحيين والتطوير والمتابعة الفنية والتربوية والعلمية والتسويقية للمشروع.

الهوامش:

(١) مالك إبراهيم الأحمد: ''نحو مشروع مجلة رائدة للأطفال''، سلسلة كتاب الأمة، وزارة الأوقاف القطرية، عدد:٥٩، ١٩٩٨م.

(٢) طارق البكري: مجلات الأطفال ودورها في بناء الشخصية الإسلامية، ص:٢٠٦-٢٠٧، من النسخة الإلكترونية المنشورة في أكتوبر ٢٠٠٣ على العنوان التالي: www.nashiri.net

(٣) الكتاب منشور إلكترونيًّا في أكتوبر ٢٠٠٣ على العنوان التالي: www.nashiri.net

(٤) هادي نعمان الهيتي، جامعة بغداد، كلية الإعلام: ''هل يحتاج الأطفال المسلمون في العلم إلى مجلة عالمية ثقافية''؛ بحث منشور ضمن أعمال الندوة الدولية التي عقدتها المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة إيسيسكو بالتعاون مع جمعية الدعوة الإسلامية العالمية بالمملكة المغربية في موضوع قضايا الطفل من منظور إسلامي، في الفترة الممتدة من ٢٩ أكتوبر إلى فاتح نوفمبر ٢٠٠٢، ونشرت أعمالها سنة ٢٠٠٦م.

(٥) من الإصدارات الحديثة لسلسلة عالم المعرفة، كتاب ثورة الإنفوميديا الوسائط المعلوماتية وكيف تغير عالمنا وحياتك، والكتاب من تأليف ''فرانك كيليش''؛ خبير النظم والإستراتيجيات المعلوماتية بالولايات المتحدة الأمريكية ومحاضر في مستقبليات صناعة الحوسبة. وقد ترجم الكتاب إلى العربية ''حسام الدين زكرياء'' وراجعه ''عبد السلام رضوان''، وصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت في يناير ٢٠٠٠م.

الأسرة وتحديات الكلام المعاصر(*)

إن للكلام ضرورته وأسبابه ودواعيه، وله أهميته من وجه إيجابي آخر، لأن الكلام عن الأسرة هو الكلام عن كل شيء، فهو يستبطن المجتمع والأمة والوحدة والقومية والوطنية والدولة مرورًا بالقبيلة والفصيلة والعشيرة... إنه الكلام عن وجود إنسان وعن كل ائتلاف بشري: ﴿**لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ**﴾ (الأنفال:٦٣).

والأسرة هي نواة للتعدد والتوالد، هي خلية تكوين الإنسان وتشييده وإعداده، بل هي أساس صناعة الإنسان، "**ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أويمجسانه**" (رواه البخاري).

الفرد والأسرة

الإنسان يفيض من الأسرة كما يفيض الماء من القِدر، بقدر ما تكون الحرارة قوية بقدر ما يكون الفيضان قويًّا، وبالمثل فبقدر ما تكون أواصر الاجتماع قوية وروابط الزواج حقيقية بقدر ما يفيض الإنسان من قِدر الأسرة لينطلق في الزمان ويمتد في المكان: "**تكاثروا تناسلوا فإني مباه بكم الأمم يوم القيامة**" (رواه البيهقي).

(*) **أ. د. محمد خروبات** [أستاذ التعليم العالي بكلية الآداب، مراكش/المغرب]

لكن ليس كل كلام عن الأسرة هو كلام إيجابي ونافع؛ فمن الكلام ما كان أزمة، وكلما تركب هذا النوع من الكلام وتعدد كلما تركبت الأزمة وتعددت، ولذلك صح القول أن "من الكلام ما قتل"، ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ (البقرة:١٩١).

إن أشد ما تعاني منه الأسرة اليوم كثرة "الكلام" الذي يستهدفها؛ كلام اختلط فيه السوسيولوجي بالأنتروبولوجي، والسياسي بالاقتصادي، والأدبي الشاعري المجرد بالفلسفي الأكثر تجريدًا، والأيديولوجي بالسيكولوجي، ثم تحضر إحصاءات وأرقام وجداول وأحكام لا ندري ما مصداقيتها، ووسط هذا كله، تغيب خصوصية الأسرة وتتوارى المشاكل الحقيقية، فتظهر أشباح القضايا للوجود مفتعلة ومختلقة تمامًا، كأشباح مثل أفلاطون.

إن السكوت أمام هذا النوع من الكلام الذي أصبح -للأسف- فاشيًا وجارفًا، يعطي لهذا النوع من الكلام حجية وصلاحية في أن يروج ويموج، والصمت أمامه -بأي مبرر من المبررات- يشكل عجزًا، لأن الحقيقة تتوارى وتتخلف، فإذا سكت الذي يعتقد أن رأيه هو الصواب ونطق الذي يعتقد أن رأيه هو الخطأ، فمتى سيظهر الحق؟ وهل كل حق يظهر بالصمت والسكوت؟

مشاكل الأسرة

للأسرة مشاكل، ونوع من هذه المشاكل هو مصاحب لكينونتها لأنه لصيق بخصوصيتها، ومن هنا كانت هذه المشاكل من نوع العقبات التي على الأسرة أن تقتحمها، ولا نجعل منها فضاء

للمغالاة ولإطلاق أحكام جارفة، إنها في كل أسرة، فهي في أسرة العصر القديم وفي أسرة العصر الوسيط وفي أسرة العصر الحديث والمعاصر، وبكل تأكيد هي في أسرة عصر المستقبل.. إنها عقبة يجب أن تقتحم:

﴿فَلاَ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ (البلد:١١).

أمام هذه المشاكل المفترضة توجد مشكلتان مفتعلة، افتعلها هذا النوع من الكلام الذي نطلق عليه "علم الكلام الأسري"، وهو مزدوج السلبية:

الأولى: إنه ولّد خطابات مشحونة بمصطلحات غير مفهومة، كوّنها في سياق وأسقطها على الأسرة ومشاكلها في سياق آخر، فزاد إلى مشاكل الأسرة مشاكل ليست لها على الحقيقة.

الثانية: إنه يشكل في مجموعه عقبة كأداء أمام موضوع الأسرة، حيث تصبح أمامنا قضيتان: قضية الأسرة ومشاكلها التي يجب أن تحل، وقضية هذا الكلام المتراكم كيف نتعامل معه.

هنا يصبح الخطاب الإسلامي أمام جبهات متعددة:

١- كيف يقدم النصوص الشرعية ذات الأحكام الصافية من دون تحميلات أيديولوجية وتفريغات مذهبية، يأخذ الأحكام من النصوص، والنصوص من المصادر، ويفقه كل ذلك بالأسباب العلمية والطرق المنهجية؟

٢- كيف يقدم الأحكام الشرعية بالتفعيل مما تعاني منه من تعطيل، وذلك على جميع المستويات؟

٣- كيف يذب عن هذه الأحكام السلبيات التي تلصق بها، وينفي النعوت القدحية التي توصف بها، ومن ضمنها أن التشريع الأسري هو سبب أزمة الأسرة ومشاكلها.. وأن الحل يكمن من إيجاد تشريع وضعي؟

٤- ثم كيف يرصد المشاكل الحقيقية للأسرة ويتابعها على كل الأصعدة، وكيف يقدم في نفس الوقت حلولًا إيجابية ونافعة؟

إن الجواب يجب ألا يكون مجزءًا، كل قضية تعالج على حدة، بل يتم في طلقة فكرية واحدة، وهذه الطلقة تحتاج إلى حسن الرصد، وجودة المتابعة، والصبر على المطالعة، ثم الصراحة والوضوح، تلك هي محنة الخطاب الإسلامي الإصلاحي المعاصر. أما الكلام الأسري المفتعل للأزمات فهو خطاب متحرر من كل القيود، لأنه ينظر من كبوة تخصصية وأيديولوجية واحدة، وليس هذا كذاك.

إننا نتكلم في هذا الموضوع لأسباب منها:

أ- أن نكون في مستوى الحدث... فإن الخطاب الإسلامي القديم حول الأسرة لم يكن على هذا الوصف من الحدة والصرامة والصراحة، ولم يكن يتناول ذات الموضوعات التي يتناولها اليوم لسبب واحد؛ هو أن الأزمة لم تكن في الماضي وأصبحت اليوم...

فالعلاقة بين الزوجين قد تغيرت كثيرًا عما كانت عليه في الماضي، لم يكن الأقدمون يعرفون هذه المشاكل، لأن الأسرة على العموم كانت مستقرة، كل قد عرف حقوقه وواجباته وفق الشريعة الحاكمة والعرف السائد...

وليس بصحيح ما يقال إن جانب الحقوق والواجبات كان مختلًّا منذ القدم ولم يعالج إلا في العصر الحديث، وكأن في هذا العصر عقولًا والماضي لا عقول فيه، وفي هذا العصر حقوقًا والماضي لا حقوق فيه...

إن الأصل في القضية، هي أن هناك تغيرات هزت المجتمع الإسلامي بكل مكوناته، فاهتزت معه الأسرة بكل ثوابتها ومتغيراتها.

لا ننكر أن هناك مساسًا ببعض الحقوق من هذا الجانب أو ذاك، لكنه لم يصل إلى هذه الدرجة الكارثية.

ب- ضرورة تقديم علاج للمرض العضال الذي ألمَّ بالأسرة اليوم، علاجٍ لا يتم بالكلام المجرد، بل يتوجه صوب صيدلية الإسلام العامرة ليأخذ وصفتين، كل وصفة هي أسلوب علاجي ناجح: أسلوب العلاج لمن وقع، وأسلوب الوقاية لمن لم يقع، و"الفقه الوقائي" هو جانب مهم من الشريعة الإسلامية ويجب أن يفعَل.

جـ- رصد المشاكل وتحقيق الشبهات والرد على البدع والمنكرات التي تمرر عبر الفكر المُفتت لكيان الأسرة، والطامع في النيل من أصولها وخصوصيتها.

د- محاولة البحث عن مقومات السعادة وتحقيقها للأسرة، فالجانب المفقود في الأسر اليوم هو "السعادة"... فكيف نعيد هذا العنصر إلى الحياة اليومية للزوج والزوجة والأطفال؟

علم الكلام الأسري

إن "علم الكلام الأسري" هو خطاب أنثوي بطبعه، لأنه يتمركز حول الأنثى بشكل غريب، ولم ينظر إلى الأنثى في خصوصيتها المتزنة لينصفها من موقع إنصاف الرجل والطفل. فكل حق من حقوق الزوجة والزوج والطفل، يجب أن تتم من موقع النظر في حقوق كل الأطراف لا من موقع طرف واحد. ولا ندري ما الذي هيَّج بعض الخطابات الذكورية عن الأنثى، حتى أصبحت هي الفكرة الأساس لإعادة النظر في كل شيء، لأن كل شيء من التراث الإسلامي -حسب هذا التصور- كتب بعقلية ذكورية، والعقلية الذكورية طبعت ذكوريتها على كل الإنتاجات الثقافية في الحقل المعرفي الإسلامي: العقيدة والفقه وعلوم اللغة والنحو والفلسفة والتصوف... هكذا تتم العودة إلى الإنتاجات القديمة، فيحصل التكلف في البحث والتفتيش عن نص أو نصين تُبنى عليهما ما يفيد أن الخطاب خطاب ذكوري، وبالتالي فإن هناك ظلمًا للمرأة، فمن اللغة يتصيدون من ألفية "ابن مالك" قوله: "إن أصل التأنيث هو التذكير"، ويتصيدون من الفقه أن الفقهاء والأصوليين سيَّدوا الرجل على المرأة بالولاية والقوامة والتعدد، كما سيَدوه في الإرث بأن ضاعفوا حصته على حصة المرأة ضعفين، وفي السياسة الشرعية لا وجود للمرأة، لأن الشروط التي وضعوها للخلافة هي العقل والبلوغ والإسلام والذكورة، وفيمن سيخلُف النبيَّ ﷺ لم ينصرف الذهن إلى المرأة، بل إلى الرجل فقط.

أما الفلسفة الإسلامية وعلم الكلام، فسجلوا عليهما أن خطابهما يتكلم في كل شيء سوى الأسرة وحقوق المرأة والعلاقة الزوجية... فالمرأة لا وجود لها في الخطاب الكلامي والعقدي والفلسفي القديم، أما الكلام عن "الحب" في الفلسفة وحتى في الشعر العربي، فهو ذكوري المنطلق لأنه يخص الرجل أكثر مما يخص المرأة.

ويُتهم الخطاب الصوفي بدوره؛ فالحب والوجدان لا يتوجهان صوب المرأة بل صوب الروح.

وهكذا يتكلف الخطاب المتمركز حول الأنثى تأويل النصوص، ويتعسف في قلب الحقائق ليخلص في النهاية إلى أن الثقافة الإسلامية هي ثقافة متحاملة على المرأة، أقصت المرأة بالمرة، وسادت فيها الثقافة الذكورية، وطبعت بجنسية الذكور لتكون النتيجة أن المرأة في الأسرة مظلومة ومهضومة الحقوق، وأن هذا الظلم في هدر الحق سببه الموروث الثقافي، ليكون المطلب في النهاية هو تصحيح مكونات هذه الثقافة وإصلاح مسارها، إنها شبهة من نوع جديد، شبهة غريبة وشاذة لأسباب منها:

• إن هذا الكلام كله موجه ولا داعي لتبرير ذلك، فالشواهد والوقائع عليه بالعشرات.

• إنها تجاوزت الحد المسموح به في معالجة المشاكل الأسرية، لأنها تمادت إلى التراث والثقافة والهوية والتاريخ والحضارة ...إلخ.

• إن تمثلها للتراث هو تمثل ناقص وضعيف جدًّا، يغلب عليه الانتقاء والتجزيء والتأويل المفرط والتحامل.

• إن القضايا المستنبطة، لم تتحكم فيها قواعد البحث العلمي، بل سادت فيها الرغبة الأيديولوجية والمقصد التجزيئي التقسيمي، كأن المرأة طرف والرجل طرف آخر، وكأن الأسرة هي خاصة بجانب واحد من دون الآخر.

• غياب النظرة التكاملية التي تتجسد في النظرة الشمولية من موقع المصلحة العامة ومن منطلق الأصول والمرجعيات، مما يجعل هذا التصور تصورًا تدميريًّا.

لنكف الآن عن مطاردة هذا النوع من الكلام الذي لا يثبت على حال، ولنقل إن للأسرة معنى في الوجود، ولها مقومات ومبادئ تجب معرفتها، والجهل بها يوقع في مثل هذه المخازي.

فأما المعنى فهو المفهوم الذي يجب إدراكه؛ إدراكه على مستوى اللغة التي نتخاطب بها، وعلى مستوى الاصطلاح الذي يراد لها.

الأسرة لغة من "أسر" وهي الدرع الحصينة، وأسره يأسر أسرًا وإسارة: شده بالإسار، والإسار ما شد به وهو القيد، ومنه الأسير، وفي التنزيل: ﴿**نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ**﴾ (الإنسان:٢٨)، أي شددنا خلقهم. وأسرة الرجل: عشيرته ورهطه الأدنون لأنه يتقوى بهم.

أما المعنى الاصطلاحي فهو لا يبتعد عما جاء في اللغة، فالأسرة من الشدة والصلابة والقوة، ولذلك فهي أقوى ما يكون في المجتمع، وتطلق على عشيرة الرجل الذين هم تحت مسؤوليته من زوجة وأطفال وكل من كان تحت إعالته... وإنما سميت بذلك، لأنه بهم يتقوى وبهم يشتد عوده ويقوم صرحه، ولذلك كان

أهل الجاهلية كثيري الافتخار بالعشيرة والقبيلة والرهط والآباء والأنساب... وللنسب دلالته القوية هنا، فهو أساس قيام الأسرة، والأسرة هي التي تدل على النسب الحقيقي للرجل أو المرأة، ولا يوجد في أية أمة، ما يوجد لهذه الأمة من خصوصية في المحافظة على الأنساب. وفي الحديث الصحيح: "**ليس من رجل ادعى لغير أبيه** -وهو يعلمه- **إلا كفر بالله، ومن ادعى قومًا ليس له فيهم نسب فليتبوأ مقعده من النار**" (رواه البخاري)، ولذلك كانت العرب تعول في معرفة الرجل على نسبه فيقولون له: "انتسب لنا حتى نعرفك"، ولذلك يكون من المستحيل طلب النسب خارج الأسرة، فالأسرة حافظة للأنساب بل بها يتم.

وفي إطار التماس المعنى الاصطلاحي للأسرة -الذي يكاد يغيب للأسف- فإن للأسرة معالم يجب تحديدها، ومنها الصورة والسبب والمقصد والغاية والمكونات والثمرات والأصول والمرجعيات.

إن الفقه السليم لهذه المعالم من شأنه أن يعطي فقهًا صحيحًا وسليمًا لمغزى الأسرة التي نتكلم عنها.

إن صورة الأسرة هو بيت الزوجية، إذ لا توجد أسرة خارج بيت الزوجية.

وإن سببها هو الزواج، فلا أسرة بلا زواج، وإن مقصدها هو تكثير النسل، فلا نسل بدون أسرة، وإن الغاية من وجودها هي عمارة الأرض وعبادة الله وهما وظيفتان محددتان لها.

وإن مكوناتها هما الأب والأم، لا يجب النظر إلى أحدهما من موقع الآخر، بل النظر إليهما يجب أن يتم من موقعهما كزوجين.

وإن ثمرتها الأطفالُ الذين من أجلهم تأسست الأسرة:

﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ﴾ (البقرة:١٨٧).

وأما أصولها ومرجعياتها فالقرآن الكريم والسنة الصحيحة وكل ما ارتبط بالشريعة الإسلامية واستوحى منها مثل "مدونة الأسرة" وغيرها.

هذه المعالم هي التي تكوّن المعنى الاصطلاحي، لأنها تتدخل في تكوين المفهوم الحقيقي لمصطلح الأسرة. ومعالم معرفتها تغلق الباب في وجه، كما تفتحه في وجه كل فهم سليم وتصور سليم؛ وإلى جانب هذه المعالم فإن للأسرة مقومات ومبادئ.

فالمقومات تقوم على مقوّم الزمان والمكان والثقافة والتراث والحضارة والعمران، أما المبادئ فتبدأ بمبدأ التعيين والتمكين والتخطيط والتنظيم والتوجيه والإنجاز.

الطلاق أكبر تهديد على الأسرة(*)

الزواج من المراحل المهمة في حياة الفرد، وبه يُتاح للفرد أن يغدو أبًا أو أمًّا. وقد يبدو الزواج أو الأبوة أو الأمومة أمرًا عاديًّا لبعض الناس، بيد أنها تتطلب مسؤولية كبيرة كمًّا وكيفًا. ففي أثناء هذه المرحلة من الحياة يتأثر الفرد سلبًا أو إيجابًا؛ إذ تفضي مشكلات الحياة الزوجية إلى الطلاق أحيانًا. ولابد من التنويه إلى أن الطلاق أو التفكك الأسري، يؤدي إلى تحولات نفسية واجتماعية في المجتمعات. لذا يتطلب هذا التفكك في الأسرة، دراسة عميقة وتركيزًا دقيقًا من قبَل المهتمين المتخصصين.جاء عن النبي ﷺ أنه قال: "**أبغض الحلال إلى الله تعالى الطلاق**" (رواه ابن ماجة)، وهذا يزيح الستار عن مدى أهمية مؤسسة الزواج.

وتزداد نسبة الطلاق بتأثير التحوّلات والتبدّلات التي تطرأ على الحياة الاجتماعية والفردية مع الزمن. وكما جاء في السجلات القضائية التركية، فإن دعاوى الطلاق ازدادت بنحو ضعفين ما بين عامي (١٩٨٦-١٩٩٨م). ووفقًا لبيانات مؤسسة الإحصاء التركي التي تم الكشف عنها في عام (٢٠٠٦م)، أن نسبة الزواج وصلتْ إلى ٦٣٦,١٢١ بينما نسبة الطلاق بلغت ٩٣,٤٨٩، أي إنه ينتج عن كل مائة حالة زواج خمس عشرة حالة طلاق.

(*) **حسن أيدنلي** [جامعة إسطنبول / تركيا. الترجمة عن التركية: مصطفى عباس]

أكثر أسباب الطلاق شيوعًا هو عدم التوافق بين الزوجين ثم الهجر، فضلًا عن الأمراض العقلية، وضرب الزوج زوجته عمدًا، وارتكاب جريمة الزنا... وقد يتغير هذا الترتيب بتغير الأيام والأزمان.

لا ريب أن من يتتبعون الملذات باستمرار لن ينالوا السعادة الحقّة أبدًا. وإذا تأملنا في أسباب الطلاق اليوم، سنجد أنْ لا قيمة لها في حقيقة الأمر، إلا أنّها تؤدي في كثير من الأحيان إلى دمار الأسرة وتشتيت شملها. ومما لا شك فيه أن عوامل الضغوط النفسية والتغيرات الاجتماعية لها أثر بالغ في الطلاق... وإذا شبّهنا الأسرة بالكائن الحي نرى تارة الأمراض الباطنية وتارة أخرى الميكروبات الخارجية تعمل على هدم بنية هذا الكائن الحي وتدميره.

يعتقد الكثيرون أن الطلاق هو السبيل الوحيد للتخلّص من المشاكل، أو الحصول على السعادة والهناء. إلا أنهم لم يضعوا بالحسبان أنّ الطلاق إنْ خلَّصهم من مشكلة فإنه سيوقعهم في مشاكل أخرى متعددة... لذا، لا يمكن النظر إلى الطلاق على أنه بداية مرحلة جديدة وجميلة، بل يجب النظر إليه على أنه مرحلة من مراحل الحياة تغلب عليها السلبيات وتحيطها من كل الجوانب. إن الوقائع التي تحدث قبل الطلاق وأثناء الطلاق وبعده، غالبًا ما تخلق نتائج سلبية، وتؤدي إلى تفككٍ وتمزّقٍ خطير في كيان الأسرة، ومن ثم تكون سببًا في غياب الماضي المشترك والحياة المشتركة.

وقد بيّن الله تعالى في سورة الطلاق أحكام الطلاق؛ منها زمن وقوع الطلاق، ومدة العدة التي تمضيها بعد الطلاق قبل أن تتزوج

المرأة مرة أخرى، وغيرها كثير. فمن الواجب على المؤمنين أن يحرصوا أيما حرص على إدامة الحياة الزوجية والمحافظة عليها، وألا يلجؤوا إلى هذا المسار إلا إذا غدت مشكلات الأسرة الداخلية جحيمًا لا يطاق.

الجانب الروحي لدى الأسرة

الأسرة مؤسسة مقدسة وليست بضعة أفراد جمعتهم الصدفة، فالإسلام قد أعطى الأسرة من المعاني الحقيقية ما أعطى، وبيّن المقومات الروحية والديناميات الحيوية لماهية الأسرة بأدق التفاصيل... ومن الأهمية التي منحها الإسلام للأسرة، غدت الأسرة مؤسسة قوية رصينة في الحياة الاجتماعية. كما أن عقد الزواج في القرآن الكريم، يعتبر ميثاقًا أبديًّا يتطلب من الزوجين الالتزام به والشعور بالمسؤولية تجاهه، لأن حفظ نسل بني آدم، والتكاثر، والعفاف يحصل نتيجة الزواج.

عندما بيّن القرآن الكريم مدى القرب بين الزوجين، عدّ كلًّا منهما لباسًا للآخر، وهنا ينبغي لمن يقدم على الزواج أن يتذكر أنه -بهذا العقد- قد خطا خطوة دنيوية وأخرى أُخروية. وهذا ليس لغزًا محيّرًا، بل إنه أمر لابد من الانتباه إليه قبل الزواج، ومن يمعن حقًّا في بنية الأسرة وهيكلتها، يجد أنّ الطلاق لا يُلجَأ إليه إلا اضطرارًا... فعندما لا يُستوعَب معنى مؤسسة الأسرة ويدرك بحقٍّ، يُعتقد أن الطلاق أبسط وأسهل طريقة لحل المشاكل، بينما النظرة إلى الطلاق على أنه الملجأ الأول في حلّ المشاكل اليومية، مصدرها التوهم

بـأن كل شـيء سـوف يُحـلّ بالطـلاق... ويعتبـر اللجـوء إلـى الطلاق بسـرعةٍ مـن الأمـور التـي غالبًا ما تـؤدي إلى قرارات خاطئة وسـلبية، يبد أن المفضّل في مواجهة المشـاكل الأسـرية -التي يُحتمَل أن تقـع في كل أسرة- إحياء المحبة والاحترام المتبادل من جديد، والتحمّل علـى بعـض المعانـاة، والدعـاء المتبـادل، والتركيـز علـى الجوانـب الروحيـة... إن المسـؤولية الكبـرى لتكويـن كيـان الأسـرة المعنـوي والروحـي تقـع على عاتق الأبوين بالدرجة الأولى، لأن الأبوين هما من يحدد أولويات الأسرة.

وهذا الجانب المعنوي يتألف من قيم، منها التضحية والإيثار وعدم الأنانية، والتقدير، والحب، والتسامح، والتضامن والتعاون، وتأسيس السعادة والطأنينة، والصبر وعدم جرح مشاعر الآخرين بقولٍ أو فعلٍ. فإن انعدم الكيان المعنوي في الأسـرة احتلت العوامل المادية موقـع الصدارة فيها، وبالتالي فإن العوامل المادية كالمال والجمال والشهرة لا تقيـم أسـرةً، لأن اللهـث وراء الملـذات والشـهوات المؤقتة سـتهزّ حتمًا دعائم هذه الأسـرة وتشـتتها... فلن تكون الأسـرة أسـرة حقيقية إلا إذا كانت العوامل الروحية سـائدة في كيانها. فالأسـرة التي تخلو مـن المقومـات المعنوية، تكون عرضة لتعشـش الأمـراض فيها، وقد تؤدي هذه الأمراض إلى تغيير سـلوكيات الأفراد ومشـاعرهم الودية تجاه بعضهم البعض، ومن ثم إلى تغيير نظرتهم إلى الحياة يومًا بعد يوم... والأسرة التي تتغير سلوكياتها ومشاعرها، تتشابك أفرادها فيما بينهم وتخوض في صراع ظاهري حينًا، وخفي حينًا آخر... وقد ينتبه الأطفال إلى الصراع الظاهري بسهولة، فضلًا عن أنهم ينتبهون أيضًا

إلى ما يخفى من مشاكل وشقاقات بين الأسرة، ومع مرور الأيام تتولّد عند الأطفال مشاكل نفسية خطيرة. إن المقومات الروحية تمثّل دعمًا للأسرة لمواجهة المشاكل، فالأسرة تشبه البنية السليمة، فإذا كانت متماسكة صعُب تفككها، وكانت كالبنيان المرصوص لا يتصدَّع ولا ينهار بسهولة.

الطلاق سبب للأمراض الروحية

البنية الشخصية والأخلاقية هما طريق تعزيز الروابط المعنوية في الأسرة، بينما تشكِّل الأمراض الروحية التي يخسر بها الفرد الحياة الأبدية، خطرًا على الشخصية المعنوية للأسرة. ولا شك أن أفراد الأسرة الذين يقترفون المآثم كشرب الخمر ولعب القمار والزنا، يسهّلون انفكاك الأسرة. وقد تزداد السلوكيات السلبية عندما لا يراعي الإنسان حقوق الآخرين وينتهكها، بل إنها تنعكس مع الزمن على أقربِ مَن يمارس هذه السلوكيات... وإذا بالروابط الأسرية تضعف، وتتقطع بعد فترة معينة. إن المخاطر التي تهدّد الأسرة اليوم هي نفسها التي حرّمها ديننا. ففي المنزل الذي يشرب فيه الخمر -على سبيل المثال- يشيع فيه العنف والفقر والاضطرابات السلوكية، أما من يرتكبون الزنا فإنهم في الحقيقة لا يضرون إلا أنفسهم، ثم يفقدون أهمّ القيم والمبادئ تدريجيًّا... فالخمر والزنا والقمار والكذب من الأسباب الرئيسية في التنافر وعدم التفاهم داخل الأسرة؛ لأن السعادة والثقة والتضحية، لا تجتمع مع الخمر والزنا والكذب والقمار، ومن ثم تتقطع الروابط الأسرية.

الأنانية والحرص على السعادة الفردية، تعتبَر من الأمراض النفسية التي تؤدي إلى الطلاق. أمّا الذي يؤمن بالكيان المعنوي للأسرة يعكس ذلك إلى سلوكياته. فالسلوكيات التي تنشأ في جوٍّ من التضحية، تحث الآخرين على التضحيّة والتأسّي بها. أما الشخص الأناني الذي يرفض الرأي الآخر ولا يفكر إلا في مصلحته الخاصة، فهو يفسد سلوكيات الآخرين أيضًا... بعبارة أخرى إن الذين يرون التضحية يسلكون طريق التضحية، وأما الذين يرون الأنانية يقولون "لماذا سأكون أنا المضحي دائمًا" ومن ثم يبتعدون عن السلوك الإيجابي يومًا بعد يوم.

ونادرًا ما تستمر التضحية من طرف واحد، لأنها تتطلب صبرًا كبيرًا ومعاناة... والأنانية معناها تجاهل الآخرين، حيث الأناني لا يفكر إلا بنفسه، ولأنه يركّز على كلمة "أنا" دائمًا، ينعدم عنده مفهوم "نحن". كما أن الحرص على السعادة الفردية، مظهر من مظاهر الأنانية؛ فقول "سعادتي فقط ولا سعادة غيري" يؤدي إلى عزلة الإنسان ويؤدي كذلك إلى الطلاق أيضًا.

عنصر المساواة في الطلاق

لكلٍّ من الرجل والمراة واجبات وحقوق في النظام القانوني.. ولما كانت خلقة الرجل تختلف عن المرأة، اختلفت واجبات وحقوق كلٍّ منهما في الحياة الأسرية.. وقد تم تحديد هذه المسؤوليات والواجبات لكلٍّ من الرجل والمرأة تجاه أولادهما بشكل واضح.. ففي كتاب الله من سورة النساء أنّ الرجل هو رب المنزل وراعيه،

والقائم بالمهامّ الشّاقة داخل المنزل وخارجه.. وعلاوة على إدارة الرجل للمنزل فإنّ عليه تقدير زوجته ورعاية حقوقها، فالزوج مسؤول أمام الله وأمام نفسه عن صون عرضه وشرفه.. فإذا أُدّيت الواجبات والحقوق بنية حسنة في وسط أسريّ يعمّه الحب والاحترام، فلن يستاء أحد من أحد، أمّا احتلال المرأة لموقع الصدارة بإفراط وبلا ضرورة، واستغلالها حريتها الاقتصادية ورقةً رابحة تجاه زوجها، وقولها "أنا أملك المال ولا أحتاج إليك، فسأفعل ما أريد"، وغياب الاحترام والإحساس بالمسؤولية تحت اسم المساواة.. فذلك كلّه بمنزلة زرع ألغام تحت أسس الأسرة.

والمبالغة في فكرة المساواة بين الجنسين، أَدْخَل المرأة في صراع مع الرجل، فقُضِي بذلك على الطمأنينة، ونشأ خلط بين دور الرجل ودور المرأة عقِبَه نظامٌ أسريّ تشيع فيه المخاوف الاقتصادية، وأسفرت دعوة المرأة إلى العمل عن وجود أفراد في الأُسرة مستعدِّين لقطع المودَّة والانفصال المادي وإن كانت المشكلة تافهة.. فمن هذه الناحية لا ينبغي أن ننكر أنّ رياح نظرية المساواة بين الرجل والمرأة اقتلعت كثيرًا من جذور الأسر.. ولقد أثّر الإعلام على دور المرأة فغيّر فيه كثيرًا، وعُرِضَت التضحية في سبيل الأسرة على أنها سلوك بسيط ومستوى محدود، وسادت فكرة خاطئة مفادها؛ المرأة الأمية غير المتعلمة أحسن من المتعلمة المثقفة. ولكن الحقيقة أننا في حاجة إلى امرأة ترى خدمة زوجها وأبنائها واجبًا مقدَّسًا، وتحظى لدى زوجها وأبنائها بما تستحقه من احترام.

التدخل مباشرة في مشاكل الأسرة

كل عائلة من الممكن أن تمرّ بأوقات عصيبة، ومن المفيد في باب حقوق الزوجين وواجباتهما، أن يقوم كل منهما بالكشف عن أمراضه المعنويّة بأسلوب مهذب.. فأهمُّ شيء هو وجود القابلية للكشف عن هذه الأخطاء والتعبير عنها بطريقة مهذبة.. فأسلوب التعبير عن الخطأ مهمّ جدًّا في إصلاحه؛ فاستخدام التعبيرات التي توحي بتجريم المخاطَب واتهامه والتهوين من أمره، تزعجه بلا شك، فلا أحد يرفض المداخلة البناءة والمساعدة والنيّة الحسنة.. إن حرص الأزواج على مصادر الغذاء الروحي، يزيد طمأنينة الأسرة ويقوّي بنيتها بأطفال ينشأون في هذا الجوّ الروحي، ويقي الأسرة من التعلُّق المفرط بالتلفاز والحاسب الآلي والرسائل الواردة من عوالم أخرى.. فالتعلُّق المفرط بما سبق، يُعدِم هوية الأسرة ويغيَّب الشخصية الروحية لها.

ينعكس حزن الإنسان المكتئب على تصرفاته أيضًا، فالوالد، كان أبًا أو أمًّا، إذا كان غضوبًا أو ضجِرًا أو متوتر الأعصاب، فإن تصرفاته هذه تنعكس على الأسرة فتجلب لها الحزن والأسى، وها هنا تضطرب علاقات الأسرة وتتوتر وتخمد طاقتها الإيجابية.. وفي هذا الموقف يسود القلق والتوتر بين أفراد الأسرة، وما إن تمضي فترة حتى يتم أخذ القرار بالطلاق...

فنسبة ٤٠٪ من حالات الطلاق، تكون في السنوات الخمس الأولى، ولا يحدث الطلاق عند التدخل فورًا -وفي الوقت المناسب- في مشكلات تقع في الفترة الأُولى، على أن تُترك المشكلات الصغيرة

للزمن.. ومن نتائج حلّ المشكلات إبان حدوثها وترك التافه منها للزمن، أنْ تناقصت نسبة الطلاق بعد السنوات العشر الأولى إلى نصف ما كانت عليه في الخمس الأولى من الزواج.

التدخل الخارجي في شؤون الأسرة

حيث تنتشر العادات والتقاليد، يكثر تأثيرها في حياة الأبوين والأبناء، فمثلًا لا حرَجَ -البتة- في عيش الجد والجدة في منزل الأسرة، بل إنَّ لوجودهم فوائد جمَّة، وبوسعهم أن يعيشوا حيث شاؤوا في هذا المنزل أو في غيره.. كما أن تدخلهم المفرط في الحالة الأسرية، يكون بمثابة بوّابة لمشكلات كبيرة.. وكنا قد شبهنا الأسرة بالكائن الحي؛ فالمداخلات التي تحدث للكائن، يجب أن تكون إيجابية وداعمة، وهكذا الأسرة، فإنّ على أفرادها أن يقدِّموا تعليقات إيجابية دائمًا -لا سيما ما يتعلَّق بالأبوين- ويتجنّبوا السلبيات.. فما يكون بين الزوجين من غيبة أو نميمة أو شائعة أو بهتان، يجلب شرًّا مستطيرًا على الأسرة، فمن الضروري لكل أب وأم أن يحبّا ابنهما ويفكرا في سعادته، وأن يحرصا عليه أيّما حرص، فيتدخلا بطريقة إيجابية بعد زواجه إذا ما اقتضى الأمر.. فالتدخلات المفرطة وغير الضرورية، تأتي بردود أفعال بعد فترة ما، فيدخل الزوجان في صراع بسبب أهليهم.

إن مبدأ "فليقل خيرًا أو ليصمت" هنا، يتعيّن تطبيقه، أمَّا الذين يشتّتون الأسرة من أجل إيجاد زوج أفضل أو زوجة أفضل لأنفسهم، فإنهم يواجهون مشكلات عصيبة بعد ذلك، فالأهل الذين يمزقون

الأسرة ليحظوا بمن هو أفضل زوجًا كان أو زوجة، يواجهون مشكلات عصيبة فيما بعد، وسرعان ما تتفكك الأسرة بالتدخل الخارجي، وهو من أسباب الطلاق المؤسفة، وأحيانًا تتفكك الأسرة بالقيل والقال.

وفي النهاية لا ينبغي أن يُتَّخَذ قرار الطلاق البتة إلا بعد أن يفكِّر الفرد مليًّا فيما للطلاق من عواقب لا تنتهي.

كيف نربّي أبناءنا؟(*)

إن الأطفال في كل أمة يشكلون نصف الحاضر وكل المستقبل. والأمة التي تستطيع أن تبني أطفالها وفق أهدافها وتطلعاتها، هي الأمة التي تستطيع أن تحمي وجودها وتتحكم في مستقبلها. ومن هنا ينصح علماء المستقبل بإعداد إنسان الغد، وتثقيفه ثقافة مستقبلية، وتطوير قدراته الإبداعية للتكيف مع عالم المستقبل سريع التغير، حتى تتناغم التغيرات في بنائه النفسي والعقلي مع التغيرات الخارجية، وإلا فإنه سوف يشعر بالاغتراب عن هذا العالم الجديد، حيث يقع فريسة لـ"صدمة المستقبل" على حد تعبير العالِم "توفلر".

ويُعتبر الطفل هذا الكائن البشري البريء، النواة الأولى للإنسانية ورأسمال البشرية، ولهذا حض الإسلام الكبار على تربيته وتعليمه وتنشئته تنشئة صالحة، ليكون مواطنًا صالحًا تستفيد منه أسرته ومجتمعه. وترجع المسؤولية الكبرى في ذلك إلى الآباء باعتبارهم أولَ من يفتح الطفلُ عليه عينيه، وتأتي المدرسة في المرتبة الثانية باعتبارها تجربة جديدة في حياة الصبي، ففيها يؤسس الطفل لعلاقاته الأولى ولتجاربه خارج البيت، وتعد فترة التحاقه بالمدرسة للمرة الأولى من أهم الفترات في مساره الطفولي.

(*) أ. د. **بركات محمد مراد** [رئيس قسم الفلسفة والاجتماع، كلية التربية، جامعة عين شمس/مصر]

وإدراكًا لأهمية هذه المرحلة في حياة الطفل، فقد أولاها علماء النفس والتربية أهمية خاصة، لأنها مرحلة تأسيسية في بناء وتشكيل السمات الشخصية التي ستلازم الطفل طوال حياته. إن السنوات المبكرة من عمر الطفل، تمثل الفرصة الثمينة لتشكيل مكونات شخصيته وغرس بذور القدرات التي سيستمر في تكوينها طوال سنوات الدراسة، تلك الأسس التي ستصاحبه مدى الحياة. وإن النجاح الدراسي لا ينبئ به رصيد الطفل من المعارف، أو مقدرته المبكرة الناضجة على القراءة، بقدر ما تنبئ به المقاييس العاطفية والاجتماعية؛ تلك المقاييس المتمثلة في ثقته بنفسه، وأن يكون مهتمًّا، ويعرف طبيعة التصرفات المتوقعة، وكيف يكبح ميله إلى التصرف الخطأ، وأن يكون قادرًا على الترقب والانتظار والالتزام بالتوجيهات، واللجوء إلى مدرّسيه لمساعدته، والتعبير عن احتياجاته عندما يكون منسجمًا مع الأطفال الآخرين.

بصمات الطفولة في بناء الشخصية

تشكل طفولة الإنسان إحدى المحطات الرئيسة في مسيرة حياته، تاركةً عبر أحداثها وتجاربها وخبراتها وتفاعلاتها أعمق البصمات وأبعدها غورًا في بنيان شخصيته. تأسيسًا على ذلك يمكن احتساب تلك الخبرات والتفاعلات بمنزلة قطب الرحى في عملية تحديد سيرورة تطور تلك الشخصية، وترسّم مسارات تشكُّلها، فإما أن تجعل منه كائنًا اجتماعيًّا مستدخلًا معايير منظومته الثقافية متمثلًا أبجدياتها -الأمر الذي يتجسد عبر شخصية متكيفة مع المحيط متآلفة

مع عناصره- وإما أن تغرس فيه بذور التنافر والتوتر والاختلال التي تتفاعل فيما بينها، مفضية إلى بناء شخصية مضطربة معقدة تتنازعها تيارات الانحراف والاعتلال.

في ضوء ذلك، ينبغي إيلاء تلك المرحلة أقصى درجات العناية والحماية، وإحاطة الأطفال خلالها بمناخات إيجابية صحية تضمن لهم النمو السليم المتكامل بمختلف أبعاده الجسمية والنفسية والعقلية والاجتماعية. إن الطفولة مرحلة نمو يتصف بها الأطفال بخصائص وعادات وتقاليد وميول، وأوجهِ نشاطٍ وأنماط سلوكٍ أخرى متميزة، ولهم في كل مجتمع مفردات لغوية متميزة، وعادات وقيم، وطرق خاصة في اللعب، وأساليب خاصة في التعبير عن أنفسهم وفي إشباع حاجاتهم، أي إن هناك ثقافة للأطفال يجب دائمًا تنميتها والعمل على ترقيتها.

تقدم المجتمع مرهون بثقافة أطفاله

إن الثقافة ضرورية للطفل، بل إن تقدم المجتمع مرهون بثقافة أطفاله، وبقدرتهم على اكتساب المعارف الجديدة، والقيم الأخلاقية والاجتماعية والتربوية الأصيلة. فالطفولة هي أساس الأمة وعليها يقوم بنيانها وازدهارها أو ضياعها، لهذا اهتمت الأمم بالأطفال واعتنت بهم، وجعلتهم همها الدائم وشغلها الشاغل كي تبني شخصية الطفل ثقافيًا. كما أن شخصية الطفل لن تكون متزنة وتامة إلا إذا أولينا فكره وعقله من العناية مقدار ما نولي جسمه حتى ينشأ متكاملًا معافى متزنًا.

مـن هنـا تأتـي أهميـة الرؤيـة التربويـة النبويـة؛ فقد سـبقت الرعاية النبويـة للأطفـال كل المواثيـق والأعـراف الدوليـة، والنظريـات التـي تتحـدث عـن تربيـة الأطفال وحقوقهـم ورعايتهم بقـرون طويلة، ولا تزال التقاليد والآداب الراسـخة التي أرسـاها النبي الكريم محمد ﷺ، هـي الأجـدى والأنفـع في بناء الإنسـان السـليم نفسـيًّا وعاطفيًّا. فقد اهتـم الإسـلام بحقـوق الطفـل، حتى حقـه في أن يختـار الأبُ زوجة ذات دين أمًّا صالحة تحسـن رعاية الأولاد وحضانتهم، حتى إنه من حـق الطفـل أن يختـار لـه أبوه اسـمًا لا يتـأذى أو يخجل منـه إذا كبُر، وحقه أيضًا في الرعاية والتدليل والختان إذا كان ولدًا.

لكـن هـذه الرؤية الإسـلامية لا تتعـارض مـع التطـورات العصرية في التربية؛ ففي عالـم الانفجار المعرفي والسكاني حيث تزداد سرعة التغير، فإن حقائق الماضي -غالبًا- لا تكفي لحل مشكلات الحاضر والمسـتقبل، مما يسـتلزم مـن عالمنا المعاصـر أن يبحث عن مداخل جديـدة للخبـرة، حيث يصبـح للتفكير الإبداعي أهميـة اجتماعية في هذا العالـم. فإذا أراد الإنسان أن يحيا بالصورة التي يرضاها لنفسه في عالـم الغد، فعليه أن ينشئ أطفاله على أن يحققوا إمكاناتهم الإبداعية إلى أقصى درجة ممكنة.

إن عصـرًا سـمتُه الأساسـية أنه عصـر العلـم والتكنولوجيا، يصبح الإبداع فيه مطلبًا لا مناص منه لمن أراد أن يجد لنفسه موقعًا متميزًا علـى خريطـة عالـم يتقدم من خلال وثبـاتٍ علمية كيفيـة تتجاوز كل قـدرة علـى التنبـؤ -والإبـداع فـي صميمـه تجـاوز للمألـوف- وهـذا التجاوز لا يتحقق إلا من خلال مسايرة التيارات الكوكبية التي تنشغل

في كثير من الأحيان بتعليم الطفل، باعتباره حجر الزاوية في المجتمع الكوكبي الجديد، حيث الأطفال فيه، هم قادة المستقبل في إحداث التغيير المطلوب، ولا يتأتى ذلك إلا عن طريق تعليمهم وتدريبهم على إنتاج المعرفة بدلًا من تدريبهم على أن يكونوا مستهلكين، وهو ما يقتضي إطلاقَ العنان لخيال أطفالنا، حيث إن "العلم ثمرة الخيال"؛ فعندما نسمح لأطفالنا بالدهشة التي هي جوهر الإبداع، ولا نقهر في داخلهم روح التساؤل، ولا نضع حدودًا لتعطشهم المعرفي، ولا نحبط داخلهم أي نزوع صوب البحث والتنقيب والاستكشاف... نكون قد بدأنا بوضع الجذور الجنينية لجيل بمقدوره أن يحدث التغيير الإبداعي المطلوب.

كما أنه لابد من تضمين ثقافة الطفل حقيقة العلم وقوة سلطان منهجه، وتوظيفه لخدمة الإنسانية العالمية التي تتجاوز الشعوب والأفراد والأمم، خاصة وأن العلم الذي نقل البشرية من طور إلى آخر، هو الذي يقوم حاليًا بإيجاد عالم جديد ولحظة تاريخية مختلفة كل الاختلاف عن كل ما هو قائم حتى الآن. لقد تحول العلم والثورات العلمية إلى قوة من القوى الكاسحة التي تصوغ الأحداث، وتشكل المستقبل، وتعيد ترتيب أولويات الدول والمجتمعات والأفراد. فمن يمتلك هذه القوة ويحسن توظيفها، يمتلك أساسًا مصيره ويتمكن من التأثير في الآخرين، بما في ذلك القدرة على إدارة العالم سياسيًا واقتصاديًا وتوجيهه ثقافيًا.

التربية مع التعليم(*)

يروى في إحدى الحكايات الشهيرة، أن أحد الخلفاء حضر مناظرة اختلف فيها الفلاسفة مع العلماء حول: ما الذي يغلب على الإنسان، الطبع أم التطبّع، الأصل أم التربية؟ أما الفلاسفة فقد زعموا أن التطبّع عند الإنسان يغلب الطبع، وبقوا طول المناظرة مصرّين على أن التعليم يروّض الطبع البشري ويتغلب عليه. وأما العلماء فقد ذهبوا إلى أنه بالرغم من التعليم فإن الإنسان يغلب عليه هواه وطبعه، ولا سيما في أوقات الشر والحرب والفوضى والفتن، وأنّ الطبع كان دائمًا أقوى من التعليم المجرد وخاصة في مثل تلك الأحوال؛ وذلك لأن الطبع هو باطن الإنسان الثابت الذي لا يقبل التغيير، فهو ما "يجري مع الدم في العروق". وعليه فإن العلماء ميزوا بين التعليم وبين التربية، وأكدوا على أن حسن التربية مع التعليم المتين، هما فقط اللذان يمثّلان مجتمِعَين فتحة التصريف الجيدة التي تخفف من حدة تدفق الطبيعة البشرية المجرّدة.

وبعد أن أنصت الخليفة بإمعان لكلا الطرفين، طلب من كل منهما أن يأتي بدليله. وفي الليلة التالية أحضر الفلاسفة معهم هِرّة قد دُرِّبت على المشي منتصبة، ورافعة رجليها الأماميتين وهي تمسك بكوب مملوء بالشاي فتُقدِّمه للحاضرين. وأرادوا بذلك أن يبرهنوا على

(*) **أنس كاريتش** [كلية الدراسات الإسلامية، سراييفو/البوسنة والهرسك]

أن التعليم أهمُّ من الطبع. وفعلًا قامت الهرّة بتوزيع ذلك المشروب المفضل على الحاضرين، وبدا الأمر وكأن العلماء سيخسرون المناظرة، ولكنهم رغم إعجابهم بما أبدته الهرّة من مهارة، طلبوا من الخليفة أن يسمح بعقد جلسة أخرى في الليلة التالية، وأن تُظهر فيها الهرّة مرة أخرى المهارات التي دربها الفلاسفة عليها. وفي الموعد المحدد، انطلقت الهرّة توزع أكواب الشاي على الجالسين، وإذا بالعلماء يُخرجون عددًا من الفئران ويطلقونها أمام الهرّة، فما كان من الهرّة إلا أن رمت بأكواب الشاي وانطلقت تطارد تلك الفئران.

هذه الحكاية حول نظرية التربية والتعليم، تتحدث وبعمق شديد عن المسائل الرئيسة التي تطرح مع بداية ونهاية كل إجراء تعليمي وكل إجراء تربوي. فهل ينحصر دور الأسرة والمدرسة والعمليات التعليمية في تدريس الإنسان وتعليمه؟ أم يجب عليها في نفس الوقت أن تربيه وتوقظ في طبيعته كل ما هو نبيل؟

التعليم الجماهيري

إن جميع أديان وثقافات العالم تطرح هذا السؤال، ولكن الأديان والثقافات ذاتها هي في الوقت نفسه إجابات عن هذا السؤال. وفي زمان العولمة الذي نعيشه، فإن هذا السؤال يقع في محور حياة الكثير من المجتمعات، ولا سيما في تلك المجتمعات التي نشأت على أيديولوجيات التنوير، لأن القرنين التاسع عشر والعشرين قد جلبا -ولأول مرة في التاريخ- ظاهرةً لم يَعد معها التعليم مقتصرًا على النخبة من العلماء والرهبان والأعيان والنبلاء والحكام.

لقد أصبح التعليم المدرسي في القرنين الماضيين مُيَسَّرًا في كل مكان ومتاحًا للجميع، وهذا أمر ما كان ليتسبب بأي شر لولا أنَّ هذا التعليم قد فُرِّغَ من محتواه التربوي، ولولا أنه تحول إلى الشكل الجماهيري، أي إن العلم صار في القرون الحديثة يُنقل إلى التلاميذ والطلاب والناس جميعًا بطرق جماهيرية؛ بحيث صار يُنظر إليهم على أنهم مجرد جمهور وحشد. وبما أن الجمهور يمثل مفهومًا جسديًّا فإن صور الأفراد لا تُرى فيه، بل إن الصور والخصوصيات الفردية تضيع فيه تمامًا. لذا فإن الأيديولوجيات على اختلافها وتنوعها في القرنين الأخيرين -سواء في الغرب أو في الشرق- ولا سيما تلك التي نجحت في الوصول إلى السلطة، قد وضعت في برامجها السياسية شعار "تعليم الجماهير الشعبية"، ولم يبق سوى خطوة واحدة صغيرة ليتحوَّل "تعليم الجماهير الشعبية" إلى "ترويض الجماهير الشعبية".

ومن المعروف أن الأنظمة الاستبدادية التي نجحت في الوصول إلى الحكم قد خطت تلك الخطوة. ولكن الأمر لم يتوقف بالتعليم الجماهيري عند تحويل الطلاب والمتلقين للعلم إلى حشد وجمهور، بل تم تحويل العلم نفسه إلى جمهور، بحيث صار يُنقل في صيغة كتلة من الحقائق المعزولة والمتفرقة عن كل فن من فنون العلم؛ فالفيزياء مستقلة بنفسها، والكيمياء مستقلة بنفسها، وعلم الأحياء مستقل بنفسه... وهكذا تحولت العلوم كلها في القرنين التاسع عشر والعشرين إلى علوم مستقلة وذَرِّية. إن التعامل مع العلم على أنه حشد من الحقائق يتم نقله عن طريق وسائل التعليم الجماهيري

إلى ملايين من التلاميذ والطلاب، ويتم توزيعه على انفرادٍ داخلَ كل فن من فنون العلم التي تفرقت فيما بينها مع مرور الزمن، إن هذا النوع من التعامل قد أدى إلى نتائج رهيبة، حيث لم يَعُدْ العالم -من وجهة نظر التعليم الحديث- كيانًا واحدًا متكاملًا، بل مزقته العلوم تمامًا. وهكذا نجد على مدى القرنين الأخيرين أن أنظمة التعليم الجماهيري هذه، قد أَهملت أكثر فأكثر تربيةَ التلميذ أي تربيةَ الفرد.

تجريد التعليم من التربية

إن الحضارات القديمة كانت تتمركز على ضفاف الأنهار وسواحل الخلجان البحرية الصغيرة، وإن التعليم الحديث وما أنتجه من حشود بشرية متعلمة ولكنها غير متربية، قد سمَّموا تلك الأنهار والخلجان، ولا يوجد عاقل واحد ينفي حقيقة أن التعليم الحديث الذي جُرِّدَ من عنصر التربية، لم ينتج سوى جيش مُرَوَّضٍ من العلماء المفتقرين ليس فقط إلى الإحساس بالحياء من الطبيعة، بل وإلى أدنى تفكير بإمكانية وجوب اشتغال الكيمياء والفيزياء مثلًا بقضية أن يشعر العلماء بالحياء أمام الطبيعة وروعتها وعذريتها.

وإن دَلَّ هذا على شيء فإنه يدل على أن مناهج التعليم الجماهيري بتجريدها للتعليم من عنصر التربية، قد أوصلتنا إلى معرفة متحللة من المسؤولية إلى حَدّ الوقاحة والغطرسة.

فالإنسان المتعلم وغير المسؤول يشبه تلك الهرّة المُدَرَّبة التي تحدثنا عنها في بداية هذا المقال. إن إنسانًا بهذا التعليم، وإن إنسانيةً بهذا التعليم، بل إن هذا التعليم ذاته، سوف يتقهقر ويكون دائمًا

الخاسر أمام تدفق الفطرة المجردة. ولكن جموح هذه الطبيعة البشرية المجردة، المتسلح بهذا التعليم المنفلت من أية مسؤولية، لَيُمثل خطرًا أكبر بكثير من اندفاع تلك الطبيعة عند "بربري" غير متعلم. ولقد تحدث "جلال الدين الرومي" عن الإنسان المتعلم وفاقدِ التربية، وكيف أنه يستفيد من عقله تمامًا كما يستفيد اللِّص من الشمعة وهو يَسرق.

هذا وإن التعليم الجماهيري والمدارس الحديثة تستقبل التلاميذ بمختبرات مرتبة، ومناهج تعليمية، وكتب مدرسية فعّالة، ولكن الكتب المدرسية في الفيزياء الحديثة لا يوجد فيها ذكر للحياء، كما أن الكتب المدرسية في الكيمياء الحديثة لا تحتوي على كلمة واحدة عن الخجل، أما الكتب المدرسية في علم الأحياء فلا يوجد فيها ولو مجرد إشارة إلى التواضع. ويمكننا أن نسرُد بالتسلسل أسماء كافة العلوم المعروفة في عالمنا اليوم، ويمكننا دائمًا أن نصدر حكمًا قطعيًّا على أن الكتب المدرسية التي تقدم تلك العلوم، لا تتضمن أي ذِكر للثوابت التربوية والأخلاقية، ناهيك عن أنْ تكون تلك الكتب مصَمَّمة وفقًا لتلك الثوابت. وهذا يدل على أن تلك الكتب المدرسية تَقرأ الطبيعةَ عمومًا والطبيعةَ الإنسانية خصوصًا وكأنها آلة، ولا تَقرأ على صفحاتها المتعددة ذلك الهدف السامي الموجود وراء مستويات العالم التي ندركها بالعقل.

إن كتب الفيزياء والكيمياء والأحياء لم تُفَرَّغْ من الحياء والخجل وتأنيب الضمير فقط، بل إنها فُرّغت من الروعة والجمال والخلود

ومن العالم والطبيعة. على سبيل المثال، نجد أن التعليم المعاصر ما عاد يندهش أو يعجب من طبيعة الماء البديعة، ومنذ فترة بعيدة والتلاميذ والطلاب يدرسون الماء على أنه مجرد ثروة صناعية! ويدل هذا على أن تلك الكتب المدرسية العصرية تُعَلِّم ولكنها لا تُرَبِّي. والتربية قبل كل شيء، تعني الاعتراف بالهدف السامي والسبب الرفيع للتعلُّم والعِلم والتعليم. إن التربية تقوم على الثقافة، والثقافةَ تقوم على الدين، والدينَ يقوم على المَقصد الأخير ألا وهو الله ﷻ.

إن معرفة القوانين الهيدروليكية ومعرفة إقامة شبكة المياه أمر يستند إلى التعليم، أما الاغتسال بالماء فمرَدُّه إلى التربية والثقافة، كما أن معرفة صيغة الصابون وصناعته أمر علمي، أما استخدام الصابون عند الحاجة فهذا مَرَدُّه إلى التربية.

روح الإنسان والتربية

إن الأنظمة العصرية لابد لها -عاجلًا أو آجلًا- أن تستعيد في ذاكرتها المناقشات الكلاسيكية حول روح الإنسان والتربية، ولابد لها من العودة إلى معلّمي الإنسانية القدماء الذين حدّدوا مجال التعليم ومجال التربية. وكما أن التعليم تدريب للقدرات الذهنية، فإن التربية تنوير للضمير الداخلي وتنوير للقلب ذاتِهِ، ولذلك فإن التعليم والتربية جانبان متساويان ضروريان لاعتدال الإنسان الروحي.

ولكن التعليم الحالي يعاني من خلل كبير في التوازن بين هذين الجانبين، لأن التعليم بدون تربية يتحول إلى قوة هدّامة تهيمن

على الطبيعة وعلى المجتمع البشري، أما التربية المجردة عن التعليم فرغم أنها تؤدي إلى الاستقامة الأخلاقية، إلا أنها مع مرور الزمن تضعف وتتحول إلى المواساة كملجإٍ وحيد يُلجأ إليه.

إذن، عند إقامة التوازن من جديد بين ذاك "كيف نتعلم" وذلك "كيف ينبغي" و"كيف نحسن صنعًا"، لابد لنا أن نستحضر في أذهاننا أن التعليم والتربية ليسا عمليتين يكتسبهما الإنسان دفعة واحدة إلى الأبد، بل إن التعليم والتربية عمليتان مستديمتان ومتجددتان ينبغي دائمًا الرجوع إليهما والسهر عليهما.

وعندما يتعلق الأمر بالتربية والتعليم، فإن السؤال الرئيس الذي سنبحث عن إجابة له في القرن الحادي والعشرين هو: كيف التوصل إلى التعليم المربّى، وكيف نحقق التربية المتعلمة؟ والبشرية التي تنجح في التوصل إلى هذه التركيبة ستكون هي البشرية السعيدة.

أبناؤنا وشعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر(*)

لعل مما يلفت النظر في وقتنا الحاضر، أن كثيرًا من التربويين والدعاة الكرام، يتحدثون كثيرًا عن العديد من القضايا التربوية، ويتطرقون إليها بصورة مباشرة -أو غير مباشرة- في دروسهم ومواعظهم وأحاديثهم، إلا أنهم ينسون -أو يتناسون- الإشارة في ذلك كله إلى جانب تربوي هام في حياتنا؛ ألا وهو الجانب المعني بتربية النشء على مبدأ "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر". وحتى أولئك الذين يزعمون أنهم خُبراء في تطوير الذات والتنمية البشرية، فإنهم قليلًا -إن لم يكن نادرًا- ما يقومون بتنظيم وتنفيذ برامج خاصة بتنمية شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لدى الصغار من أبناء المجتمع، ولا سيما أن هذا الجانب على قدرٍ كبيرٍ من الأهمية، ويستوجب ضرورة العناية والاهتمام بهذه النوعية من البرامج التربوية التي لا شك في ضرورتها وأهميتها، ودورها الفاعل في غرس هذا المبدأ الإيجابي، وتنميته في النفوس، حتى يمكن لها أن تتشربه، وأن تعمل به، وأن تُطبقه في واقعها وتُترجمه في كل جزئيةٍ من جزئيات الحياة.

(*) **صالح بن علي أبو عراد** [كلية التربية، جامعة الملك خالد/المملكة العربية السعودية]

ومن هنا فإنه ينبغي أن تتم تربية الأولاد على العناية والاهتمام بشعيرة "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"، واحترامها والحرص عليها على اعتبار أنها تُعد من أهم وأبرز مقومات التربية الإسلامية الشاملة التي لا يمكن أن تقوم تربية الفرد والمجتمع المسلم دون توافرها قولًا وعملًا، والتي لابد من الحرص على أدائها، واقعًا تطبيقيًّا على النحو الإيجابي الصحيح الذي يقوم في الأصل على مبدأ التواصي بالحق والتواصي بالصبر، وهو ما أكّده القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**وَالْعَصْرِ ۞ إِنَّ الإنسان لَفِي خُسْرٍ ۞ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ**﴾ (العصر:١-٣).

أما الكيفية التي يمكن أن تتم من خلالها التربية على شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فليست كيفيةً واحدةً معينة، ولكنها تختلف باختلاف الظروف والحالات، وتتنوع بتنوع الأزمنة والأمكنة، وتتباين بتباين الأسباب والمُسببات وإن كانت في ذلك كله تعتمد على عنصرين أساسيين هما "العلم النافع"، و"العمل الصالح"، فلا علم بلا عمل، ولا عمل بلا علم.

ولعل خير شعارٍ يُستدل به على تلك الكيفية، ما جاء على لسان شيخ الإسلام "ابن تيمية" ﷺ الذي وصف كيفية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في عبارة شاملة جامعة شافية وافية قال فيها: "ليكن أمرك بالمعروف بالمعروف، ونهيك عن المنكر بلا منكر".

ولعل مما يُلفت النظر في هذا الشأن، أنه ليس هناك عمر زمنيٌّ محددٌ لتربية أبناء المجتمع المسلم على هذه الشعيرة الإسلامية

السامية، فهي في مراحلها الأولية وصورها المبدئية تبدأ معهم منذ نعومة أظفارهم، وتظل مُستمرةً معهم بشكل مُتدرج، فهُمْ يتشربونها شيئًا فشيئًا حتى تصبح فصلًا ثابتًا في نظام حياتهم وواقعهم الذي يعيشونه. ولا سيما أنها في حقيقتها تُعدّ صفة من الصفات الإيجابية المميزة للإنسان المؤمن، الملتزِم بتعاليم الدين وتوجيهاته وهديه القويم في كل شأن من شؤون الحياة، وكل جزئية من جزئياتها، انطلاقًا من قوله تعالى: ﴿**وَالمؤمنون وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ**﴾ (التوبة:٧١).

وفيما يلي إلماحة عن أبرز الانعكاسات التربوية التي يمكن أن تتحقق على شخصية الإنسان المسلم عندما تتم تربيته منذ بداية نشأته على التمسك بشعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والمحافظة عليها في واقع حياته، وهي انعكاسات رئيسة تتمثل فيما يلي:

• تحقق معنى "الخيرية الإنسانية" التي تجعل من الإنسان خيّرًا لا شرّيرًا، ومُحبًّا للخير وأهله، ومجتنبًا للشر وأهله، سواء أكان ذلك على مستوى الفرد أو الجماعة أو الأمة، وهو ما أخبر الله تعالى عنه في قوله: ﴿**كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ**﴾ (آل عمران:١١٠).

وهنا يلاحَظ قوة ارتباط تحقق مبدأ الخيريّة من خلال أداء شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقيام بها انطلاقًا من دائرة الإيمان الحقيقي بالله تعالى.

• تحقق صفة "الصلاح والإصلاح"، إذ إن التربية على شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقيام بها على الوجه الأكمل بين أفراد المجتمع، تُعدّ من دلالات الصلاح الاجتماعي الذي يؤدي إلى الاتصاف بصفات الصالحين، سواء على مستوى الفرد أو الجماعة، وهو ما يؤكده قوله تعالى: ﴿**يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ**﴾ (آل عمران:١١٤).

ومتى ما حصل ذلك الصلاح، تحقق أحد أبرز أهداف التربية الإسلامية العامة التي نعلم جميعًا أنها تسعى في مجملها إلى إيجاد الإنسان الصالح المُصلح في كل زمان ومكان.

• تحقق معنى "التمكين في الأرض"، وما يتبع ذلك التمكين من النصر والعزة والرُقي لمن يتحلى بهذه الشعيرة العظيمة، ويقوم بأدائها، ويتخلق بأخلاقها، ويتأدب بآدابها، ويتمسك بتعاليمها ومقتضياتها في مختلف شؤون حياته الدينية والدنيوية، انطلاقًا من قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ**﴾ (الحج:٤١).

فمن أمر بالمعروف ونهى عن المنكر، حصل له -بإذن الله تعالى- التمكين، وتحققت له العزة في الدين والدنيا، أما إذا لم يُرَبّ الإنسان في صغره على احترام شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والعناية بها في مختلف شؤون الحياة، فلا شك أن حياته ستكون حياة ضائعة ومليئة بالمشكلات والمنغصات... ولا سيما أن فقدان

هـذه الشـعيرة يـؤدي بـكل تأكيـد إلى فقـدان الأمن والأمـان، وانعدام الصدق والأمانة، وانتشار الظلم والفساد... وبالتالي فإن تربية الإنسان تضطرب ولا تسـتقر، وحياة المجتمـع ترتبك ولا تنتظم، وتفتقد إلى كثيـر مـن المقومـات الحياتية التي لا غنى للإنسـان عنها في أي زمان وكل مكان.

إذن يجـب أن يكـون لمبـدأ الأمـر بالمعـروف والنهي عـن المنكر نصيبًـا وافـرًا مـن الاهتمامـات التربويـة والدعويـة، ويجـب أن تكـون العناية به فعليةً لا قولية، ومنطلقة من الإدراك لحقيقة ما يترتب على وجـود هـذا المبـدأ التربوي مـن المصالـح والمنافـع على المسـتويين الفـردي والمجتمعـي، ويجـب أن يحرص الجميـع على التعامل مـع هذا المبدأ التربوي من منظور إيجابي، والله الهادي إلى سواء السبيل.

أطفالنا وثقافةُ الأُمّ التربوية(*)

يُقصَد بالثقافة التربوية للأُمّ الجوانبُ التربوية التي تكتسبها، وتشكّل تصوُّراتها ومفاهيمها لدورها التربوي تجاه الأبناء. وتتعدد جوانب هذه الثقافة، فمنها ما يتَّصل بالصحَّة وأساليب التغذية السليمة، وما يتَّصل بالتربية الروحية والخُلُقية أو الأساليب التربوية الصحيحة لتربية الأبناء، وغير ذلك مِمَّا يتَّصل بفنون الأمومة ومهاراتها.

ثقافة التغذية والصحَّة

تُعَدُّ ثقافة الغذاء والصحَّة أحد أهَمِّ جوانب الثقافة التربوية للأُمّ. ويكتسب هذا الجانبُ أهمِّيتَه، من أثره المباشر في الجانب الجسمي والصحي للأبناء، "وتمثل هذه الثقافة مكانة خاصة في جميع دول العالم الثالث التي تفتقر إلى البيئة الصِّحِّية السليمة، حيث تغلب الأُمِّيَّة والجهل على أسس الحياة الصِّحِّية والغذائية"(١).

من ثَم يصبح من الضروري رفع مستوى ثقافة الأُمّ في التغذية والصحَّة وإلمامها بعلوم التغذية "التي تهتمّ بعلاقات الغذاء بصِحَّة الإنسان أو المجتمع، وبالعمليات الحيوية التي بواسطتها يستعمل الإنسان الغذاء للمحافظة على حياته ونموِّه وحيويته والفاعليَّة الكاملة لأعضاء جسمه"(٢).

(*) **أحمد مختار مكي** [أستاذ مساعد أصول تربية / مصر]

يجب على الأُمّ معرفة المكونات الرئيسية للغذاء، والكميات المطلوبة لإحداث النموّ الطبيعي للأبناء في مراحل العمر المختلفة، والإلمام بالقواعد العامة للصِّحَّة والعادات الصِّحِّية التي تُسهِم في الوقاية من المرض، وكيفية التصرُّف السليم في حالة تعرُّض أحد الأبناء للمرض، "وعلى الأُمّ أن تُكسِب الأبناء الطريقة الصحيحة لتناوُل الطعام، والنظافة الشخصية والبيئية، وتكوين عادات النَّوم واليقظة"[٣]. ولا تستطيع الأُمّ أن تفعل هذا إذا لم تمتلك من الثقافة التربوية ما يؤهِّلها لهذا الدور.

ومعرفة الأُمّ بالطاقة أو السعرات الحرارية اللازمة لكل فترة عمرية لها أهميتها، لأن كثيرًا من الأسر يُنفِق الكثير من دخلها على الغذاء، ومع ذلك يُصاب أفرادها بأمراض سوء التغذية، لعدم معرفة ربة المنزل بالشروط الواجب تَوافُرها في الغذاء الصحي، والتي تتمثَّل في "أن يحوي كل العناصر الغذائية الضرورية بكميات كافية، وأن يحوي كمية كافية من السوائل، وأن يكون سهل الهضم، وأن يكون خاليًا من الموادّ الضارة بالصحَّة، وأن يكون متنوِّعًا وفاتحًا للشهِيَّة ومقبولَ الشكل"[٤]. وتنتشر أمراض سوء التغذية بخاصة بين أطفال الدول النامية، ويعرَّف سوء التغذية بأنه "الحالة الناتجة عن كلٍّ مِن الإفراط والنقص في التغذية لمدة طويلة من الزمن، والنقص في التغذية ينجم عن الحالات الناتجة عن استهلاك غذاء لا يوفي باحتياجات الجسم لمدة طويلة من الزمن، ومن أهَمّ مظاهرها الهزال والأنيميا والعمى الليلي"[٥].

وكثير من الآثار يترتَّب على سوء التغذية، الذي يُعَدُّ جهلُ المرأة بعلوم التغذية، السببَ الرئيس في انتشاره بين أفراد الأسرة والأطفال، خصوصًا أنه "من السنة الثالثة حتى السادسة، يؤثِّر سوء التغذية في نموّ الطفل بشكل واضح بحيث يبدو الطفل سليمًا، ولكن وزنه أقل من الوزن الطبيعي لمن هم في نفس سِنِّه، ويبدو جسمه غير متناسق فيكون الرأس كبيرًا بالنسبة إلى الجسم، والساقان نحيفتين، وحجم القفص الصدري صغيرًا بالنسبة إلى البطن"[٦].

يجب أن تدرك الأُمّ أيضًا، الأضرارَ التي تسبِّبها الموادُّ الحافظة والألوان على صحة الأفراد، "هناك إضافات متعمدة لأغراض التصنيع والحفظ، مثل إضافة الموادّ الحافظة كالنترات والنيتريت إلى اللحوم ومنتجاتها، والموادّ المضادة للأكسدة إلى الزيوت والدهون لإطالة عمرها التسويقي. وعلى سبيل المثال: "إن استعمال النترات والنيتريت في اللحوم ومنتجاتها، قد يؤدِّي إلى تفاعل النيتريت مع بعض الأحماض الأمينية، ويَنتج عن ذلك مركب النيتروزامين الذي يسبِّب سرطان المعدة"[٧]. والألوان الصناعية التي تضاف إلى الغِذاء، بخاصة أغذية الأطفال، "تسبِّب حساسية أو تقلِّل قدرة الجسم على احتمال الغذاء"[٨]. وتتعدد الأخطار الناجمة عن استخدام محسِّنات الطعم واللون والموادّ الحافظة، مِمَّا يستدعي أن يكون لدى الأُمّ ثقافة بهذه الأخطار، كي تحمي أفراد أسرتها من الأمراض الناجمة عن هذه المأكولات.

رغم أهمية ثقافة الغذاء والصحَّة للأُمّ للقيام بدورها تجاه الأبناء، فإن هناك الكثير من العوامل التي تؤثر في هذا الدور مثل: المستوى

التعليمي للأُمّ، ومستوى دَخْل الأسرة، والعادات المجتمعية المتعلقة بالغذاء.

الثقافة الدينية والخُلُقية

إلمام الأُمّ بالثقافة الدينية والتربية الخُلُقية له أهميته، فإن "تنمية القيم الخُلُقية والتوجهات الدينية بشكل معتدل بعيدًا عن التعصُّب، من أهم الجوانب التي يجب اتباعها في تربية الأبناء"[٩]. يرى البعض الدينَ "ظاهرة اجتماعية تدخل في علاقة تفاعلية مع الوحدات الاجتماعية الأخرى المكونة للمجتمع"[١٠]، وهذه الرؤية تؤكِّد الوجه الاجتماعي للدين، وهي رؤية صحيحة، لأن أيّ دين يدخل في تفاعلات مع عادات وتقاليد المجتمع، بخاصة في المناسبات الاجتماعية كالزفاف والوفاة وغيرها، ويدخل في تفاعلات مع قيم المجتمع ويؤثر فيها. لهذا فإن الدين يمثل "حاجة ضرورية للإنسان يتحقَّق بقضائها معرفته حقيقة مكانته في هذه الحياة، ورسالته ودوره الذي يجب أن يؤدِّيه مع أي إنسان آخر"[١١]، كما أن للدين وظائف عديدة في المجتمع، "فالدين منذ القدم شامل للثقافة، وهو ذو وظيفة جوهرية للمجتمع الإنساني، وإن كان الأفراد يختلفون في ما بينهم في درجة تعلقهم بالدين"[١٢].

من هنا تأتي أهمية الدين، ومن ثم التربية الدينية والثقافة الدينية لدى الأُمّ، لتربِّي الأبناء تربية دينية صحيحة، ولا تتوقف عند تعليمهم تأدية العبادات فحسب.

التربية الدينية للأطفال من أهمِّ عوامل نجاحهم في حياتهم المستقبلية، وهي التي سوف تميزهم من غيرهم، بخاصة في وقت "بدأت فيه قوة الدين تضعف تدريجيًّا في أوروبا نتيجة ازدهار المادِّية ونمائها، الأمر الذي أطلق العنان للأنانية والحقد واستغلال النفوذ والكراهية"(١٣).

"وإن ما أصاب المجتمعات الغربية -من انتشار المخدِّرات والرذائل، وضَعْف الروابط الأسرية وشعور الفرد في تلك المجتمعات بالغربة والضياع، مِمَّا أدَّى إلى ارتفاع نسبة الانتحار- هو نتيجة لغياب الجانب الرُّوحِي والخُلُقي في التربية بهذه المجتمعات. وإن مصيرًا مثل هذا متوقَّع للمجتمعات الإسلامية إذا ما جرفها تيار استيراد الأفكار والنظريات الاجتماعية والتربوية، ومفاهيم الغرب ومضامينه تحت اسم العصرية والحداثة"(١٤). إن للتربية الخُلُقية أهميتها لأنها لا تنفصل عن الدين، وهي تميِّز المجتمع، حتى شبَّهَها دوركايم بالزِّيّ المميّز: "إن الأنظمة الخُلُقية للمجتمعات، من أكثر الأنظمة التي تميز المجتمع من غيره، لأنها بالنسبة إلى المجتمع تشبه السُّتْرة المميّزة"(١٥). إلا أن البعض يرى أن "التربية الخُلُقية مُهمَلة في البيت، ومُهمَلة في المدرسة، ومُهمَلة في المجتمع، في الوقت الذي يرى فيه المُرَبُّون والمُصلحون أن سعادة الأمم لا تتوقف على كثرة دَخْلها، ولا على قوة حصونها أو جمال مبانيها، ولكنها تتوقف على عدد المهذّبين من أبنائها"(١٦).

قد حدَثت تغييرات في المجتمع نتيجة عديد من العوامل التي أثرت في بنية المجتمع وقيمه الخُلُقية، ومن بين الظواهر المنافية

للقيم الخُلُقية، ظاهرة الغِشّ التي لفتت أنظار بعضٍ من الباحثين، وترى نادية رضوان "أن بعض الأفراد يلجؤون إلى الغِشّ وسيلةً للحصول على أشياء معيَّنة دون ما يلزم من جهد، إذ يبغون الوصول إلى ما يريدون بأسهل الطرق وأقلِّها جهدًا. فالغش هو محاولة الحصول على شيء ما بوسائل غير مشروعة، وتبدأ العلامات الأُولَى لهذه الظاهرة السلبية التي يلجأ إليها الأطفال أحيانًا من تحايل على الآباء، كأن يدَّعِي الطفل أنه قد أنهى واجباته المدرسية حتى يُسمَح له باللعب أو مشاهدة التلفاز، أو أن يلجأ إلى الغِشِّ في الامتحانات مع علم الأسرة، التي قد تستخفّ بذلك الاتجاه بزَعْم أن بعض التلاميذ الأقلّ مستوى من طفلهم يحصلون على درجات أكثر عن طريق الغش"[١٧]، وهذا الأسلوب من الأسرة يُعَدُّ هدْمًا للقيم الخُلُقية.

بعض التصرُّفات الخاطئة من الأُمّ يؤثُّر في أخلاق الأبناء، ومنها:

أ- من التصرُّفات غير الخُلُقية التي تصدر من الأُمّ إنْ رنّ الهاتف وهي مُجهَدة أو لا تريد محادثة المتصلة بها، أن تطلب من أبنائها أن يقولوا إنها نائمة أو غير موجودة، وبهذا تعلِّم الأبناء الكذب، "والكذب من أقبح الظواهر في نظر الإسلام، وعلى المربّين أن ينفِّروا أبناءهم منه وينهوهم عنه، ويكشفوا لهم مضارَّه وأخطاره"[١٨].

وعلى الأُمّ أن تعرف أن عدم تطابُق العمل مع السلوك يؤدّي إلى فشل محاولاتها في التربية الخُلُقية، فالطفل يحتاج إلى قدوة يتأسى بها في القيم الخُلُقية، وليس في حاجة إلى الوعظ والنصح والإرشاد.

ب- لجوء الأُمّ إلى الثواب والعقاب لإحداث تربية خلقية؛ "إن الثواب والعقاب لا يكفيان وحدهما، فهناك قدر كبير لا يُكتسب عن هذا الطريق، بل عن طريق الملاحظة لسلوك الآخرين"[١٩]. فالقدوة الحسنة هي طريق إحداث تربية خُلُقية.

ج- تسعى الأُمّ إلى إتاحة الفرصة لأبنائها -بخاصة البنات- للحديث عن أسرار الزملاء والأصدقاء، اعتقادًا منها أنها وسيلة لتوجيههم للابتعاد عن السيئ من هؤلاء الزملاء والأصدقاء، ولكن الحقيقة أنها تدفع بهم إلى عادة سيئة هي إفشاء السرّ؛ "وهو منهيّ عنه، لما فيه من الإيذاء والتهاوُن في حق المعارف والأصدقاء؛ قال النَّبيّ ﷺ: "**إذا حدّث الرجل بالحديث ثم التفت فهي أمانة**" (رواه الترمذي)، وقال: "**الحديث بينكم أمانة**".

د- من الأساليب الخاطئة في التربية الخُلُقية التي تتبعها الأمهات مع الأطفال، التهديد والترهيب بالله، كأن تقول لطفلها: إن كذبتَ، يدخلك ربنا النار.. وفي هذه الفترة العمرية، يجب الابتعاد عن هذا الأسلوب لأن نتائجه عكسية، إذ سيرى الطفل في الله صورة تجعله لا يقترب من الله، بل يبتعد عنه.. والواجب أن نربط الطفل بخالقه عن طريق الوعد لا الوعيد.

يتضح مِمَّا سبق أن الثقافة الدينية والخُلُقية للأُمّ، لها ضرورتها في تربية الأبناء دينيًّا وخُلُقِيًّا، ومن ثَمَّ تصبح ضرورة لتثقيف المرأة تربويًّا، حتى تستطيع أداء دورها في تربية الأبناء.

مِمَّا سبق يتضح أن الثقافة التربوية للأُمّ لها ضرورتها من أجل تربية سوية للأبناء، تنعكس آثارها في المجتمع وتُسهُم في تقدمه.

الهوامش

(١) فاطمة علي جمعة، ٢٠٠٤، ص:١٩.

(٢) مجدي محب الدين، ١٩٩٩، ص:١١.

(٣) فاطمة علي جمعة، ٢٠٠٤، ص:٢١-٢٢.

(٤) منظمة الصحَّة العالمية، ٢٠٠٥، ص:٨١.

(٥) مجدي محب الدين، ١٩٩٩، ص:١١.

(٦) منظمة الصحَّة العالمية، ٢٠٠٥، ص:٢٢٤.

(٧) محمود محمد مصطفى، وشاكر شحاتة رزق، ٢٠٠٧، ص:١٥-١٦.

(٨) محمود محمد مصطفى، وشاكر شحاتة رزق، ٢٠٠٧، ص:٢٤.

(٩) عبد اللطيف محمد خليفة، ١٩٩٢، ص:١٦٨.

(١٠) محمد أحمد بيومي، ١٩٩٧، ص:٨٨.

(١١) عبد الله الخريجي، د.ت، ص ٣٧.

(١٢) Richard T. Schaefer and Robert P.Lamm, 1995, p:396

(١٣) مولاي محمد علي، د.ت، ص:١٢.

(١٤) أحمد مختار مكي، ٢٠٠٦، ص:٢٩.

(١٥) Cuff. C & Others, 1994, p:33

(١٦) محمد عطية الأبراشي، ٢٠٠٣، ص:٦٩-٧٠.

(١٧) نادية رضوان، ١٩٩٧، ص:٧٣.

(١٨) مواهب عياد، وليلي الحضري، ١٩٩٥، ص:٦٨.

(١٩) محمد عماد الدين إسماعيل، ١٩٨٦، ص:٢٥٤.

التربية الاجتماعية والتطرف(*)

في هذه الأسطر سنعرض بشكل أساسي، الجوانب السلبية لهذا اللون من التربية التي تتصف بما يلي:

• عدم التربية على الاستقلالية، وإنما تفعيل روح التبعية؛ وهذا وإن بدى للناظر أنها تضبط روح التمرد لدى المتلقي، إلا أنها حقيقة لا تحقق الحاجة النفسية لدى الفرد إلى الاستقلال عن غيره، التي هي جزء من النمو النفسي السوي لنفس المراهق، والتي إن لم يتم إشباعها بدرجة كافية فسيجتهد المراهق بذاته في البحث عن وسائل الإشباع، منطلقًا من تصوره الشخصي للصواب والخطأ، أو مما يرده من مصادر أخرى قد تكون غير آمنة. ومن المعلوم أن مَن تمت تربيته على الاتباع دون الإدراك الواعي، فإنه أيضًا عرضة لاستباق الغير إليه وتربيته على اتباعه، مثلما فعل قادة التطرف مع الناشئة من الشباب، خصوصًا إذا وفروا له ما يحتاجه من احترام أو شهوات، على عكس التربية على المسؤولية التي تنتج لنا أفرادًا قادرين على الإدراك واتباع الصواب وتجنب الخطأ، مما يراه نابعًا من ذاته من فكر آمن.

(*) د. **طارق الحبيب** [المشرف العام ومؤسس مركز مطمئنة الطبي بالرياض/المملكة العربية السعودية]

• التربية على التفكير الحدي (أي إما معي أو ضدي، إما صديقي أو عدوي)، وهو أحد آثار التفكير القبلي. وتكمن خطورة هذا النوع من التفكير عند التعامل مع الآخر بأنه شر محض أو خير محض، وبالتالي يكون سهل الانقياد من قبل الآخرين من خلال كشف خطأ في الشخصية المراد إسقاطها، أو تلميع ميزة في الشخصية المراد إبرازها لدى المتلقي، فيُسقط هذا، ويقدس ذاك. ولكي لا يشعر ذلك الفرد بالازدواج النفسي، فقد يرفض المراجعة لأفكاره، أو ينطلق من روح الشك في التعامل مع الآخر.

• تفعيل ثقافة الخوف؛ مما يؤدي إلى نشوء ثقافة الصمت فلا يتم التعبير عن الرأي، ولذا يخسر المربي من حيث يظن أنه قد نجح في أن المتلقي لا يشتكي من شيء، رغم أن الذي منع المتلقي حقيقة من التعبير، هو خوفه الذي أظهره بشكل مقبول من خلال الصمت الذي هو أحد علامات القبول والرضا في الحس الاجتماعي، إنه الالتزام الخائف.

هذا اللون من التربية يؤدي إلى ظهور السلوك الانتهازي والنفاق، ولذلك كلما ازداد رفعة اجتماعية كلما ازداد خوفه ونفاقه، مما يؤدي إلى عيش الجميع في وهم أن الأمور على خير ما يرام، ولكن الواقع غير ذلك.

• بث ثقافة ﴿**إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ**﴾ (الزخرف:٢٢) في نفوس النشء، مما يقلل روح الإبداع في نفوسهم، ويفعل روح المحافظة على ما هو موجود والخوف عليه. ولقد أدى هذا بدوره إلى عدائية

الجديد وعدم مراجعة القديم، بل والمحافظة عليه صالحه وطالحه، بل وأحيانًا وصف الجديد بالبدعية والمجدد بسوء النية، دون نظرة فاحصة تحليلية قد تصل -إنْ وظفت إيجابيًّا- إلى التوافق الكامل أو الجزئي، أو الرفض على بينة.

ولعل خوف البعض من الحوار حول جواز وجود يوم وطني للدولة، يعكس لنا شيئًا من هذا الفكر. ورغم علمي بفتوى العلماء بحرمة الاحتفال بعيد غير عيد الفطر وعيد الأضحى، ومنها الاحتفال باليوم الوطني، إلا أنني لا أرى غضاضة من جعل هذا اليوم يوم مراجعة لماضي هذا الوطن واستشراق للمستقبل.

• تقديم المفهوم الاختزالي للدين من حيث التربية على السلوك أكثر من الفكر والمشاعر، ونسيان الناس أن الدين ما وقر في القلب وصدّقه العمل. ولذا تجد عدم التركيز على القيم والمبادئ -في بعض الأحيان- كما يجب، وإنما تقديم الوصف السلوكي لأوامر الدين وجعله طقوسًا خالية من القيم والمعاني.

• عدم تفعيل الموضوعية في علاقة الفرد بالآخر، وإنما الشخصانية هي التي تحكم فكر المتحاورين في أكثر الأحوال. بل أصبحت العلاقة الشخصية تؤثر في القرار الإداري أكثر من الأنظمة التي تعاني من عدم الوضوح ومن إمكانية التحايل عليها. بل إن تلك الأنظمة قد تشربت فكر الشك بالآخر، ولذا جاء كثير منها معيقًا لحركة التقدم في المجتمع، حيث التضييق أكثر من التيسير، وإذا حدث التيسير فهو من شخص المسؤول لا من طبيعة النظام.

• عدم التجديد في أساليب التربية، وافتراض الستاتيكية (الجمود) في مجتمع ديناميكي (متغير) وعالم متسارع التغير والتطور.

• تشير بعض الدراسات النفسانية، أن الفرد يسلك ما يتوقعه غيره منه. ولذا فإن افتراض الشيطانية والمخادعة في نفس المتلقي، التي ينتهجها البعض في تربية الأبناء، أكثر من افتراض الخير والصدق، تؤثر تأثيرًا بالغًا في سلوك الناشئة.

• تدريب الابن وتشجيعه على ممارسة ما يجب من مثله أن يمارسه في تعريف المجتمع، أكثر من ممارسة ما يحب ويريد من المباحات. والإشكال في هذا يكمن في نشوء فكر القولبة (النمطية)، أي وجود قالب واحد هو المرجعية في التصوبة والتخطئة في أمور يفترض فيها تعدد الميولات والتوجهات، مما يؤدي بدوره إلى إضعاف القدرة على تأمل الصواب والخطأ، وإنما افتراض المثالية في شيء ما والاحتكام إليه. إن هذا اللون من التربية النفسية يعني إهمال نمو فردية الإنسان، مما قد يدفع المجتمع إلى السير ضمن تقاليد تجعل الفرد صورة كربونية من الآخر.

• عدم الانطلاق في التربية من المفاهيم الصحيحة وإنما من الانطباعات والظنون، وتغليف ذلك بما يناسب المتلقي لكي ينال القبول مع الأيام باعتياد الناس عليه.

• استخدام المنهج التوفيقي غير المقنع عادة والحلول المؤقتة لأزمات ومشكلات طويلة المدى.

• تركيز الرقابة الأسرية على سلوك النشء أكثر من بناء الفكر وتقييم الشخصية والبنية النفسية لديهم.

• عدم تفعيل روح الاعتذار كما ينبغي، وعدم قبول احتمال حدوث الخطأ من الناشئ بالدرجة الكافية.

• أصبح المتلقي -ربما بسبب الطفرة التنموية المتسارعة جدًّا- أكثر تأهيلًا نفسيًّا وحضاريًّا من الموجه، مما سبب شيئًا من صراع الأجيال، لكنه لم يظهر على السطح جليًّا بسبب درجة الضبط الأخلاقي الديني، كبرّ الوالدين مثلًا. ولذا كان لزامًا بث روح الوعي التربوي لدى جيل الآباء، وإدراك أن زمان الأبناء غير زمانهم، ولذا فيجب تربية الشباب على غير الطريقة التي تربوا عليها. والمؤلم في حال جيل الشباب المعاصر، أنه لا يعاني من الصراع مع الجيل السابق فحسب، بل أيضًا يعاني من صراع الذات الذي هو بذاته مرحلة مؤلمة من نمو الإنسان السوي.

• وجود العلاقة السلطوية لا التفاعلية المفتوحة بين الموجه والمتلقي، بين المدرس والطالب، وكذلك بين الأب والابن، هذا النوع من العلاقة يحد من درجة التواصل، ويقتل روح الحوار، ولذا ربما بحث المتلقي عن حل لتساؤلاته عند من يستمع له، وهو ما حدث تمامًا لشباب التكفير الذين اتجهوا إلى بعض علماء الشريعة المميزين ابتداءً، لكنهم كانوا في الغالب يقابلون بالطرد أو رفض الحوار لأنهم في نظرهم صبيان أغرار، والتي هي في نظري امتداد

لهذا النوع من العلاقة الاجتماعية (البنية الأبوية السلطوية)، مما حدا بأولئك الشباب إلى البحث عن رموز دينية خارجية لم تعرف بالعلم الشرعي الواسع، أو رموز داخلية أقل علمًا لكنها أوسع صدرًا، تقبلتهم، وكسبت ثقتهم، واستطاعت أن تبذر في صدورهم حقيقة الولاء لهم.

إن ما نريده هو الأسرة المفتوحة ذات العلاقة التفاعلية التي تتصف بما يلي:

١- السلطة فيها ليست سلطة بمقدار ما هي قيادة وتوجيه.

٢- فيها يتربى الأفراد على احترام الذات والتفكير الإيجابي، بمعنى أنه يفعل الخير لأنه جيد له، ويترك الشر لأنه يهينه ويضعه في موقف المساءلة.

٣- داخل هذا النوع من الأسر تتوزع الأدوار، فالأب له دور، والأم كذلك، والابن والبنت، فتتفاعل هذه الأدوار فيما بينها بشكل تعاوني فيه الخير للجميع.

٤- فيها علاقة الحب واحترام الآخر.

الطلاق وأثره على نفسية الطفل(*)

الطلاق هو أكبر تهديد يواجه الأسرة ويؤثر على مستقبل الأبناء والأجيال. فبدون جو أسري هادئ ومستقر ينعم فيه الطفل برعاية الأبوين، لن يكون بالوسع تنشئة جيل سليم، قادرٍ على خوض غمار المستقبل، شاعرٍ بالمسؤولية تجاه مجتمعه وأمته. وخشية من الآثار السلبية على الأطفال الذين يدفعون ثمنًا كبيرًا لذنب لم يقترفوه، وحرصًا على تأسيس عيشة رغيدة لهم، دعا كثير من الآباء والأمهات إلى محو فكرة الطلاق من الأذهان بالمرة.

إن الأطفال هم أحوج المخلوقات إلى الاهتمام والرعاية. وكذلك الأطفال هم أمانة في عنق الأبوين ينبغي حفظها وحمايتها من كل السوء، وإلا لن يتم النمو البيولوجي والروحي بالشكل المرجو لأبنائهم. ولا بد من الإشارة في هذا الصدد، إلى أن الطفل يتلقى التربية أولًا من البيئة الأسرية التي ينشأ فيها ويترعرع، ثم ينتقل إلى بيئة تعليمية أخرى خارج الأسرة كالمدرسة والمجتمع الذي يعيش فيه.

والجدير بالذكر أن الأبوة والأمومة تتطلب مسؤولية كبرى ووعيًا والتزامًا على الدوام. هذا وقد أشار القرآن الكريم إلى ضرورة الاهتمام بالأطفال، وبسْط أجنحة الحب والرعاية لهم، والعمل على تأسيس العيش الطيب لهم، وتلبية حوائجهم في هذه الحياة.

(*) د. **عثمان أرجياس** [كاتب وباحث تركي. الترجمة عن التركية: نور الدين صواش]

بينت الدراسات أن الأطفال في الأسر المستقرة، ينعمون بقدرات إدراكية تفوق بكثير قدرات أطفال الأسر المنفصلة... فيجب على الأبوين أن لا يغفلوا عن دور التربية التي تعدّ درعًا حصينًا يحمي أطفالهم من الأضرار والمساوئ، ومن جانب آخر يجب أن يعرفوا أن الأسرة التي تكثر فيها النزاعات وتسيطر عليها الآراء الفردية؛ تكون سببًا في تدهور معنويات أطفالهم وحالتهم الروحية.

إن الطلاق يؤثر على الأطفال أكثر من غيرهم؛ لأن المأوى الوحيد بالنسبة لهم هي الأسرة؛ يتربّون في كنفها ويتعلّمون فيها ما ينفعهم ويفيدهم في الحياة. بالإضافة إلى أن وجود الأم والأب تحت سقف واحد، يشعر الطفل بالسعادة الدائمة والأمان المستمر. أما النزاعات المتواصلة داخل الأسرة، يجعل الطفل ينظر إلى الحياة نظرة سلبية، وهذا بطبيعة الحال يؤدي إلى تزعزع عالمه الداخلي الروحي. أي، عندما يقوم الأب أو الأم بالانفصال رغبة في تأسيس أسرة أخرى أكثر سعادة وأمنًا، فإنهما يكونان -بشعور منهما أو بلا شعور- قد حوّلا حياة طفلهما إلى عذاب وشقاء، وذلك أن تفكك الأسرة التي تعتبر صمام أمان في حياة الطفل، قد يُفرز مشكلات نفسية وروحية لديه في نهاية المطاف.

ولكي تتضح الصورة بشكل أفضل، تعالوا نستشهد بهذا المثال: حسن وحيد أسرته وعمره خمس سنوات، أبوه وأمه يعملان. وُلد في السنة الثانية من زواج أبيه بأمه، وعندما بلغ الثالثة من العمر، بدأت تظهر مشكلات في التفاهم بين أبويه. ورغم محاولة الأم والأب عدم

إشعار حسن بهذه المشاكل، إلا أنهما كانا كثيرًا ما يفشلان في ذلك. وكلما يرى حسن ما يجري بين أبويه، ينتابه حزن عميق وخوفٌ يكاد يخرسه عن الكلام. وبعد سنوات قليلة تحوّل حسن إلى طفل عصبي تجاه زملائه في الروضة، كما أصبح طفلًا سريع البكاء والغضب، ثم بدأ يعاني من اضطراب في تناول الطعام وصعوبة في النوم، بالإضافة إلى تصرفاته الطفولية التي أصبحت تظهر بشكل ملحوظ. لقد تغيرت سلوكيات حسن نتيجة النزاعات التي شاهدها بين أبويه. والنتيجة كانت أن قرَّر الأبوان الطلاق، وأخبرا طفلهما بذلك. وبعد تنفيذ القرار تم الانفصال بين الأبوين، الأمر الذي ضاعف الخوف عند حسن، وجعله يضطرب ويقلق من فقدان أحبابه ومن البقاء وحيدًا في حياته. لذا تمسّك بأمه بشدة ورفض الانفصال والابتعاد عنها. وفيما بعد عاش حسن مع أمه، وكان أبوه يزوره في أوقات معينة.

ما ورد في هذه القصة هو دليل على أن قدرًا كبيرًا من مشكلات الأبوين في مرحلة الطلاق، ينعكس على نفسية الطفل وبشكل ملحوظ، ولكن ردود الأفعال تختلف وفقًا لعمر الطفل. إذن، يجب رعاية حالة الأطفال النفسية عند الطلاق وبعده، ومن الأفضل أن لا يكشف الآباء والأمهات عن مشكلاتهم أمام أطفالهم قبل الطلاق أبدًا، وأما بعد الطلاق فعليهم أن يبذلوا قصارى جهدهم في تخفيض سلبيات الطلاق على الطفل إلى أدنى حد. ثم إذا كان الطلاق سينتهي بشقاء الأطفال واكتئابهم الدائم، فعلى الأبوين أن يقدّما مصلحة طفلهما على مصلحتهما الشخصية بلا تردد.

وينبغي علينا نحن الآباء، أن لا نكون سببًا في شقاء أطفالنا وتدمير حياتهم، بل ينبغي أن نتغلب على مشاكلنا العائلية بالهدوء والتروّي، ونُبعِد أنفسنا من الوقوع في مآزق لا مخرج لها. أما مشكلات الأطفال النفسية المحتملة، فعلينا تحليلها في حينها ووقتها المناسب، والمبادرة إلى حلّها بأفضل الطرق. ثم لا بد من القيام بكل ما يمكن فعله لئلا يتدهور العالم الروحي لأطفال لم يتخطَّوا مرحلة النمو بعد؛ إذ إن الأطفال الذين يعانون من تجربة انفصال الأبوين، تظهر لديهم وجهات نظر خاطئة عن الزواج، أو تنشأ لديهم -فيما بعدُ- مشكلات نفسية في حياتهم الزوجية. لذا، على الآباء والأمهات قبل قرار الطلاق، أن يفكروا جيدًا بمصير أطفالهم، وكذلك أن يستشعروا في قرارة أنفسهم نتائج القرار الذي يتخذونه حول الانفصال.

الأسرة بين الشرع والواقع(*)

لا يخفى أن الأسرة -بوصفها مؤسسة إعلامية وتربوية واجتماعية- كانت موقع اهتمام الناس منذ أمد طويل، وجعلت لها الشريعة موقعًا مركزيًّا ودورًا محوريًّا.

المنهج بين "الذكورة" و"الأنوثة"

إن هذه الأسرة المكونة من عناصر متعددة ترجع في أصلها إلى عنصرين أساسين الذكر والأنثى. والأنوثة والذكورة من عطاء الربوبية، وهذه العطاءات منحة إلهية تستدعي معانقة المنحة الثانية، وهي المنهج الذي يحدد لهذين العنصرين الأساسين الوجهة المطلوبة، لإنجاز الفعل الحضاري في المكان والزمان المطلوبين، ولذلك تُساءل كل الأفكار التي جنحت إلى إلغاء إحدى المنحتين، من خلال إفرازات ما أنتجته الإلغاءات النمطية لإحدى المنحتين، يساءل هذا الفكر كذلك على مستوى إلغاء الذكورة أو إلغاء الأنوثة.

إن وأد الأنثى الحضاري وجعل الغلبة والهيمنة والتأطير الشامل والأحادي للذكورة، فكر منتقد، ومرفوض، وما زالت الشريعة تنكره وتعلي من شأن آخر هو شأن الإنسان. كما أن موجة إعلاء وهيمنة الأنوثة لها خطورتها حيث ألغت جانبًا مهمًا في الأسرة وفي التكوين

(*) د. **عبد الحميد الداودي** [كاتب وباحث/المغرب]

الإنساني هو جانب الذكورة. ومن ثم كان لا بد من طرح سؤال جوهري ومنهجي:

ما هي المرجعية التي يمكن أن نستند إليها ولا يمكن أن تتهم بالانحياز للذكورة أو الأنوثة؟ هل من مصدر متجاوز للذكورة والأنوثة معًا لصالح مشترك بينهما هو الإنسان؟ إن الفكر العاقل والمنطق السليم يقتضي البحث عن هذه المرجعية. وتحاول البشرية في مختلف عصورها وعلى كل مستوياتها أن ترتقي إلى قانون وتشريع منهجي يتجاوز ضغط الأنوثة أو إكراه الذكورة، ولكنها لن تستطيع إلى ذلك سبيلًا، لأن الذي ينتج المؤطر لحركة الأنوثة والذكورة إما أن يكون ذكورًا فيطغى جانبهم الذكوري، وإما أن يكون مصدره مجموعة من النساء الناشطات، فيطغى جانب الأنوثة، ومن ثم ندور في حلقة مفرغة.

ولا سبيل لدى التفكير العاقل إلا طريق واحد هو إسناد الأمر إلى جهة محايدة: (إلى جهة راشدة فعلًا) من صلاحياتها وضع منهج يؤطر حركة العنصرين الأساسين الذكر والأنثى، ولا نملك في البحث عن هذه الجهة إلا مصدرًا واحدًا وهو الله ﷻ من خلال كتابه الذي أنزله على نبيه محمد ﷺ، فيرتاح الإنسان ويطمئن إلى هذا المستند، ليس من باب الإيمان والعاطفة فقط بل هذا ما يقتضيه العقل وتَتبّع حركات التناقض الفكري عبر مختلف العصور.

إننا عندما ننادي البشرية كلها إلى أن تجعل كتاب ربها الذي خلقها وأن تجعل توضيح النبي ﷺ المتصل بالكتاب المبين،

أن تجعل ذلك هو مصدر حركتها الفكرية، وإبداعها المعرفي، إننا نريد أن نضمن -والضامن هو الله تعالى دائمًا- للبشرية منهجًا تشريعيًا، وسدادًا فكريًّا، وإطارًا معرفيًّا يصلح لحركة الإنسان في أي زمان وفي أي مكان.

إن الإسلام باعتباره مصلحًا لكل زمان ومكان، مدعو الآن بلغة الإحصاءات، ولغة الأرقام، ولغة التأمل في عواقب أزمات الإنسان، إن الإسلام مدعو حضوره بقوة وبمنهجية.

أهل هذا الدين، وأهل هذا الحق المبين هم الممثلون القادرون على الحديث حديثًا إبداعيًّا، حديثًا يعانق أزمات الإنسان واحتياجاته، لأجل أن ينيروا دربه من خلال التفكير المزدوج، عين تتعلق بالمرجعية حتى لا تزيغ، والعين الأخرى تتابع حركة الإنسان حتى يتم تنزيل النص الشرعي على الواقع المتحرك المعلوم.

بين القطعي والظني

إن العقل المسلم مطالب بأن يميز -وهو ينظر في الشريعة، في موضوعات المرأة والرجل والأسرة ومختلف القضايا ذات الصلة- بين الثوابت اليقينية، وقطعيات الدين، وبين الظنيات وتنزيلات البشر للقطعيات على الواقع المتحرك. ذلك لأن عدم التمييز بين الأمرين قد يؤدي إلى خلل واضطراب في المفاهيم.

إن هناك قراءات معينة قد تمت عبر التاريخ لنصوص الدين المبثوثة في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، الكثير من هذه القراءات

لم تخل من تأثيرات الواقع الذي كان يتحرك فيه المتفاعل مع النص القرآني.

إن التمييز بين القطعي والظني أمر ضروري؛ هناك آيات قرآنية لها معنى واحد ولها حكم واحد، ولا سبيل إلى القول بغيره، لأنه أمر مقطوع به؛ فعندما نقرأ ﴿**وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً**﴾ (الروم:٢١) نفهم أن النص القرآني يبين أن ركيزة الأسرة الصالحة، قائمة على المودة والرحمة. إن هذه الحقيقة مؤكدة لأن النص القرآني هنا نص قطعي لا يحتمل غير ذلك.

إن مثل هذه القطعيات واليقينيات بمثابة الحركة الموحدة للأمة باختلاف تاريخها وجغرافيتها أمة واحدة منذ أن نزلت ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ**﴾ (العلق:١). الأمة الواحدة في هذا الاتجاه أمة موحدة على مستوى قيمة نشدان المودة والرحمة داخل الأسرة، ما دمنا أوفياء للقرآن وسنة رسول الله ﷺ.

الذي يؤسف له أن هناك اتجاهًا معينًا عبر تاريخنا الطويل بعد العصر الأول الذهبي عصر النبي ﷺ وعصر الصحابة الكرام ﷺ، هناك اتجاه إلى التنازل عن مكتسبات تحرير الإنسان، وجعل الإنسان مناط التكليف ذكرًا كان أو أنثى وكون الذكر والأنثى من خصائص النوع البشري، ولا علاقة لقيمة التفاضل على هذا الأساس. نأخذ على سبيل المثال ما ورد في فضل ذهاب المرأة إلى المسجد، تصلي مع الجماعة، هناك أحاديث صحيحة تبين اشتراك المرأة مع الرجال في صلاتين عظيمتين وهما صلاة العشاء وصلاة الفجر في المسجد

مـع الجماعـة؛ رغم الظلمة[١]، هناك أزيد من عشـرين حديثًا صحيحًا فـي موضـوع ترغيـب المرأة في الذهاب إلى المسـجد[٢] ولكن بعض النـاس اعتمـدوا على حديث واحد، حديث أم حميد امرأة أبي حميد السـاعدي الـذي ورد فيـه "وصلاتـك فـي بيتـك خيـر لـك" وضحـوا بعشـرين حديثًـا صحيحًـا، هنـا يتسـاءل العقـل كيـف تمـت التضحيـة بأحاديث كثيرة عدد منها في صحيح البخاري ومسلم لصالح حديث واحد أو حديثين آخرين؟

هنا لا بد من العودة من جديد، وبهدوء، وبعمق، وبجرأة علينا أن نسـائل الكثيـر مـن آراء فقهائنا ومفكرينا، لأنهـا آراء أقل ما يقال فيها أنهـا آراء ظنيـة. إذا كان النـص حديـث الآحاد ظني الـورود مـع كونه قطعـي الدلالـة مما يسـمح بالاجتهـاد كما هو مقرر عنـد علمائنا فإنه لا يحـق لأي أحـد أن يفـرض على الناس التوجه إلى رأي واحد فقط من الآراء المتعددة.

إن النص القطعي في حد ذاته إذا نزلناه على الواقـع لم يعد قطعيًا، ومـن ثـم سـيتبين لنـا أن تنزيلك لهـذا النص، تطبيقك لـه لا يمكن أن يأخذ طابـع القطعية لأنه عمل بشري، ممارسة بشرية ذلك أن التدين ينتمي إلى الظنيات وهو إحدى مجالات إعمال الاجتهاد.

التواصل بين الزوجين

لكي يتم تفعيل الأسـرة تفعيلًا قويًّا لا بد من تواصل قوي يسـتند إلى مجموعة من القيم والضوابط، الناظمة لكل حياة طيبة، ويحتاج إلـى حـوار بنـاء وفعـال قائـم علـى أدوات متعددة منها ما هو حسـي

ومنها ما هو معنوي ومنه ما يرتبط بالثقافة الجنسية المتبادلة بين الزوجين.

المطلوب من الزوجين استعمال أدوات التواصل بشكل قوي وتوظيف ما أنعم الله عليهما من نعمة البصر والسمع ونعمة العقل ونعمة اللمس ونعمة الشم، وحينئذ سيتمكنان من فهم قوله تعالى: ﴿**نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ**﴾ (البقرة:٢٢٣).

إن التواصل بين الزوجين يبدأ بالكلمة، ويمر عبر القبلة واللمسة الحانية والسكينة الجنسية، لينتهي إلى إنتاج مشترك لأعظم شيء موجود هو هذا الإنسان، المتكون من نطفة من حيوان منوي، ومن بويضة، وتنقل هذه النطفة كل الخصائص المورثة من الأبوين معًا إلى هذا الناشئ الجديد.

الكلمة إذن هي منطلق التواصل بين الزوجين، ومن ثم وُجّهَا معًا إلى العناية المركزة بكل الألفاظ المتبادلة. المشكلة أننا في أسرنا لا نحرص على الكلمة، ولا نقدر تبعاتها ومقتضياتها، ألفنا بعضنا البعض ومن ثم قد نطلق الكلمة أو العبارة ولا نعير لهذا الأمر اهتمامًا كبيرًا.

في حين أن الأصل أن يكون الإنسان ذكيًا في اختيار كلماته وهو يتواصل مع أهل بيته، فرب كلمة رفعت صاحبها مقامًا عاليًا عند زوجته، ورب كلمة صدرت من الزوجة رفعت مكانتها عند زوجها مقامًا كبيرًا.

كم من كلمة قد لا يلتفت لها الزوجان يهوي بها أحدهما في نار الأزمة وقاع المشاكل بشكل خطير، وإنما الطلاق كلمة، وإنما السباب كلمة، وإنما الشتم كلمة، مما يدعو إلى الحرص على اختيار الكلمات والعبارات بكل عناية.

الإنسان مسؤول عن كل ما يتلفظ به فكل ما يلفظ به لديه رقيب عتيد. عندما يحرص الزوجان على اختيار كلماتهما بكل عناية ودقة يبينان أن كل واحد يعتبر الآخر وينظر إليه على أنه موجود ويستحق هذا الاختيار والجهد الذي يبذله كلاهما في هذا السياق.

قال الله ﷻ: ﴿**وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا**﴾ (الإسراء:٥٣)، إن الحرص على الأحسنية في الكلمة والعبارة ينشئ تواصلًا قويًّا متينًا بين مختلف الأطراف وخاصة طرفا التواصل الأساسي: الزوجان.

إن الشيطان ينزغ بين الزوجين ويستغل بعض الكلمات يحولها إلى ألغام ليفجرها مباشرة أو بعد حين، وعندما يدرك الشيطان أن هذه الكلمات الجارحة غير كافية يؤز الزوجين على إضافة كلمات أخرى أكثر جرحًا وأكثر إيلامًا، حتى يتم تفجير العلاقة الزوجية، وتدميرها تدميرًا كليًّا، أو جزئيًّا.

ولذلك نحن مدعوون للقيام بجرد الحساب اليومي أو الأسبوعي أو الشهري على الأقل لعدد من الكلمات التي نتلفظ بها، حينئذ سندرك أننا جزء من الأزمة في كثير من المجالات، بفعل هذه الكلمات التي لم نخترها بعناية.

إن الكلمة، رسول التواصل بين الزوجين، تختار بعناية، لبناء العلاقات وتجسيدها لأن الأساليب الفظة الغليظة، مشوشة وحاجزة عن إيصال الحكمة والحق المبين وقد قال الله رب العالمين لسيد الخلق أجمعين: ﴿**وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ**﴾ (آل عمران:١٥٩).

اقتران المحبة بالرحمة

الحب بين الزوجين أمر في غاية الأهمية يستدعي التفاكر والتذاكر ويتطلب تقويته بشكل مستمر، ويستحق الرعاية والصيانة لما فيه من بركات وثمرات هائلة.

ولقد كان رسول الله ﷺ يحدث عن خديجة ﵂، ويقول "**إني رزقت حبها**" (رواه مسلم) ولم يكن يرى بأسًا بالتصريح بذلك بل إنه يعلمنا نحن المسلمين كيف يجب أن نضع هذه الكلمة الجميلة "الحب" في إطارها الصحيح، وكان الصحابة ﵃ يتحدثون عن عائشة ﵂ ويقولون عنها حبيبة رسول الله ﷺ.

ينشأ هذا الحب بين الزوجين منذ الانطلاقة الأولى التي يرغب فيها رجل بالاقتران بامرأة ما، ولذلك ندبت إليه الشريعة وحضت على النظر إلى ما يدعوه إلى نكاحها "انظر إليها فإنه أحرى أن يُؤدَم بينكما" هذه النظرات الأولى المتبادلة ينبني عليها زمان طويل من الألفة والمحبة. سبحان الله الذي خلق الناس وجعلهم أصنافًا في أذواقهم واختيارتهم، ومن ثم كانت النظرة أداة تعبير عن مختلف الرغبات والميولات إنها النظرة المتبادلة بين رجل وامرأة على

أساس الرغبة الصادقة في بناء أسرة رائعة، إنها أول خطوة في نشوء محبة تغرس جذورها من ينبوع القيم المشتركة، قيم الصدق والوفاء والعطاء والبذل والالتزام وتحمل المسؤولية والتعاون على البر والتقوى.

تنتعش هذه القيم بين عقلين، وقلبين، وجسمين، وروحين، ونفسين، حتى يصير هذان القلبان وهذان الجسمان وهذان الروحان وهاتان النفسيتان، يصير كل ذلك جسمًا واحدًا ونفسًا واحدة وروحًا واحدة وقلبًا واحدًا وعقلًا واحدًا.

قال الله تعالى: ﴿**هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ**﴾ (البقرة:١٨٧)، تحمل كلمة اللباس مجموعة من الوظائف والدلالات والأنوار والإضاءات والواجبات والمقتضيات، إن من معاني اللباس أن يستر صاحبه ويحميه ويجمل صاحبه ويزينه.

ولقد أظهرت المرأة في حياة النبي ﷺ أنها إنسان عظيم، في تثبيت زوجها فلقد قالت خديجة ﵂ للرسول ﷺ في اللحظات الأولى الصعبة من هذه المسؤولية الضخمة: "كلا أبشر فو الله لا يخزيك الله أبدًا إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق" (رواه مسلم).

هذه المودة المشفوعة بالرحمة شرط أساس لاكتساب المناعة من خلال الحب بين الزوجين، إذ استطاعت أسر عديدة أن تنشئ أناسًا أقوياء بفعل هذه المحبة، رغم النقص في كثير من الحاجيات المادية، حيث تم تعويض هذا النقص المادي إلى حد ما عن طريق

المحبة الداخلية التي أنشأت شبابًا لا يستسلم للظروف الصعبة بل أفلح في الانتقال من قدر الفقر إلى قدر الغنى، ومن قدر الحرمان إلى قدر التمتع بنعم الله تعالى الواسعة، وأصبحت أزماته ومحنه مشاريع لصياغة إنسان ممتاز، التحم بالمجتمع وعرف ألم الفقر والحرمان فأنشأ بدوره جيلًا جديدًا يتعظ من هذه المعاناة، ليصبح بركة على بلده وعلى أمته وعلى الإنسانية جمعاء.

إن الحب يحمي الزوجين من المعصية، إن هذه الخيانة تصدر عمن ينسى أن هناك من يحبه ويضحي من أجله. كيف يمكن لمحب أن يجرح حبيبه، أو يتجاهل مشاعره؟

إن الحب الحقيقي يقود إلى تكاثف وتآزر وتعاون جميع أفراد الأسرة لتصبح هذه المؤسسة الصغيرة الناشئة نواة تتجمع حولها مجموعة من الأسر، وتتشكل من خلال ذلك كله فئة اجتماعية متميزة، تتفاعل إيجابيًا ومؤسسة الرحم والجوار والصهر والقرابة.

تذكر كتب السيرة أن النبي ﷺ كان إذا خلا إلى نسائه بسامًا ضحاكًا، وكان في مهنة أهله، وكان يتلطف مع نسائه، ويقول لأصحابه: "**خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي**" (رواه الترميذي).

الهوامش

(١) عن عائشة قالت: ''كن نساء المؤمنات يشهدن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الفجر متلفعات (أي متلففات) بمروطهن (ثوب غير مخيط) ثم ينقلبن إلى بيوتهن حين يقضين الصلاة لا يعرفهن أحد من الغلس'' (ظلمة آخر الليل بعد طلوع الفجر) (رواه البخاري).

(٢) عبد الحليم أبو شقة: تحرير المرأة في عصر الرسالة، ج ٢، ص ١٧٨ إلى ص ٢٠٢ ط الخامسة دار القلم ١٩٩٩.

السلوك الإيجابي(*)

لو تأملنا تعاليم القرآن والأوامر والنواهي، نلاحظ أنها مليئة بالسلوك الإيجابي، ولذلك، فإن المؤمن أكثر الناس سعادة في حياته، وهذا ما أثبته العلماء مؤخرًا.

في مقالة نشرها موقع بي بي سي، وجد الباحثون بجامعة تكساس، أن السلوك الإيجابي يؤجل مراحل الشيخوخة. وأضاف الباحثون أن الأشخاص الذين ينظرون إلى الحياة بنظرة يملؤها الأمل، تقل عندهم ظهور علامات الهرَم مقارنة بالمتشائمين. وقال الباحثون إن نتائج الدراسة التي نشرت في مجلة "سيكولوجي أند إد جينج"، تشير إلى أن العوامل النفسية بالإضافة إلى الجينات والصحة البدنية، تلعب دورًا في تحديد مدى سرعة بلوغ سنّ الشيخوخة.

وأجرى فريق البحث بجامعة تكساس تجارب على ١٥٥٨ من كبار السن، لبحث ما إذا كانت هناك علاقة بين الأحاسيس الإيجابية، وبداية مرحلة الوهن. وفي بداية الدراسة قبل سبع سنوات، كان جميع المتطوعين للمشاركة في الدراسة، في صحة جيدة.

(*) د. عبد الدائم الكحيل [باحث في الإعجاز العلمي والرقمي في القرآن والسنة/سوريا]

وقام الباحثون بقياس تطور أعراض الشيخوخة عند المشاركين، من خلال قياس فقدانهم للوزن والجهد وسرعة السير وقوة قبضتهم. وتوصل الباحثون إلى أن المشاركين الذين يحملون رؤية إيجابية للحياة، كانوا أقل عرضة لأعراض الوهن من غيرهم. وأكد الباحثون على الحاجة لإجراء مزيد من الأبحاث لتوضيح السبب في هذه العلاقة.

غير أن الباحثين تكهنوا بأن المشاعر الإيجابية قد تؤثر بشكل مباشر على الصحة عن طريق تغيير التوازن الكيميائي في الجسم. وربما كان السبب في هذه الصلة هو أن التوجه المتفائل يساعد في تعزيز صحة الإنسان من خلال ترجيح نجاح هؤلاء الأشخاص في الحياة.

وهنا أود أن أتذكر معكم قوله تعالى: ﴿**قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ**﴾ (يونس:٥٨)؛ فهذه الآية تخبرنا بأن المؤمن يفرح برحمة الله تعالى. هذا الفرح هو نوع من أنواع السلوك الإيجابي، وهو نوع من أنواع التفاؤل الذي يمنح المؤمن السعادة وطول العمر، ويزيد من مناعة جسده ضد الأمراض.

يقول الدكتور "جلين أوستير" رئيس فريق البحث: أعتقد أن هناك علاقة بين العقل والجسم، حيث إن أفكارنا وسلوكنا ومشاعرنا تؤثر على الوظائف البدنية وعلى الصحة بشكل عام، إما عن طريق آليات مباشرة مثل وظائف جهاز المناعة، أو عن طريق آليات غير مباشرة مثل شبكات الدعم الاجتماعية.

وقد أشارت دراسة أخرى نشرت في المجلة نفسها، إلى أن التوجه العقلي قد يؤثر في الأداء البدني. وفي هذه الدراسة طلب فريق البحث بجامعة نورث كارولاينا من ١٥٣ شخصًا من مختلف الأعمار، إجراء اختبارات على الذاكرة بعد أن سمعوا كلمات إيجابية وسلبية.

وتضمنت العبارات السلبية الاضطراب والعته والخرف، أما العبارات الإيجابية فتضمنت الإنجاز والنشاط والتميز. وأظهرت النتائج أن أداء الذاكرة عند المشاركين في الدراسة من البالغين، كان ضعيفًا بعد أن تعرضوا لعبارات سلبية.

وعلى النقيض، كان هناك اختلاف كبير في أداء الذاكرة بين الشباب والبالغين الذين تعرضوا لعبارات إيجابية. وقال الباحثون: إن دراستهم تشير إلى أنه إذا تم التعامل مع كبار السن على أنهم أعضاء فاعلون في المجتمع، فإنهم سيكونون كذلك. وقال "توماس هيس" رئيس الفريق العلمي: قد تكون هناك أسباب اجتماعية ذات تأثير قوي على أداء ذاكرة البالغين.

وهنا نتذكر حديثًا نبويًّا رائعًا ومليئًا بالتعاليم الإيجابية، يقول ﷺ: "**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كلٍّ خيرٌ**" (رواه مسلم). فهذا يحرِّض المؤمن على أن يكون قويًّا ليس في جسده فقط، بل في إيمانه وثقافته وأخلاقه وصبره.

والصبر هو سلوك إيجابي عظيم لم يدرك العلماء أهميته إلا حديثًا، ولكن الله تعالى جعل جزاء الصبر دخول الجنة بغير حساب: ﴿**إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ (الزمر:١٠).

كذلك فإن القرآن يخبرنا بأن المؤمن لا يحزن أبدًا، لأن الحزن سلوك سلبي. ولو تأملنا كلمة "تحزن" في القرآن، وجدناها مسبوقة بكلمة "لا" دائمًا، وهذا يدل على أن المؤمن لا يحزن. ولنتأمل في هذه الكلمات النبوية التي جاءت في أصعب الظروف التي مر بها النبي الأعظم ﷺ وهو في الغار، يقول تعالى: ﴿**إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا**﴾ (التوبة:٤٠).

التفاؤل لزيادة العمر

وقد عثر فريق من العلماء على دليل يثبت ما للتفاؤل من محاسن على حياة المرء؛ فقد توصل فريق من علماء النفس الأمريكيين إلى أن الأشخاص المنشرحي البال، المتفائلين في نظرتهم إلى التقدم في السن، يعيشون لمدة أطول من أقرانهم الذين يستبد القلق بهم.

الآن لنتأمّل هذه الآية في قوله تعالى: ﴿**وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾ (آل عمران:١٣٩)؛ إنها آية تحث المؤمن على السلوك الإيجابي في عدم الوهن وعدم الحزن. ويقول العلماء: إن إحساس الإنسان بالوهن، يضعف من جهاز المناعة لديه، كذلك شعور الإنسان بالحزن الدائم، يسبب له الاضطرابات النفسية المختلفة.

وجاء في بحث أنجزه الفريق التابع لجامعة "ييل" في ولاية كونيكتيكات، أن الأشخاص الذين يتملكهم الخوف من الشيخوخة، تظهر عليهم أعراض التقدم في السن بسرعة أكبر. ويضيف العلماء في البحث الذي نشروه في مجلة "بيرسونالييتي أند سوشيال سايكولوجي"

بأن من يتقبلون الأمر برحابة صدر، يمكن أن يعيشوا سنوات أطول ممن يحاولون الكف عن التدخين أو يمارسون التمارين الرياضية.

إن المؤمن لا يخشى الشيخوخة، بل يحب لقاء الله، ولذلك قال تعالى: ﴿**مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾ (العنكبوت:٥). والمؤمن يكون سعيدًا لحظة الموت فلا يخاف ولا يحزن، يقول تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ**﴾ (فصلت:٣٠). وتأملوا كم تحوي هذه الآيات من رسائل إيجابية للمؤمن، تجعله يعيش فرحًا سعيدًا فلا يحزن ولا يخاف، وبالتالي إن هذه الآيات تعالج القلق حيث تفشل وسائل علم النفس.

وقد تبين للباحثين الأمريكيين، أن من لا يخيفهم تَقدُّم قطار الحياة، يعيشون في المتوسط سبع سنين ونصف أكثر من أولئك الذين يقضون وقتهم حسرة على ما مضى من أيامهم. كما أعرب الفريق الذي تقوده الدكتورة "ريبيكا ليفي" عن اعتقادهم بأن التعامل السلبي مع عملية الشيخوخة، يكون له تأثير مباشر على التشبث بالحياة.

وقال العلماء: إن إيجابيات القبول بقانون الشيخوخة، أكبر بكثير من العمليات ذات الطابع الفيزيولوجي؛ كخفض ضغط الدم، والكوليسترول، اللذين يعتقد أنهما يمنحان فرص حياة تبلغ أقصى درجاتها أربع سنوات إضافية.

وهذا يعني أن العامل النفسي أهم بكثير من العامل الفيزيولوجي، بمعنى آخر؛ فإن التعاليم الإيجابية التي يتلقاها الإنسان ويمارسها، لها أثر كبير على سعادته وطول عمره أكثر من تأثير الدواء والعناية الطبية. ولذلك فإن القرآن مليء بالتعاليم الإيجابية والتي لا يتسع لها هذا البحث، ولكن كمثال على ذلك، نتأمل قوله تعالى: ﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾ (الزمر:٥٣)؛ إنها آية مفعمة بالرحمة، ومليئة بالتفاؤل وعدم اليأس. وهذا يذكرنا بقصة سيدنا يعقوب عليه السلام بعد ما فقَد ابنيه يوسف وأخاه، فلم ييأس من رحمة الله، حيث خاطب أبناءه: ﴿**يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ إِنَّهُ لاَ يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ**﴾ (يوسف:٨٧)؛ لقد اعتبر القرآن أن اليأس هو كفر بالله تعالى، وذلك ليعطينا رسالة قوية بأن اليأس من رحمة الله محرم في الإسلام، وهذا ما مارسه المسلمون الأوائل، فمنحهم القوة، وفتحوا به الدنيا.

كما أن تأثير التعامل الإيجابي مع التقدم في السن، يكون أوضح من عوامل أخرى؛ كالحفاظ على خفة الوزن، والامتناع عن التدخين، وممارسة التمارين الرياضية... وهي عوامل يسود الاعتقاد بأنها يمكن أن تضيف -في أقصى الأحوال- ثلاث سنوات إلى حياة المرء.

وقد بنى الباحثون خلاصتهم على بحث شمل ٦٦٠ متطوعًا، تتراوح أعمارهم بين خمسين عامًا فما فوق. وقد قورنت معدلات الوفاة عند من شملهم البحث، بكيفية إجابتهم على استطلاع للرأي

أجري قبل اثنين وثلاثين عامًا. فقد سئل المستَجْوبون عن موافقتهم أو اعتراضهم على مجموعة من المقولات من قبيل: "بقدر ما تصبح كبيرًا في السن بقدر ما تصبح عديم الفائدة". ويقول فريق الدكتورة "ليفي": إن التشبث الأكيد بالحياة يفسر -بشكل جزئي- العلاقة بين التفكير الإيجابي وطول العمر.

غير أن هؤلاء الباحثين يشيرون إلى أن هذا ليس السبب الوحيد لذلك، فبرأيهم يلعب الإجهاد دورًا آخر في التأثير على القلب. وكان بحث سابق قد أظهر أن قلوب وشرايين المتشائمين من التقدم في السنّ، لا تستجيب بشكل جيد للإجهاد والضغط.

ويقول الباحثون: إنه من المحتمل أن التشبع بمواقف المجتمع السلبية من الشيخوخة، قد يكون لها تأثير على المرء وفيه، من دون أن يعلم بذلك. ويؤكد العلماء أن دراستهم تحمل رسالتين؛ أولاهما محبطة، ومفادها أن النظرة السلبية للذات، تقلل من احتمالات الحياة. والأخرى مشجّعة، وفحواها أن النظرة الإيجابية للذات، يمكن أن تطيل العمر. ونبه العلماء في الوقت ذاته، إلى أن تعامل المجتمعات الغربية بشكل غير إيجابي مع المتقدمين في السنّ، يمكن أن يفاقم المشاكل.

ونستطيع أن نستنتج من هذه الدراسات ما يلي:

١- التفاؤل يزيد من مقاومة الجسم للأمراض، ويمنح الإنسان السعادة في حياته. وهذا سلوك نبوي، لأن سيدتنا عائشة ﵂ عندما سئلت عن أخلاق النبي ﷺ قالت: "كان خُلُقُه القرآن" (رواه مسلم)؛

فقد طبق ﷺ القرآن تطبيقًا كاملًا، ولذلك حصل على السعادة الحقيقية، ويجب علينا أن نقتدي به في سلوكنا، فتكون أخلاقنا هي القرآن.

وعلى سبيل المثال، هناك قاعدة إلهية للتعامل مع المصاعب والمشاكل اليومية، وحيث يعجز الطب النفسي عن إعطاء الرضى بالواقع، نجد القرآن يمنحنا هذا الرضى، يقول تعالى: ﴿**وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ**﴾ (البقرة:٢١٦)؛ فلو طبقنا هذه الآية، زالت جميع المشاكل والهموم وما تسببه من قلق وخوف، لأن المؤمن يرضى بقضاء الله ولو كان الظاهر أن فيه الشر والسوء، ولكن الخير قد يكون بعد ذلك، فينتظر المؤمن هذا الخير، فيكون قد حقق التفاؤل المطلوب، وابتعد عن الحزن، وهذا علاج ناجع للقلق.

٢- التفكير الإيجابي أهم وأكثر فاعلية في علاج الأمراض من العلاج الطبي. بل إن أطباء الدنيا فشلوا في منح الأمل أو السعادة لإنسانٍ أشرف على الموت، ولكن تعاليم القرآن تمنحنا هذه السعادة مهما كانت الظروف.

لقد قالت فاطمة ﵂ وأبوها ﷺ على فراش الموت: وا كرباه، فقال لها ﷺ: "**لا كرب على أبيك بعد اليوم**". انظروا إلى هذا التفاؤل؛ النبي ﷺ لحظة الموت، كان سعيدًا وفرحًا بلقاء ربه، فماذا عنا نحن المسلمين؟

٣- التعامل مع الواقع برضى نفس وقناعة، يجعل الإنسان أكثر سعادة. والإنسان الذي يتذمر ولا يرضى بما قسم له من الرزق،

نجده أكثر تعاسة، ويكون نظامه المناعي ضعيفًا. وهذا دليل على أن التفكير بالأمراض والخوف والحزن والتفكير السلبي، يزيد من احتمال الإصابة بالأمراض المزمنة. فقد كان النبي ﷺ أكثر الناس تفاؤلًا برحمة الله، وكان يحضّنا على التفاؤل والرضى، حيث يقول: "**ما من عبدٍ مسلم يقول حين يُصبح وحين يُمسي ثلاث مرات: رضيتُ بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًّا، إلا كان حقًّا على الله أن يُرضيه يوم القيامة**" (رواه الترمذي).

إن كل ما سبق تلخصه لنا آية خاطب بها الله نبيَّه، ليعلمنا كيف نسلك سلوكًا إيجابيًّا في حياتنا، يقول تعالى: ﴿**وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ**﴾ (النحل:١٢٧). الصبر وعدم الحزن وعدم التذمر والضيق، كل هذا له نتيجة، ولكن ما هي؟ هذا ما نجد الجواب عنه في الآية التالية: ﴿**إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ**﴾ (النحل:١٢٨).

الذكاء العاطفي وبناء شخصية الطفل(*)

يرى علماء النفس المحدثون، أن هناك طريقتين مختلفتين اختلافًا جوهريًّا للمعرفة تتفاعلان لبناء حياتنا العقلية؛ طريقة العقل المنطقي، وهي طريقة فهم ما ندركه تمام الإدراك، والواضح وضوحًا كاملًا في وعينا. وهناك نظام آخر للمعرفة قوي ومندفع، وأحيانًا غير منطقي، هذا النظام هو "العقل العاطفي".

ويقترب هذا التقسيم الثنائي -إلى عاطفي ومنطقي- من التمييز الشائع بين العقل والقلب. فحين يعرف الإنسان بقلبه أن هذا الشيء صحيح، فهذا أمر يختلف عن الاقتناع، وهو نوع من المعرفة أعمق من اليقين وأكثر من التفكير فيه بالعقل المنطقي. فهناك علاقة طردية بين سيطرة العواطف وسيطرة المنطق على العقل، فكلما كانت المشاعر أكثر حدة، زادت أهمية العقل العاطفي وأصبح العقل المنطقي أقل فاعلية.

هذان العقلان (العاطفي والمنطقي) يقومان معًا في تناغم دقيق دائمًا بتضافر نطاقيهما المختلفين جدًّا في المعرفة بقيادة حياتنا. ذلك لأن هناك توازنًا قائمًا بين العقل العاطفي والعقل المنطقي؛ العاطفة تغذي وتزود عمليات العقل المنطقي بالمعلومات، بينما يعمل العقل

(*) أ. د. **بركات محمد مراد** [رئيس قسم الفلسفة والاجتماع، كلية التربية، جامعة عين شمس / مصر]

المنطقي على تنقية مدخلات العقل العاطفي، وأحيانًا يعترض عليها. ومع ذلك يظل كل من العقلين ملَكتين شبه مستقلتين كل منهما يعكس عملية متميزة، لكنهما مترابطتان في دوائر المخ العصبية.

ويخبرنا المحلل النفسي "دانييل جولمان" في كتابه "الذكاء العاطفي"، أن هناك بين العقلين -في كثير من اللحظات أو في معظمهما- تنسيقًا دقيقًا رائعًا؛ فالمشاعر ضرورية للتفكير، لكن إذا تجاوزت المشاعر ذروة التوازن، عندئذ يسود الموقف العقلي العاطفي، ويكتسح العقل المنطقي.

• الذكاء العاطفي: انتهى العلماء المختصون في هذا المجال، إلى أن الذكاء الأكاديمي، لا يعدّ المرء في الواقع لما يجري في الحياة من أحداث مليئة بالاضطرابات، أو لما تتضمنه من فرص، ومن ثم فإن أي ارتفاع في مستوى معامل الذكاء، لا يضمن الرفاهية، أو المركز المتميز، أو السعادة في الحياة، ذلك أن مؤسساتنا التعليمية وثقافتنا، تقف في ثبات عند القدرات الأكاديمية متجاهلة الذكاء العاطفي الذي هو مجموعة من السمات، قد يسميها البعض "صفات شخصية"، ولها أهميتها البالغة في مصيرنا كأفراد.

إن الإسهام الوحيد للتعلم بالنسبة لنمو الطفل، هو مساعدته على التوجه إلى مجال يناسب مواهبه، ويشعر فيه بالإشباع والتمكن. لقد افتقدنا تمامًا هذه الرؤية، وبدلًا منها ما زلنا نُخضع كل فرد إلى نوع من الدراسة؛ إذا نجح فيها لن يكون -في أحد الأحوال- أكثر من أستاذ في إحدى المدارس أو الجامعات.

كما أننا نكتفي بتقويم كل فرد، وفقًا لما حققه في مسيرة حياته بهذا المستوى المحدود من النجاح. ثمة واجب علينا أن نقلل من الوقت الذي ننفقه في تحديد مستويات الأطفال، ونبذل وقتًا أطول في مساعدتهم على تحديد قدراتهم ومواهبهم الفطرية، ونقوم برعايتها وتنميتها، وهناك المئات من سبل النجاح، وعديد من القدرات المختلفة التي ستساعدنا على تحقيق ذلك.

وقد جاء العالم "جاردنر"، وبيّن أن أساليب التفكير قديمة فيما يخص الذكاء، وقد انتهى عصرها الذي كان يصنف الناس على أنهم إما أذكياء وإما عكس ذلك؛ حيث تقوم الاختبارات على فكرة اختبار نوع واحد من القدرات التي تحدد مستقبلك. وقد أثبت "جاردنر" -في كتابه "أطر العقل" *(Frames of Mind)* الذي صدر عام ١٩٨٣- دحْض فكرة "معامل الذكاء"، معتبرًا أن هناك أنواعًا كثيرة متعددة من الذكاء. وقد توسع "جاردنر" وزملاؤه الباحثون، في قائمة أنواع الذكاء، حتى امتدت لعشرين نوعًا منها. ولا شك أن هذه الرؤية التعددية للذكاء، تقدم صورة أكثر ثراء لقدرة الطفل، والمواهب لدى الأطفال، على أساس مقياس "ستانفورد بنيت"، والذي كان يومًا المقياس الذهبي لاختبارات معامل الذكاء.

وأخذ تفكير "جاردنر" حول تعدد أنواع الذكاء يتطور مع الوقت، وبعد عشر سنوات من نشر نظريته أول مرة، لخص وجهة نظره في الذكاء على النحو التالي: "إن الذكاء في العلاقات المتبادلة بين الناس، هو القدرة على فهم الآخرين وما الذي يحركهم، وكيف يمارسون عملهم، وكيف نتعاون معهم... والواقع أن الناجحين

من العاملين بالتجارة، والسياسيين، والمدرسين، والأطباء، والزعماء الدينيين، يتمتعون في الغالب بدرجات عالية من الذكاء في مجال العلاقات العامة. فالذكاء الخاص بين الناس، هو القدرة على تبادل العلاقات فيما بينهم التي تتحول إلى قدرة داخلية. إنها المقدرة على تشكيل نموذج محدد وحقيقي للذات، لكي يتمكن من التأثير بفاعلية في الحياة".

• الوعي الذاتي: ويرى كثير من الباحثين، أن كل هذا يندرج تحت مفهوم "الوعي الذاتي"، الذي أصبح مفهومًا ضروريًّا بالنسبة للآباء في معرفتهم بدواعثهم وانفعالاتهم وإمكاناتهم النفسية والعقلية، وكذلك بالنسبة للأطفال أنفسهم، الذين نقوم على مساعدتهم في معرفة وتقويم قدراتهم الذاتية، وإمكاناتهم الفكرية والعاطفية.

و"الوعي بالذات" بإيجاز: "أن نكون مدركين لحالتنا النفسية وتفكيرنا بالنسبة لهذه الحالة المزاجية نفسها" وفقًا لقول "جون ماير" *(John Mager)* -العالم السيكولوجي بجامعة هابتشير- الذي وضع نظرية الذكاء العاطفي مع "بيتر سالوفي" بجامعة ييل. ويمكن أن يكون الوعي بالذات انتباهًا للحالات النفسية الداخلية، لكنه غير متفاعل أو قادر على تكوين رأي. لكن "ماير"، يرى أن هذه الحساسية قد تكون أيضًا أقل صرامة، لأن الأفكار المعهودة التي تعبر عن الوعي الذاتي بالانفعالات، تتضمن أفكارًا مثل "ينبغي أن لا أشعر بهذه الطريقة"، أو "أنا أفكر في أشياء جميلة لكي أشعر بالبهجة"، أو "لا تفكر في هذا الأمر" وهي الفكرة التي تطرأ على الذهن كرد فعل لأمر محبط للغاية.

ولذلك يقول "دانييل جولمان" في كتابه "الذكاء العاطفي": "وعلى الرغم من التمييز المنطقي بين أن نكون مدركين لمشاعرنا، والقيام بالأفعال من أجل الأهداف العملية كلها، يسيران عادة جنبًا إلى جنب ويدًا بيد. ذلك لأن مجرد إدراكنا أن المزاج سيء، فهذا معناه الرغبة في التخلص منه. والتعرف على الحالة النفسية شيء متميز عما نبذله من جهود، حتى لا نقوم بفعلٍ ما بدافع انفعالي. فعندما نقول لطفل يدفعه غضبه لضرب زميله في اللعب: "كفى"، نستطيع بهذه الصيحة أن نوقف الضرب، لكن الغضب يظل يمور بداخله، وتظل أفكار الطفل ثابتة على زناد الغضب وهو يقول: "لقد سرق لعبتي"، ويستمر الشعور بالغضب دون تهدئته وتخفيفه". فالوعي النفسي، تأثيره في المشاعر أكثر قوة، لأن الإنسان الغاضب إذا أدرك أن ما يشعر به وهو الغضب، فهذا يوفر له حرية كبيرة ليختار عدم إطاعة هذا الشعور، بل أيضًا خيار محاولة التخلص من قبضة هذا الغضب.

إذن، العالم الداخلي للطفل منذ ميلاده، ليس صفحة بيضاء يمكن أن نملأها بما نراه مناسبًا؛ فالطفل يولد ولديه طاقات ونزوات، وهي تتفاعل فيما بينها وتتصارع، وتتدامج وفق برنامج جامد ومحدد سلفًا بشكل مقنن وراثيًا، وصولًا إلى مرحلة النضج. بل هو أقرب ما يكون إلى الإمكانية التي يجب أن تبُنى متخذة شكل المشروع الوجودي، وقد تنجح عملية البناء هذه، أو تتعثر بدرجات متفاوتة.

فالعالم الداخلي للطفل، لا هو ساكن ولا هو متماسك ومنسجم، بل هو الأقرب إلى الواقع، وخلال نمو شخصيته بتكامل إمكاناتها وقواها، يمر الطفل بسلسلة من الأزمات التي يتعين الخروج منها.

هناك إذن ورشة شغل لترتيب البيت من الداخل، وصولًا إلى التماسك والانسجام وتنمية الإمكانات الداخلية، كي تتآلف العواطف مع العقل وتغذي بعضها بعضًا. وهناك شغل على العواطف والانفعالات لتحرير الطاقات الذاتية وإطلاقها، وصولًا إلى اكتساب الثقة بالنفس. ويشكل مجابهة الصعاب الداخلية مهمة لا مندوحة عنها، حتى إنها لتكاد تصبح جوهر الوجود الإنساني.

ولذلك يقول الدكتور مصطفى حجازي: "فمنذ الشهور الأولى، تطرح على الطفل مهام حاسمة لتقرير مستقبل وجوده الإنساني، أبرزها الدخول في العلاقات الإنسانية، وبناء أسس الهوية النفسية، وأسس السيطرة على النزوات. تتم المراحل الأولى لهذه المهام قبل سن السنتين، وحتى سن الثالثة يتعين قيام نظام متوازن من التماهيات مع الأم والأب يسمح للطفل ببناء هويته النفسية الجنسية (هوية الصبي أو البنت).

ويحدث ذلك خلال ترسيخ الروابط العاطفية واستقرارها وسلامتها. ثم تطرح عليه واحدة من أخطر المهام؛ وهي تمثل القانون ذاتيًا مما يؤسس لنظام الضوابط الذاتية والنجاح في هذه المهام جميعًا، هو الذي يُرسي دعائم النمو النفسي العاطفي والعلائقي، وصولًا إلى الاستقلالية الشخصية.

ويسير تعزيز هذا البناء قدمًا ما بين سنّي ٣-٦ سنوات، فيكتمل تكوين الهوية النفسية، وتبرز الـ"أنا" والوعي بالذات، وما يصاحبها من أزمة معارضته للكبار واستعراض لهذه الذات، كما تنتظم أركان الشخصية. ولا بد من انتظار أواسط الطفولة المتأخرة (أي سن ٧

إلى ٨ سنوات) حتى تصفى الأزمات الداخلية، ويتم التنسيق والتكامل وتقيض السيطرة للذات، كما تُصفى معها مسألة الاعتماد الطفلي على العلاقات مع الوالدين. وهذا ما يسمح لطفل ذي هوية طفلية متماسكة بالاستقلال، والدخول في العلاقات الاجتماعية، والانتماء الاجتماعي من ناحية، والتحول في اهتماماته من العالم الذاتي الداخلي إلى العالم الموضوعي من ناحية ثانية.

لا تمر هذه العمليات في مختلف مراحلها، بدون أزمات يفرضها التناقض بين النزوات واصطراع الرغبات داخليًا، وقيود وإحباطات العالم الخارجي من الناحية الأخرى. وكثير من هذه القضايا والأزمات التي يعيشها الطفل، لا تُصفى دفعة واحدة، وإنما تستمر بصورة مختلفة، وتتخذ أشكالًا وديناميات متنوعة تبعًا لكل مرحلة من مراحل النمو.

وفي كل مرة يحرز الطفل بعض التقدم في مسيرته التي قد تتعرض للتعثر والانتكاس، ولكنه لا يتخلى عن المحاولة فيعاود الكرة ويستأنف تصفية المشاكل والسعي إلى التكامل في أركان شخصيته. ومن خلال النهاية الطيبة والعودة المظفرة والانتصار، والتقدم والنمو عبر كثير من الوسائط الثقافية -كاللعب، والرسم، والقصص المكتوبة، والمسرح، والقراءة، ومشاهدة المسلسلات من الدراما، والخيال المصور في القصص التعليمية والخيالية- تتكامل شخصيته وتنمو ذاته، وتتحول فيه قوى التهديد والتدمير، لتغلب عليها قوى البناء واللقاء الإنساني، مما يعني تصفية للحسابات على الجبهة الداخلية، والسيطرة على العالم الذاتي.

• التوافق النفسي: إننا بحاجة إلى من يُشعرنا بأن الحب الذي طالت هجرته، وتاهت في مهب الريح أخباره، لا بد أن يعود أقوى مما كان؛ لأنه وصفة العلاج الوحيدة التي ستمنحنا الأمن العاطفي والاستقرار النفسي. ومن الطبيعي أننا لن نجد هذه الوصفة العظيمة على أرفف الصيدليات، ولا في حوانيت العطارين.

إن الأسئلة التي تغوص في أعماقنا متنوعة وكثيرة، ومعظمها قد تشرق في ظلام تلك الأعماق الجائعة اللاهثة المريضة، ليطفو همها على لسان الحقيقة الصارخة. من المسؤول الأول عن هجرة الحب من مهده الخصيب، ليشعل في مكانه نار الحرمان لهب أسود، وقودها العصيان والتدمير والموت؟ من المسؤول عن وسطية إشباع الغرائز وتوجيهها وتنظيمها ونموها في محاضن تربوية سليمة، حتى لا تنحرف عن مسارها القديم، والجوانب الإنسانية التي قد يصيبها العطن بغياب الدفء العاطفي؟

ومن هنا نفهم الأهمية البالغة التي يوليها القرآن الكريم في تهذيب العاطفة كونها تشكل مساحة واسعة في نفس الطفل الناشئ؛ فهي التي تُكوّن نفسه، وتبني شخصيته، فإن أخذها بشكل متوازن كان إنسانًا سويًّا في مستقبله وفي حياته كلها، وإن أخذها بغير ذلك -سواء بالزيادة أو النقصان- تشكلت لديه عقدًا لا تُحمد عقباها.

ومهمة التربية الإسلامية هنا، أو التربية السوية أيًّا كان مصدرها، هي السمو بتلك العاطفة الإنسانية ووضعها في مسارها الصحيح، ومن ثم توجيهها إلى أهم عاطفة وهي عاطفة محبة الله ﷻ ورسوله ﷺ،

ثـم عاطفـة محبـة الوالدين والإخوة وذوي القربـى، وعاطفة الحب في الله، إلى غير ذلك من العواطف الإنسانية... والتي تتعدى بتأثيرها إلى كل الإنسانية، كالعدل والرحمة والإيثار والتنافس في بذل الخير ورفـع السوء والضُر.

ولا ننسى هنا، أن العلاقة بين الأفراد في المجتمـع، تشكل العامل الأهم في تحقيق التقارب النفسي والاندماج العاطفي الودي، والذي بدوره يساعد على الارتقاء الاجتماعي والثقافي والنفسي بالمجتمـع، خاصـة وأن الفـرد يصبـح أكثـر التصاقًـا بالآخريـن، من خـلال تبادل الأدوار، ونكران الذات، وسـيادة لغة الحوار... فينشـأ عن ذلك كله، الحـب المغلـف بالعطـف، والحنـان والاحتـرام المتبادل، والمشـاعر الحساسـة والمشـاركة الوجدانية. ولذلك يعتبر من أهم العوامل التي قـد تكـون سـببًا في الحرمان العاطفي، عدم فتـح قنوات للتحاور مـع المقربين لنا وإهمالهم، وعدم مراعاة مشاعرهم وتلبية طلباتهم وسماع أصواتهم. ولذلك لا بد هنا من تبني إستراتيجية تربوية ناجحة.

في التربية بالمثال(*)

إذا كانت التربية تخريجًا لطراز من الناس وفق تصور ومنهج ورؤية، فإن موقع التربية من الإسلام، في المكانة السامقة، حيث يشار إليها من جوانب عدة. إن بقاء المنهج ودوام نوره ليستضاء به -مع إمكان غياب الطراز- لهو المفتاح الأكبر لحد التربية في الإسلام وبيان جذورها وحدودها وجدواها. جاءت آية كريمة في سورة الفتح تتحدث عن نوع من الناس وطراز خاص منهم، يمثله قمة التمثيل الرسول ﷺ ومن كانوا معه، ذلك قوله تعالى: ﴿**مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا**﴾ (الفتح:٢٩).

فالآية أعطت صورة ناصعة عن هؤلاء جميعًا، وأوردت وصفهم ومثالهم في التوراة؛ أنهم أشداء على الكفار، رحماء بينهم، ركّع سُجّد، يبتغون فضلًا من الله ورضوانًا، وأثر ذلك ظاهر عليهم؛

(*) د. **الحسان حالي** [أستاذ باحث بكلية الآداب، جامعة محمد الأول، وجدة/المغرب].

سيماهم في وجوههم، كأنهم لا شغل لهم إلا هذا، ولا عمل لهم إلا إياه، ولا همَّ لهم سواه، فلا يظهر ما سواه إلا به ولا يستوي إلا معه.

إنها صورة جماعة مؤمنة خلصت منهم القلوب وصدقت النيات، فاستخلص التوجه والقصد. وكان نتاج ذلك ثمار يانعة من خير عمل فردي ينشق من واقع عام جماعي؛ إنه وصف فردي ينشق من صورة جماعية، وهنا مكمن الدقة والتدقيق. هذا النموذج ساقت الآية كذلك وصفه ومثاله في الإنجيل: ﴿**وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ**﴾ (الفتح:٢٩)، هو وصف جماعي ينشق من صورة فردية، ومثال تغلب عليه "الجماعية" لكن باعتبار أثر الفرد داخل الجمع، مثل الزرع وهو حب وبذر يحمل الحياة، ومن البذر والحب يخرج الشَّطْء، ثم ينمو ويطلب الاستخلاص فيأتي الغِلظ. إنه نموذج قمة في الكمال والجمال، فهو بذلك مثال ونوع -إن غاب بقي لنا الوصف والصفة- وهما من أقوى الأسباب لاتخاذ وسائل الارتقاء نحو المثال اقتداءً واحتذاء واهتداء.

وعلى هذا الأساس ووفق هذا الأصل، ينظر إلى قوة ومتانة التربية بالمثال وعلى المثال، وهو منزع داخلي يلح على النفس خصوصًا في زمن البحث عن الذات ومحاولة بنائها وصياغتها، فيسهل ذلك بوجود المثال، وحضور النموذج الذي يدفع بقوة نحو بناء جسد متراصّ اللبنات، مترابط الحلقات، متفاعل الأجزاء. وإذا عُرف هذا، لم تعد هنا حاجة قائمة للسؤال عن مشروعية "التربية" في التصور الإسلامي، وإنما يقوم إزاءنا سؤال ملامح المشروع التربوي الباني، وهو مربط الفرس وموئل الباحث عن أساليب العلاج وأسباب النهوض.

التربية والاستعداد

التربيـة إنشـاء وإحداث وإعداد بمقوم التفاعـل والتجاوب، وعلى هذا الأساس لا تتأتى آثار التربية ونتائجها، إلا على مرتكز الاستعداد الذي منه فردي وجماعي.

الاستعداد الفردي

التربية قائمة على الاستعداد.. الاستعداد الفردي أولًا، حيث يكون الفرد مثل البذرة الصالحة للإنبات في البيئة المهيأة للإنبات، فإذا لم يكـن هـذا الصـلاح وهذا الاسـتعداد، لا يكـون ما بعده. إنه اسـتعداد للتفاعـل والنمـو ليخرج الشَّـطْء وينمـو ويكبر في الحقـل والميدان.. لا بد من كيان مستقبل قابل ثم يأتي الإيمان ليُفعَل الكيان.

إنه في إزاء تربية الأفراد لا بد من حضور القبول، وهو أمر ملاحظ فـي التوجيهـات والإشـارات النبوية الدقيقة العابـرة للمجال: الأرض التـي تقبـل المـاء "منهـا طائفـة قبلـت المـاء"، والأرض التـي تمسـك المـاء "منهـا طائفة أمسـكت المـاء"[1]. وهكذا ومـع هـذا فالقبول غير الإمسـاك، القبول اسـتعداد للانتفاع والشـروع في التطور والنمو، أما الإمسـاك دون القبـول فهـو دون ذلـك، لأنـه قـد لا يكون لـه قيمة في الذات، مـع أنه قد يقـع به مجرد الانتفاع "الآلي"، مثل الإناء يمسـك ما يمسك ويشرب منه الشارب فينتهي دور الإناء في الإمساك.

إن ملامـح النجـاح التربـوي تبـدأ بملاحظـة مخايـل الاسـتعداد الفردي استخلاصًا لمكامن النجابة والقوة والأمانة، قصد دعم البنيان ورص صفه باللبنات الجياد.

وليس من العسير ملاحظة ذلك في "البناء المثال"؛ البناءِ النبوي التربوي، وهو يلتمس في ظروف البدايات الأولى -وما أصعبها من ظروف وما أحسنها لنا من مثال- بناءَ قاعدة الانطلاق الدعوي الحقيقي من خلال الاتصال الفردي الانتقائي، وذلك بمعرفة قابلية الأفراد للتجاوب على أمل الانخراط في موكب التربية الدعوية. وعلى هذا كان النبي يدعو من يثق في رجاحة عقله، لأنه إما أن يقبل الدعوة فيتحقق له القصد وينال المراد، وإما أن يسكت عنه فيحقق معه المطلوب ويحافظ على سرية دعوته وأمنها. جاء في السيرة: "وجعل رسول يذكر جميع ما أنعم الله عليه وعلى العباد به من النبوة، سرًّا إلى من يطمئن إليه من أهله"[٢].

ووفق هذا المنهج انتقى رسول الله ﷺ للدعوة، واصطفى "رواحل" صدقت فيهم فراسة قابليتهم واستعدادهم للتأهيل التربوي والدعوي، حيث تفاعلوا وتأهلوا في إطار عملية تربوية، فصاروا بُعيد مدة أفرادًا فاعلين، حاملين للدعوة، سائرين بها نحو آفاق أرحب.. فنمت دعوة الناس وتطورت في "متتالية هندسية" أتاحت فشو خير هذه الدعوة، وسرعة وصولها إلى محتضنيها، والعاملين عليها والقائمين على خدمة أمرها تثبيتًا وتبليغًا، وهو ما ينبغي في ظروف البناء لا ما سواه. وهو كذلك ما ينبغي في ظروف إعادة البناء، ذلك لأنه نموذج صالح ثابت الصلاحية لكل وقت وحين، ولكل حيز ومكان.

ولعله يكون من الأفيد ألا ننصرف عن الفكرة قبل أن نضرب مثالًا على هذا، وهو مثال أبي بكر الصديق رضي الله عنه الذي دعاه النبي ﷺ -وكان أعرف الناس به لصداقة بينهما- فأجابه لدعوته وأسلم.

وهو أول من آمن من الرجال، ثم قام بعد ما تلقى ما تلقى نشطًا للدعوة، متشربًا قواعدها وضوابطها المحتاج إليها في حينها، ودعا أفرادًا من علية القوم، أمثال عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله.. فأصبحوا هم الذين يشكلون -مع من سبقهم في الإسلام- الصفوة المؤمنة في فترة التخلق، وكانوا "النواة الصلبة" التي أسست على قاعدتها مادة الانطلاق. لا شك أن هذا وما في حكمه، يظهر تصريف لوازم الإعداد الفردي وقف الاستعداد المؤهل للطاقات والمفجر للإمكانات، الموصل إلى النتائج والغايات.

الاستعداد الجماعي

إن الفرد يصل بمستوى التأهيل والإعداد إلى شعور نفسي عارم دافع للسير ضمن ذات أكبر وأوسع وأجمع. إنه شعور نفسي للسير باجتماع، ذلك هو أصل الاستعداد الجماعي الذي هو أصل الانطلاق في الاتجاه الصحيح الموسوم في صورة المثال في الإنجيل: "الزرع وإخراج الشَّطْء". والأمر يكون وفق التكامل وإحداث الانسجام، بحيث يصبح كل فرد -بما يحمل وما يعمل- عمدة ليس هناك فضلة. إذن هناك ملمح التكامل الأساس في البناء الجماعي، وهو يقف على ثوابت راسخة، ولعل أقواها وأصلبها التراص والتلاحم الذي يحيل على شدة الترابط وقوة الآصرة المؤثرة في شد البنيان المرصوص. إنه أمر ملح لا بد من تحققه تحققًا فعليًا، فلا بد من التراص من خلال التكامل والتناسب بين اللبنات؛ بحيث يثبت هذا الرص رصًا لا يترك مجالًا لظهور التشققات، رغم ما قد يحصل من اهتزازات أو رجّات.

إن الجماعة بالرص تحمل ما فيها وتتحمله، وإن حصل لأفراد منها تأخُّر أو تراخ أو محنة أو امتحان، فلا يؤثر ذلك في بناء الذات الجماعية المستوعبة لذوات الأفراد، في تكتل مرتبط بعلاقة وطيدة بالواقع، ألا وهي علاقة "تحضير التيار" العام و"صناعة البيئة" العامة المؤثرة والمتحكمة.

إن صناعة البيئة الجماعية وصياغتها، تتيسر بالتزام مبادئ الخطاب التربوي الباني المبني على التضام والتلاحم الذي تؤسسه قاعدة: "أنا من المسلمين". حينذاك يصير الخطاب خطابًا عامًّا، ويصير المنهج منهجًا عامًّا.

وهذا هو الذي صيغت به الجماعة المسلمة في بدايات تشكل أمرها نواة للأمة وبذرة للدولة، فناسبها منهج "التربية المنبرية" تثبيتًا للأقدام وتوطيدًا للنفوس توجيهًا نحو النماء والعطاء، ثم منهج "التربية العلمية"، أي التربية بالعلم تحقيقًا لشرط الكينونة الإنسانية الإسلامية؛ وهو ما تكامل ترابطًا وتشكلًا في "التربية النموذج" أو "التربية المثال".

ولا شك أن هذا الوضع يستدعي تفريعًا وتنويعًا حسب مجالات التفاعل العام وفق معطيات الزمان والمكان. وعلى ذلك تنشأ علاقة بالواقع من خلال التوجيه والترشيد والاشتغال بالإستراتيجي العام.

والاشتغال بالإستراتيجي العام ينحصر في بابين خادمين لسائر القضايا ألا وهما "العلم" و"الخلُق"، وذلك بالمفهوم الواسع للعلم والخلق.

العلم: اشتغال بأمر عام ينتج عنه -بمرور الوقت- نتائج واسعة الأثر قد لا تكون متوقعة أصلًا. فيكون هذا الاشتغال من مشمولات "التربية"، أيْ التربية البانية للذات الجماعية، والمحصنة لمقوماتها. ووفق ذلك سارت حضارتنا لا ينفصل فيها التعليم عن التربية، بل تأتي التربية في المقام الأول.

الخلُق: انشغال بصفة تنحصر في التدين. والخلُق الحسَن هو التدين، ذلك لأن الدين كله خلق حسن. ولا بد أن يتفجر الأمر ينابيع خير وعطاء بين الناس، خدمة لهم وسيرًا في حاجاتهم، مما يقوي عوامل التراص والترابط الضامنة لنمو جسد الأمة، بعيدًا عن الأدواء والعلل، قريبًا من الدواء في حالة الإصابة والعدوى.

التوجيه والترشيد وهو أمر متعين بقصد إحداث تأثير عام يحدد توجّه المتوجّهين، ويضبط مسارهم نحو الوجهة الطبيعية الصحيحة. فالتوجه الطبيعي يتم بحسب التوجيه، التوجيه العام نحو التدين الذي لا تملك "التربية العامة" سواه.

إلى هنا يصل بنا المطاف إلى نهاية القصد من هذه اللمحات، التي هي عبارة عن رؤوس مسائل تنفتح على آفاق للبحث والدرس الموسع لكل مسألة على حده.

الهوامش

(١) الإشارة إلى حديث: "**إن مثل ما آتاني الله من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضًا فكانت منها طائفة طيبة قبلت ذلك فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وأمسكت الماء، فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفةً أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعمل، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به**" (أخرجه ابن حبان في صحيحه).

(٢) انظر: سيرة ابن هشام ٢٥٩/١.

التربية على فن إلقاء السؤال(*)

إن السنة وعاء تربوي، ينهل من معينه -الذي لا ينضب- العلماء والقادة والمربون؛ في إبداع أحسن الوسائل التربوية التي ترشدهم في توجيه المتعلمين إلى أن يكونوا في صفوة الأذكياء وخيرة الأصفياء. ومن بين أبرز الوسائل التعليمية التي استخدمها رسول الله ﷺ في مجالسه التربوية، هي إلقاء السؤال. وقد مشى فيه ﷺ على نقل المتعلمين من عالم المادة إلى عالم الروح، ومن الجسد إلى العقل، ومن الاستماع إلى الانتفاع، ومن الإلقاء الشفهي إلى الارتقاء العرفاني. هذه المقاصد كلها رسّخت في نفوس المتعلمين الحكمة في أروع صورها، والسؤال ما جعل مجالس النبي ﷺ تحفها بركات العلم، وتدفع المتعلمين إلى تسخير كل طاقتهم العقلية، ومواهبهم الفكرية وقدراتهم الوجدانية... في استنباط أصلح الأحكام وأحسن الاختيارات التي تنقلهم في عالم الأكوان من المشاهدة إلى الشهود، ومن الأخذ إلى البذل، ومن الضيق في الفكر إلى السعة في رحاب الوجود. فهذه هي السنة التي صنعت العقول وأنتجت الأفكار، وتربى في مجالسها عظماء النفوس، وأساطين العلوم، الذين اصطفاهم الله أن يكونوا من خير الأمم. والمتأمل في طبيعة الأسئلة التي وُجهت إلى رسول الله ﷺ في شتى المناسبات، أو ألقاها رسول الله ﷺ

(*) د. نبيل طنطاني [كاتب وباحث/المغرب]

في مجالس معينة، سيجدها أنها دونت في السنة النبوية، لتضع بصمات تربوية وهي تعليم الناس فن إلقاء السؤال؛ وهو ما لا يتحقق إلا بشروط منهجية ومقاصد تربوية تفهم من التأمل في مجموعة من الأحاديث النبوية، وهي:

• أن يخاطب السؤال أعماق النفس البشرية من الوجدان والقدرات والقيم والمعارف، ويشمل مناحي الإنسان وطاقاته الظاهرة والباطنة: وهذا يميز الأسئلة النبوية الموجهة إلى المخاطبين في قضايا الخلق والوجود، وهي أسئلة تأخذ بلب الإنسان نحو الاستسلام إلى أحكام الله وسننه في الكون، ومثاله في السنة ما جاء عن ابن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "**إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وإنها مثل المسلم، فحدثوني ما هي؟**" فوقع الناس في شجر البوادي، قال عبد الله: ووقع في نفسي أنها النخلة، فاستحييت، ثم قالوا: حدثنا ما هي يا رسول الله؟ قال: "**هي النخلة**" (رواه البخاري).

• أن يرتبط السؤال بمناسبة، تقتضي من المربي أن يغتنمها لتمرير رسائل الخير في نفوس المتعلمين، حتى يقتنعوا بالعبرة من المشاركة أو الحضور في تلك المناسبة: ومثال ذلك ما جاء في البخاري عن ابن عباس ﷺ: أن رسول الله ﷺ خطب الناس يوم النحر فقال: "**يا أيها الناس أي يوم هذا؟**" قالوا: يوم حرام، قال: "**فأي بلد هذا؟**" قالوا: بلد حرام، قال: "**فأي شهر هذا؟**" قالوا: شهر حرام، قال: "**فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا**". فأعادها مرارًا، ثم رفع رأسه فقال: "**اللهم هل بلّغت، اللهم هل بلّغت؟**"، وهذا السؤال فهم منه حبر

الأمة عبرًا ودروسًا ثم قال ابن عباس ﷺ: فوالذي نفسي بيده، إنها لوصية إلى أمته ﷺ: "**فليبلغ الشاهد الغائب، لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض**". فانظر إلى المربي كيف أحسن اغتنام فرصة اجتماع الناس في الحج الأكبر، ليرسخ في نفوسهم مقاصد الشريعة التي جاءت من أجل حفظها في الأنام، وهي حفظ النفس والمال والعرض.

• أن يكون السؤال يتوخى انتباه المتلقي، ليراجع سلوكاته وتصرفاته الخاطئة ويوجهها التوجيه الصحيح، وينطلق من معرفة السائل لواقع المتلقي، وما يحيط به من أحوال تستوجب من السائل أن يصححها عن طريق السؤال: ومثاله ما جاء في البخاري عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ: قال لي رسول الله ﷺ: "**يا عبد الله، ألَمْ أُخبَرْ أنك تصوم النهار وتقوم الليل**"، فقلت: بلى يا رسول الله، قال: "**فلا تفعلْ، صمْ وأفطِر، وقمْ ونمْ، فإن لجسدك عليك حقًّا، وإن لعينك عليك حقًّا، وإن لزوجك عليك حقًّا، وإن لزورك عليك حقًّا، وإن بحَسْبك أن تصوم كل شهر ثلاثة أيام، فإن لك بكل حسنة عشر أمثالها، فإن ذلك صيام الدهر**". فشَدَّدْتُ فشُدِّدَ علَيَّ، قلت: يا رسول الله، إني أجد قوة؟ قال: "**فصمْ صيام نبي الله داود** عليه السلام **ولا تزد عليه**"، قلت: وما كان صيام نبي الله داود عليه السلام؟ قال: "**نصف الدهر**". والمتلقي لم يفهم العبرة من السؤال الذي وجهه إليه المربي محمد ﷺ الذي لا يسأل إلا لعلم وعبرة مقصودة ترسيخها فيه، ولهذا كان عبد الله يقول بعدما كبر: يا ليتني قبلت رخصة النبي ﷺ.

• أن يكون السؤال هادفًا، يحمل في ألفاظه رسائل موجهة للأفكار ومرسخة للقيم ومصححة للمفاهيم: ومثال ذلك ما جاء في البخاري عن أبي واقد الليثي أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس في المسجد والناس معه، إذ أقبل ثلاثة نفر، فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ وذهب واحد، قال: فوَقَفا على رسول الله ﷺ، فأما أحدهما فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها، وأما الآخر فجلس خلفهم، وأما الثالث فأدبر ذاهبًا، فلما فرغ رسول الله ﷺ قال: "**ألا أخبركم عن النفر الثلاثة؟ أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه الله، وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه، وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه**". ففي هذا الحديث النبوي تنجلي لمسات تربوية مشرقة للمربي محمد ﷺ في حث الناس على التعلّم والعلم، فاختار ﷺ السؤال رسالة موجهة للاختيارات التي يختارها الإنسان في التعلم. فقد اغتنم حدثًا طرأ في الحال، وهو قصة النفر الثلاثة، واستنبط منه درسًا في حسن الإقبال على العلم والتعلم بدون أن يطيل على الناس في النصح والإرشاد.

• أن ينشئ في نفوس السامعين الرغبة في الاستزادة من تمثل العلم والحلم والاجتهاد في المسائل: ومثاله عن الحارث بن عمرو عن أناس من أهل حمص من أصحاب معاذ ﷺ: أن رسول الله ﷺ لما أراد أن يبعث معاذًا إلى اليمن قال: "**كيف تقضي إذا عرض لك قضاء؟**" قال أقضي بكتاب الله، قال: "**فإن لم تجد في كتاب الله؟**" قال: فبسنة رسول الله ﷺ، قال: "**فإن لم تجد في سنة رسول الله ﷺ ولا في كتاب الله؟**" قال: **أجتهد رأيي**. (رواه الترمذي)

• أن يفتح السؤال الباب أمام السامعين للمشاركة جماعة في الإجابة عنه، وحثهم على عدم الاقتصار في التفكير على المتعارف عليه، لأن المطلوب فيه هو الغوص في أعماق الأفكار وبواطن الأشياء. قال رسول الله ﷺ: "**أتدرون مَن المفلس؟**" قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال ﷺ: "**إن المُفْلِس مِن أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه، أُخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار**" (رواه مسلم).

• أن لا يكون الغرض من السؤال السخرية والتهكم والاستهزاء: ومثاله ما جاء عن عبد الله ﷺ قال: بينا أنا أمشي مع النبي ﷺ في خَرِب المدينة وهو يتوكّأ على عَسيبٍ معه، فمرّ بنفر من اليهود، فقال بعضهم لبعض: سَلوه عن الروح، وقال بعضهم: لا تسألوه لا يَجيءُ فيه بشيء تكرهونه، فقال بعضهم: لَنسألنّه، فقام رجل منهم فقال: يا أبا القاسم، ما الروح؟ فسكت، فقلت: إنه يوحى إليه، فقمت، فلما انجلى عنه، فقال: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلًا**﴾ (الإسراء:٨٥).

• أن يكون السؤال دقيقًا من حيث العبارات والألفاظ والمقاصد، ويكون مختصرًا ما أمكن، تنتفي فيه معاني التعميم والإرسال، ويكون مركزًا يوصل إلى الغرض المطلوب، دون أن يشوبه الاضطراب واللبس: عن أبي هريرة ﷺ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال:

يا رسول الله، مَن أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: "**أمك**"، قال: ثم مَن؟ قال: "**أمك**"، قال: ثم من؟ قال: "**أمك**"، قال: ثم من؟ قال: "**ثم أبوك**" (رواه البخاري).

• أن يكون السؤال يتميز بالوضوح، لأنه كلما كان واضحًا، كان الجواب يسيرًا يبعث على النشاط، ويحد من الملل: ويمثل له بما جاء في البخاري في حديث أنس بن مالك ﷺ أن ضِمَام بن ثعلبة سأل النبي ﷺ فقال: نشدتك بربك ورب من قبلك، آلله أرسلك إلى الناس كلهم؟ فقال رسول الله ﷺ: "**اللهم ونَعَمْ**"، قال: فأنشدتك بالله، آلله أمرك أن نصلي الصلوات الخمس في اليوم والليلة؟ فقال رسول الله ﷺ: "**اللهم ونعَمْ**"، قال: فأنشدك بالله، آلله أمرك أن نصوم هذا الشهر في السنة؟ قال رسول الله ﷺ: "**اللهم ونعَمْ**"، قال: أنشدك بالله، آلله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتَقْسِمَها على فقرائنا؟ فقال رسول الله ﷺ: "**اللهم ونعَمْ**"، فقال الرجل: آمنت بما جئت به، وأنا رسول من ورائي من قومي".

• أن يكون السؤال على أكمل المراتب وأحسن المطالب، يرتقي بالإنسان من الجهل إلى العلم، ومن الدنيا إلى الآخرة، ومن الأرض إلى السماء: ومثاله ما جاء في البخاري عن أبي هريرة ﷺ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أي الصدقة أعظم أجرًا؟ قال: "**أن تَصدَّق وأنت صحيح شحيح، تخشى الفقر، وتأمُلُ الغنى، ولا تُمْهِل حتى إذا بلغتْ الحلقومَ**"، قلت: لفلان كذا، ولفلان كذا، وقد كان لفلان".

• أن يكون الجواب عن السؤال يفتح الباب لاختبار النفس، وإخضاعها للتجريب والتحليل والمقارنة: جاء في البخاري عن عائشة ﵂ أن بعض أزواج النبي ﷺ قلن للنبي ﷺ: أينا أسرع بك لُحوقًا؟ قال: "**أطولكنّ يدًا**"، فأخذوا قصَبَة يذرعونها، فكانت سَودةُ أطولهنّ يدًا، فعلِمْنا بعدُ أنما كانت طولَ يدها الصدقةُ، وكانت أسرعنا لُحوقًا به، وكانت تحب الصدقة".

• أن لا يخرج السؤال إلى حد الانحراف والتطرف والغلو والتشديد؛ لأن المطلوب في السؤال هو تحصيل التوسط في المآل، والاقتصاد في الغاية. ومراعاة هذا المبدأ تجعل المربي، يراعي الفروق الفردية بين الناس، ويخاطبهم بما لا يخرجهم عن مدارج الحق، ومواطن الصواب. ومثاله ما جاء في البخاري عن أنس بن مالك ﵁ يقول: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ، يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أُخبِروا كأنهم تَقالُّوها، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟ قال أحدهم: أمّا أنا فإني أصلّي الليل أبدًا، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر. وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا. فجاء رسول الله ﷺ فقال: "**أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله، إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلّي وأَرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني**".

• أن يتضمن السؤال الإشارات والعلامات الدالة على الجواب: ومثاله ما جاء في البخاري عن عائشة ﵂ قالت: قلت يا رسول الله، أرأيت لو نزلتَ واديًا وفيه شجرة قد أُكِل منها، ووجدتَ شجرًا

لـم يـؤكل منهـا، فـي أيِّها كنـتَ تُرْتِـعُ بعيرَك؟ قـال: "**في التي لـم يُرتَعْ منها**"، تعني أن رسول الله ﷺ لم يتزوج بِكْرًا غيرَها.

• أن يتضمن السؤال حسن الظن بالمتلقي، ولا يكون الهدف منه التنقيـص منـه وإيقـاع المتلقي فـي الوهم والحيرة: ومثالـه ما جاء في البخـاري عـن أبـي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ انصـرف مِن اثنتين، فقال له ذو اليدين؟ أَقَصُرَتْ الصلاة أم نسـيتَ يا رسـول الله؟ فقال رسـول الله ﷺ: "**أَصَدَقَ ذو اليدين؟**" فقال الناس: نعم، فقام رسول الله ﷺ فصلى اثنتيـن أُخْرِيَـن، ثـم سـلّم، ثـم كبّر فسـجد مثل سـجوده أو أطول، ثم رفـع ثم كبّر فسجد مثل سجوده أو أطول، ثم رفـع وسلّم".

• أن يكون صادرًا من بُعد النظر وعمق الفكر؛ لأنه إذا انعدم النظر، يكـون الجـواب قاصـرًا لا يحيط بالواقـع المرغـوب في فهمه وتحقيق مناطـه. مثالـه مـا رواه البخـاري عن أنـس ﷺ: أن رجلًا سـأل النبي ﷺ عن الساعة، فقال: متى الساعة؟ قال ﷺ: "**وماذا أعددتَ لها؟**"، قال: لا شيء، إلا أني أحب الله ورسوله، فقال ﷺ: "**أنت مع من أحببتَ**". قال أنس ﷺ: فما فرِحْنا بشيء فرَحَنا بقول النبي ﷺ: "**أنت مع من أحببتَ**".

• أن يكـون السـؤال واقعيًّا، أي قريـب التحقق في الواقـع، وتدعو إليـه الحاجـة والضـرورة: عـن أم سـلمة قالـت: جـاءت أم سـليم إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن الله لا يستحيي من الحق، فهل علـى المـرأة من غسـل إذا احتلمـت؟ قال النبـي ﷺ: "**إذا رأت الماء**"، فغطـت أم سـلمة -تعنـي وجههـا- وقالـت: يـا رسـول الله، وتحتلـم المرأة؟ قال: "**نعم، تربت يمينك، فبم يشبهها ولدها**".

• أن لا يكون السؤال غاية في حد ذاته: ومثاله ما جاء في البخاري عن أبي موسى ﷺ قال: سئل النبي ﷺ عن أشياء كرهها، فلما أُكثر عليه غضِب، ثم قال للناس: "**سلوني عما شئتم**"، قال رجل من أبي؟ قال: "**أبوك حذافة**"، فقام آخر فقال: من أبي يا رسول الله؟ فقال: "**أبوك سالم مولى شيبة**". فهذا السؤال لا معنى له، فالسائل يسأل من أجل السؤال، فلو عرف أن السؤال شُرع لغاية لما سأل، ولهذا كره النبي ﷺ ذلك.

• أن لا يُخرج السؤال المتلقي من علم إلى آخر، ومن فكرة إلى أخرى، وينقله حتى تنفلت منه كل العلوم والأفكار: ومثاله ما جاء في البخاري عن أبي هريرة قال: بينما النبي ﷺ في مجلس يحدث القوم، جاءه أعرابي، فقال: متى الساعة؟ فمضى رسول الله ﷺ يحدث، فقال بعض القوم: سمِع ما قال فكَرِه ما قال، وقال بعضهم: بل لم يسمع، حتى إذا قضى حديثه قال: "**أين أراه السائلُ عن الساعة؟**".

خاتمة

كان السؤال في السنة النبوية حمّالًا لآمال التغيير في نفوس السامعين، يوجههم إلى الميل نحو الرشد التربوي، والاهتداء إلى أقوم المكارم التي تجعل أمته خير أمة أخرجت للناس. وهو ما جعل الأسئلة النبوية تَقبل التنفيذ والإنجاز من المخاطبين، ولم تكن لغوًا لا يرجى منها نفع ولا خير. وهو ما بث التفاؤل والتحفيز في النفوس للوصول إلى الحقائق، انتهى بهم إلى الاتفاق بينهم على إنجاز مشروع علمي واجتماعي وأخلاقي، وهو مشروع الهدي النبوي في الكون.

صناعة الطفل المبدع(*)

يعترف الباحثون اليوم بصعوبة الوقوف على تعريف موحد للإبداع، ولعل أول أوجه هذه الصعوبة تكمن في درجة التعقيد التي ينطوي عليها الإبداع، مما دفع "ماكينون" للاعتراف بأن الإبداع لا يمكن وصفه بتعريف محدد، على اعتبار أنه ظاهرة متكاملة ذات وجوه متعددة، إلا أن معظم الباحثين يذهبون إلى عدِّه ضربًا مفارقًا من ضروب الذكاء، إذ إن الإبداع يتطلب في أبسط أشكاله نوعًا من تجاوز المألوف.

فإذا كان الذكاء يعرّف بأنه القدرة على حل المشكلات، فإن الإبداع يتجاوز هذه القدرة إلى قدرة أخرى ترقى إلى استبصار طرق ومناهج جديدة في إيجاد الحلول على نحو غير معروف من قبل. كما وضع البعض شروطًا أخرى للتفكير الإبداعي، ومنها أن يتضمن هذه التفكير قدرًا من الدافعية والحماس لتحقيق الأهداف، وإيمانًا عميقًا بجدواها العملية.

ولا يقتصر الإبداع على مجال واحد من مجالات التفكير، بل يتعداه أيضًا إلى مجالات الفن والموسيقى والجمال التخيلي، إذ يتميز المبدعون عادة برهافة الحس، والقدرة على الإدراك العميق

(*) **أ.د. بركات محمد مراد** [رئيس قسم الفلسفة والاجتماع، كلية التربية، جامعة عين شمس/مصر].

لكل ما يدور من حولهم. والإبداع أيًّا كان -فكريًّا أو أدبيًّا أو فنيًّا- يحتاج إلى عوامل مهيئة تساعد على نموه، فهو يتطلب تربة خصبة وصحية، لتنبت فيها بذوره التي لو لم تجد رعاية وعناية خاصة فلن يُكتب لها الحياة. فالمبدع بحاجة إلى أجواء نفسية صحية تتناسب وصفاته الشخصية، من رهافة الحس وسعة الخيال والذكاء والحرية، فلا يعقل أن يحيا المبدع في بيئة تسودها العقد النفسية، والضجيج والأمراض النفسية، ويسيطر عليها الروتين، والمنافع الشخصية، والمحسوبيات، وتسودها الأحقاد.

ونؤكد هنا على شخصية المبدع؛ إذ المبدع من طراز خاص، يمتاز عن غيره من البشر بصفات خاصة تجعله جديرًا بأن يكون مبدعًا، وأولى هذه الصفات الإحساس المرهف، ذلك الإحساس الذي يجعله يشعر بما لا يشعر به الآخرون من غير المبدعين، وينتبه إلى ما لا ينتبه إليه غيره. ويتصف المبدع -كذلك- بالخيال الواسع والذكاء والحرية، بالإضافة إلى ما حباه الله به من موهبة الإبداع.

فالخيال الواسع يمكنه من اكتشاف علاقات جديدة بين الأشياء أو العناصر لم تكن موجودة من قبل، كما يساعد هذا الخيال النشط على تصميم نماذج جديدة، وصياغة أطر مبتكرة، ولا يتأتى له ذلك إلا بالذكاء والفطنة. وباختصار، فالمبدع شخص عبقري من طراز خاص، إذن فالمبدع شخص مرهف الإحساس متمرد على واقعه، يدفعه طموحه وخياله الواسع إلى ارتياد آفاق جديدة وإنتاج شيء جديد مبتكر، بما وهبه الله من موهبة وذكاء وفطنة.

إن المبدع في الأصل شخص موهوب، لكنه لا بد أن ينمي موهبته ويصقلها بالتجارب، وهو في حاجة ماسة إلى حرية حقيقية، لينفلت من إسار الواقع والتقليد، ويحلق إلى آفاق جديدة، وليبحر صوب المجهول، ولذا فإن التقاليد الصارمة، والموروثات النمطية والحدود المصطنعة والروتين، كلها مواد سامّة تصيب المبدع في مقتل وتقضي على إبداعه، بعد أن تكبله وتسجنه وتشل تفكيره وخياله.

وما من شك في أن دور الأهل هام وحيوي في اكتشاف مواهب أطفالهم في مرحلة مبكرة من عمرهم ورعايتهم لها وتنميتها، وهناك مثالان فقط من أمثلة عديدة أُذكّر بها الأهل بدورهم في صنع العباقرة والمدعين ورعايتهم؛ وهما الموسيقي العبقري "موتسارت" والعالم الفذ "آينشتاين" الذي قامت اختراعات القرن الماضي على اكتشافاته. فقد لاحظ والدا الطفل "موتسارت" أن ابنهما البالغ الثالثة من عمره، وأخته التي تكبره والتي توفيت فيما بعد، يعشقان الموسيقى، فماذا فعل الأب الذي تعلم في المدارس حتى سن العشرين، وتخرج في المدرسة ليعمل موسيقيًّا؟

بدأ يعلم أولاده العزف على البيانو، وعندما بلغ "موتسارت" الخامسة، صحبه أبواه في جولة في أوروبا، وكان "موتسارت" يعزف على البيانو أمام الجمهور في هذه السن الصغيرة، ورفض والده أن يلحقه بالمدرسة العادية حتى لا يقتل موهبته هو وأخته، وحتى عندما مرضت أخته، كان "موتسارت" يدخل عرفته ويعزف أروع الألحان الحزينة ولم يمنعه أبواه أبدًا عن ذلك.

كان "موتسارت" موسيقيًّا موهوبًا، يمتلك كل أدوات الموهبة والتي يمكن أن تجعله موسيقي عصره والعصور التالية حتى يومنا هذا. فقد كان يسمع اللحن أو السيمفونية التي يكتبها في عقله وبداخله قبل أن يخط حرفًا واحدًا منها على الورق. وكانت لديه مقدرة فائقة على تخيّل رد فعل المستمعين، وحالتهم النفسية عند سماع موسيقاه، على الرغم من أنه لم يكن يذكر سوى في موسيقاه فقط، والتي لمست القلوب وحلقت بالأرواح من سحرها وجمالها، ولولا وجود هذا الأب الواعي والأم المتفهمة لـ"موتسارت"، ربما ماتت موهبته بالسكتة القلبية أو بجلطة مفاجئة من أستاذ فاشل في المدرسة لا يعرف قيمة هذه الموهبة ولا يقدرها.

أما المثال الآخر فهو العالم "ألبرت آينشتاين" الذي لم يكن يتوقع أحد يوم أهداه والده "بوصلة" وهو في سن الرابعة من عمره، أن تكون هذه البوصلة هي كلمة السر التي أخرجت ماردَ حب الاستطلاع العلمي بداخله، وأن تستحث قدراته ومواهبه على التخيل والابتكار والسباحة مع الخيال، حتى أنه كان يتخيل نفسه بعد أن كبر قليلًا، شعاعًا من الضوء يسير بسرعة الضوء، ثم تخيل ما يمكن أن يراه ويرويه لوالده الذي كان يعمل بائعًا للأدوات الكهربائية ويعيد تركيبها، ويتخيلها بشكل آخر وإمكانيات أخرى.

وعندما بلغ آينشتاين الثانية عشرة من عمره، أهداه عمه كتابًا في الهندسة، وكان ذلك الكتاب بالنسبة له مثل "مصباح علاء الدين السحري" الذي أدخله إلى عالم الرياضيات والحيز والفراغ. ثم أهداه أحد أقاربه الذي كان طالبًا في كلية الطب بعض الكتب الطبيعة

لـ"فرويد" "كانت"، فأصبح على الطبيعة وهو عشه الأول والأخير إلى جانب الرياضيات.

وكان "آينشتاين" في ذلك الوقت في المدرسة، إلا أن مدرسيه كانوا يعاملونه على أنه تلميذ عادي أو أقل من المتوسط، باستثناء مادتي الرياضيات والطبيعة التي كان يحصل على الدرجات النهائية. وعندما وصل "آينشتاين" إلى المرحلة الثانوية رأى مدرسوه أنه طالب عنيد وجامح باستثناء مدرسه اليوناني الذي كان يدرس له الفيزياء أو الطبيعة، الذي نصحه بأن يترك هذه المدرسة التي لا تتناسب مع طموحه وقدارته في العالم.

وبعد عام التحق "آينشتاين" بمدرسة أخرى تعتمد على الفهم والرؤية والعقلية أكثر من الحفظ، وبعد عام آخر التحق "آينشتاين" بالأكاديمية متعددة الفنون في "زبورخ"، والتي قبلته فورًا، بناء على اختبارات تم إجراؤها له في الرياضيات والطبيعة. وبدأ يمارس داخل هذه الأكاديمية حرية التفكير والإبداع والتخيل والاختراع وحب الاستطلاع من خلال الإمكانيات المتخصصة الموجودة بها. وأصبح "آينشتاين" أبرز علماء القرن الماضي بعد سلسلة من النجاحات والإخفاقات والصعاب، من خلال الوصول إلى نظرية النسبية وغيرها من الفتوحات العلمية الهائلة.

تربية أطفالنا.. بين التأديب والتأنيب(*)

من منا لا يريد أن يكون أبناؤه أسوياء بكل ما تعنيه هذه الكلمة؟ فنحن نهدف إلى تربيتهم وتهذيبهم، ليكونوا أعضاء نافعين في المجتمع. فهل حققت تربيتنا ما نريد؟ لنبدأ من البيت؛ فالطفل ينشأ ويشب في بيئة تتعامل في تربيته باتباع أساليب التأنيب دائمًا، فعلى سبيل المثال، إذا ما بدأ الكلام وأراد التعرف على مبادئ الحياة، لا يجد منا نحن الآباء والأمهات من يشرح له كنه الشيء الذي يسأل عنه، ونفترض فيه دائمًا أن يعلم نفسه بنفسه.. وإذا ما أخطأ ضربناه، وإذا ما استوضح نهيناه، وإذا ما ذهب إلى مجلس الكبار نُبِذ كما لو كان شيئًا مقززًا.. لا يُسمح له بالحديث، ولا يُقبل منه تعليق، ويُنتظر منه أن يكون آية في الأدب.. تحت اعتقادنا الخاطئ بأن ذلك هو الطريق الصحيح والأمثل للتربية السليمة..

في حين أن الدراسات التربوية والنفسية، تؤكد على أن اتباع أساليب التأنيب والفضاضة، واستخدام الكلمات النابية والجمل القاسية المحبطة دائمًا مع الطفل، تزرع بذور الخوف والجبن والسلبية في شخصية الطفل، وتجعله يخاف أن يخطو بنفسه حتى لا يقع في الخطأ فينزل عليه العقاب واللوم.. وعندما يكبر ينتظر دائمًا

(*) خلف أحمد محمود أبو زيد

من يقول له افعل كذا، ولا تفعل كذا، ودائمًا يحيل ما يعترض طريقه من مشكلات وأزمات إلى غيره.. وبذلك نقتل في أطفالنا القدرة على التفكير السليم، هذه القدرة التي تمكنهم من الاختيار السليم والصحيح الذي لا يجعلهم يتقوقعون في أماكنهم، أو ينجرفون دون وعي لما يقدم لهم.

فالتأديب الحقيقي للطفل لا يتم بالصراخ، ولا بالضغط على حروف الكلمات قبل إخراجها من الفم، كما أنه لا يحدث نتيجة إسماعهم كلمات صح أو خطأ وحرام وحلال، ولكن التأديب الحقيقي للطفل، يتم ببطء، وينمو على فترات طويلة، ويحتاج إلى جهد وصبر من الآباء والأمهات، حتى تصبح القيمة التي نريد أن نغرسها في نفس الطفل بعد ذلك، جزءًا هامًّا من بنائه الأخلاقي، يعيش بها ويدافع عنها.. ولا يتم ذلك الهدف إلا باتباع فن الإقناع، وإن من أهم أدوات ووسائل هذا الفن، مناقشة الرأي والرأي الآخر، وأيضًا مناقشة السلوك الخاطئ والتصرف السيئ بهدوء وموضوعية، مع الشرح لهم بالتفصيل -وبصبر- الأسباب التي تدعوهم لرفض سلوك أو مظهر ما، مع الاستماع الجيد لهم، وتفهم ما يريدون فعله، وأسباب اقتناعهم به.

فالمتأمل لسلوكنا مع أولادنا، يجدنا دائمًا نراقبهم وفي عقولنا هدف واحد هو الإمساك بالسلوك الخاطئ والمرفوض، وعقابهم أو تقويمهم.. ولكن ماذا عن السلوك المقبول والتصرف الحسن من قبل أبنائنا، هل نراه؟ هل نفعل شيئًا لتعزيزه وتنميته والإبقاء عليه بالتشجيع والحث والثناء عليه؟

فالأدب في مفهومنا الشاسع أو الشائع، هو الخضوع لمنطق الكبير مهما كان ذلك المنطق أعوج وغير مقنع. والنتيجة أن كل واحد فينا عندما يشب عن الطوق، يريد -بقدر ما يستطيع- أن يخضع من الناس بقدر ما تعرض له من إخضاع سابق. فلو أن البيت تحول إلى مدرسة تُعلِّم الطفل التأقلم مع الأشياء بلين ولطف، من القول وحسن تفسير لِما حوله من ظواهر، لكان الطفل -بعد ذلك- مقنعًا أو مقتنعًا طبقًا للحجج التي يتعرض لها.

ولنا في رسول الله ﷺ خير قدوة وأعظم نبراس في إرساء دعائم ثقافة التأديب الحقيقي البعيد كل البعد عن أسلوب الزجر والتأنيب؛ هذا التأديب الحقيقي الذي يهدف إلى بناء إنسان تغرس في نفسه وقلبه الفضيلة وحسن الخلق باتباع منهج الإقناع.. يأتي رسولَ الله ﷺ شابٌّ يطلب منه أن يسمح له بالزنا، ونرى هنا الرسول ﷺ المربي لا ينهره ولا يعاقبه ولا يؤنبه، وإنما يحاوره؛ فقال ﷺ: "**أتحبه لأمك؟**" فقال لا، جعلني الله فداك، قال: "**كذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم**"، "**أتحبه لابنتك؟**" قال لا، جعلني الله فداك، قال: "**كذلك الناس لا يحبونه لبناتهم**"، "**أتحبه لأختك؟**"، وهو يقول في كل واحدة لا، جعلني الله فداك، وهو ﷺ يقول "**كذلك الناس لا يحبونه**" (رواه الإمام أحمد). وانصرف الشاب من عند النبي ﷺ مقتنعًا بخطورة الزنا وضرره على المجتمع. وأي أخلاق أرقى وأعظم من ضرورة البعد عن القسوة والفظاظة في التعامل مع الطفل وإشعاره بالحب والحنان؟ فعن أبي هريرة ﷺ قال، قبّل رسول الله ﷺ الحسن بن علي وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالسًا، فقال الأقرع إن لي عشرة من الولد

ما قبّلت منهم أحدًا، فنظر رسول الله ﷺ إليه ثم قال: "**من لا يرحم لا يُرحم**" (رواه البخاري)، فيتغير الأقرع بن حابس إلى نقيض ما كان يفعله، ذلك أن الابن أو الابنة، قد يحتاج إلى قبلة أو حضن من الأب أو الأم باعتبار ذلك حاجة نفسية واجتماعية لا تقل عن حاجة الطفل إلى الغذاء. ومن هنا يلفت النبي ﷺ أنظارنا إلى ذلك عند التعامل مع الطفل، ليشعر بالحب والحنان والرعاية والاهتمام التي تجعل الطفل يطرح كل ما يجيش داخل نفسه من تساؤلات، طالبًا الرأي والمشورة من الوالدين اللذين يحيطانه بكل رعاية واهتمام، ويسيران به خطوة خطوة نحو الرد السليم الذي لا بد أن يكون مقنعًا للطفل.

إذن، إن أهم ما نحتاجه بالفعل، هو بذل الجهد والوقت في تربية أبنائنا بصورة صحيحة قائمة على التأديب الحقيقي، الذي يجب أن يتم بالإقناع ومناقشة الابن. فإن أهم شيء يجب علينا أن نفعله قبل أن نربي ونعلم أنفسنا لنكون آباء وأمهات، وقبل أن نربي ونعلم أولادنا ليكونوا أبناء، يجب علينا أولًا ألا نزرع الخوف والرهبة في قلوبهم بمعاملتهم بصورة مهينة تُفقدهم ثقتهم واحترامهم لأنفسهم تحت دعوى أن ذلك هو الطريق الصحيح لتقويم الاعوجاج في سلوكهم، ولكن علينا أن ندرك يقينًا أن زرع الحب في قلوبهم بالحوار الطيب واللفظ الحسن مع إظهار المشاعر النبيلة التي أودعها الخالق عز وجل في قلبي الأبوين، ينير لهم الطريق إلى فعل الصواب والتحلي بالآداب والأخلاق الفاضلة.

كيف نكون
الحس الديني
لدى الأطفال
؟!

كم من أبٍ تمنّى لابنه أن يتحلّى بالقيم التربوية؛ إلا أنه ربى عدوّه في بيته دون أن يشعر، إلى أن رآه شيطانًا يافعًا لا أملَ في استقامة عودِه!!

وكم من أمٍّ ضحّت بالغالي والنفيسِ أمام فلذةِ كبدها؛ آملةً أن تجدَ فيه إشراقَ المستقبل وسعادة الغد، فغدا رمزًا من رموزِ الشقاء والتعاسة!!

إن المشكلة ههنا غالبًا ما تكمن في جزئية التربية منذ الصِّغر، فقد استُخدِمت وطُبِّقت على هذا الطفل وأمثاله منذ نعومة أظفارهم مناهجُ تربوية فاشلة، ظاهرها فيه النفعُ وباطنها من قِبَله الشقاء.

لذا فإن التربية الصحيحة ليست بالأمر السهل ولا بالعمل البسيط، وإنما هي من أعقد العمليّات الحياتية وأدقّ التفاصيل الدنيوية.

ومساهمةً منا في تصحيح المسارِ التربوي لدى الأسرة المسلمة؛ فقد قمنا بإصدار هذا الكتاب القيم عن التربية، محاولين لفت أنظار الأسر ذات المسؤولية إلى أهمّية مسؤولياتها الأخلاقية والتزاماتها التربوية؛ سائلين المولى جل جلاله أن يكتب فيه النفع والإفادة.

ISBN 978-977-6631-20-5
9 789776 631205

بـــروج
BURUJ BOOKS